طريق العودة



يوسف السباعي

يوسف السباعى

طريق العودة

يطلب من : مكتبة مصر بالفجالة
٣ شارع كامل صدقى

الإهـداء

إلى صديقى صاحب هذه القصة ..
مع الاعتذار عن طريقة ختامها ...
إنه ختام واقعى ... استعرته من حياة غيره ...
لأختتم به قصته ... وأحل به مشكلته .
أطال الله عمره .. وأبقى حياته .

يوسف السباعى

الفصل الأول

طريق العودة

فى خريف عام ١٩٤٨ ، وقبيل المعارك الحاسمة التى انتهت بها عمليات القتال الأولى فى فلسطين .

والقطار ينزلق ببطء من محطة القاهرة .. وهو قد جلس وحيدا فى الديوان .. مدد ساقيه على المقعد المواجه وقذف بالبيريه الكاكى فاستقر فوق الرف الشبكى .. وبدأ يفك توكة الحزام وأزرار السترة .. وأطلق من صدره زفرة راحة واسترخاء ..

لم يطل من النافذة كبقية الركاب ولا لوح بيده لأحد .. لأنه لم يكن هناك من يطل عليه أو يلوح له .. لقد أوصله سائق العربة البيك أب .. ووضع له الأمتعة فوق الرف .. ثم رفع يده بالتحية وانصرف ..

لم تكن هناك مظاهر وداع .. لقد انتهى منها فى البيت .. وحتى هناك لم يكن الوداع وداعا بكل مظاهره .. كان وداعا إلى حين .. فما كانت الفرقة لتطول .. ولو أحس أنها ستطول لما منح وداعه حرارة أشد أو لهفة أكبر .

لقد كان فى حالة تبلد لا تسمح له بالإفراط فى مظاهر الشعور أيا كان نوعه .. لا فرح ولا ضيق ولا حزن ولا غضب ..

كان أشبه بالمنتهى من شوط سباق .. استلقى فى نهايته .. لا يريد أكثر من أن يلتقط أنفاسه .. ويخرجها فى هدوء وطمأنينة .. غير مكروب ولا لاهث .. هانئا باسترخائه واستقراره .. وإلقاء أعبائه وانتهاء متاعبه .

وانساب القطار تحت سقيفة المحطة وانحسر ظلها عن نوافذه .. وألقت الشمس أشعتها على ساقيه .. وتواترت أمام عينيه الأشجار والأسوار والدور العالية والعربات المتسابقة فى الشارع الممتد جواره .. وخلف القطار وراءه عمارة غمرة العالية .. وأخذت ضجة المدينة تتباعد .. ومناظرها تتلاشى و لم يعد يمر به سوى أكشاك سكة الحديد السوداء .. وعرباتها المتناثرة هنا وهناك .. وبدأت الحقول الخضراء تلوح لعينيه .. فى مساحات شاسعة لا تقف فى سبيلها سوى أشباح أكواخ سود تقطع خط الأفق الذى يرسمه التقاء فسحة السماء الزرقاء ببسطة الأرض الخضراء ..

وأحس براحة أكثر ..

لقد ألقى المدينة وراء ظهره .. بكل ما فيها من متاعب ومشاكل ..

أجل .. مشاكل .. ليس يدرى كيف تراكمت وتعقدت حتى .. أحس فى النهاية أنها قد أمسكت بخناقة وأحاطت بعنقه .. فكتمت أنفاسه .. وحطمت أعصابه ..

لقد استطاع أن يخلق له اسما ويوجد له كيانا كمهندس معمارى .. قلما أتيح لشاب فى مثل حداثته وفى مثل وضعه ..

إن طبيعته الفنانة الخالصة .. لم تستطع أن تقبع فى نطاق الوظيفة الضيق و لم تحتمل مواهبه أن تقيد إلى مركز محدود الإنتاج .. و لم تلبث قدراته أن تسربت إلى نطاق أوسع وميدان أكثر تحررا ..

كان فنانا بطبيعته .. كانت هندسة الإنشاء والتعمير فى دمه وفى كيانه .. وعندما تخرج فى كلية الهندسة والتحق بالجيش وتسلم عمله كضابط لأشغال إحدى المناطق العسكرية .. أخذ ينظر إلى الثكنات العسكرية فى ضيق .

شىء ما لا بد أن يحدثه فى هذه الثكنات الكئيبة المقبضة .. شىء يكسبها بعض الجمال والرونق .. ويمنحها بعض النور . ليس مفروضا على الجنود أن

يسكنوا فى قبور ضخمة مظلمة سميكة الجدران .. ليس مفروضا عليهم أن يحرموا نعمة الجمال والضوء ..

شيء جديد لا بد أن يدخل على هندسة البناء العسكرى .. كما دخل على كل أنواع الأبنية فى عالمنا المتحضر .. فلم يقل أحد إن هذا النوع المقبض من الأبنية ذات الأقبية والأعمدة السميكة .. المأخوذ عن أبنية ثكنات الإنجليز والمعروفة من القرون الوسطى .. قد أضحت فرضا لازما للعسكرية .

وبدأ فى حدود سلطاته .. يفعل أشياء جميلة .. لم يجعل عمله مقصورا على فرشة الجير وتسليك البكابورتات وإصلاح النور فى الثكنات .. بل بدأ يقيم إضافات جديدة .. هنا وهناك .. يصلح واجهة .. أو يعدل مدخلا ..

ول تزعج أعماله تلك أحد الرءوس المهيمنة على رياسة الأشغال العسكرية فقد كانت بطبيعة سلطاته المحدودة ... ضيقة النطاق .. لا تتعدى مظاهر الإصلاح والترميم .. التى يمكن التجاوز فيها عن عبث المهندسين الجدد وحماسهم ..

حتى أوكل إليه .. أن يضع تصميما لأحد الأبنية الجديدة المنشأة فى منطقته .

وعنها .. وبدأ الرسم ..

لقد كانت فرصته الأولى ليحطم النماذج العتيقة الكئيبة التى فرضت على المنشآت العسكرية .

وظهر البناء الجديد .. فبدأت مشاكله ..

المشكلة الأولى هى إصرار المدير على أن يفتح شباكا بحريا فى مكتبه . وإصراره هو على ألا ينشأ الشباك لأنه سيشوه واجهة المبنى .. وانتصر هو فى النهاية .. وكان على المدير أن يبحث له عن حجرة بحرية أخرى أو يحتمل حجرته بلا شباك بحرى .

والمشكلة الثانية .. هى ثورة رؤسائه على هذا الشباك الذى أقامه .. وعلى خروجه عن تقاليد الأبنية العسكرية ..

وانتهت المشكلة بأن ظل البناء كما هو ..

وظل هو يصمم ويشيد بطريقته التى يوحى بها إليه شيطان فنه ..

وأخيرا طفح الكيل .. أو بلغ السيل — كما يقول الفصحاء — الزبى ، وأحس المسئولون عن الأشغال العسكرية أن زمام الأبنية إن استمر فى يد هذا الأحمق الصغير .. سيطيح بتقاليدهم .. وكان عليهم أن يصدروا أمرا عسكريا يحتم عدم الخروج عن التصميمات الموروثة عن الأجداد .. والاكتفاء بالأقبية والأعمدة الضخمة .. وكفى الله المهندسين شر المعمار ..

وكان على المهندس الصغير أن يبحث له عن عمل آخر غير التنظيم والبناء .. فنقل إلى سلاح المهندسين ليثبت مظهر نبوغه فى الغازات السامة والألغام والأسلاك الشائكة ..

ولكنه كان يجب أن يرسم .. وأن يصمم .. وأن يجلس ليرقب .. هذا الشىء الذى وضعه على الورق .. وقد تجسد .. واستقام .. وعلا وأضحى فيلا جميلة .. أو عمارة شاهقة .

وأنشأ له مكتبا خاصا للرسم .. وبدأ يجاهد فى السوق .. لم يترك مناقصة أو مسابقة إلا اشترك فيها .. وكان لا بد أن يفوز .. لأنه فنان .. ولأنه يهوى مهنته .

ولمع اسمه .. على حداثته .. وزاد ربحه على قصر اشتغاله بالمهنة الحرة وزاد الإقبال على مكتبه .. زيادة وضعته فى مصاف القدامى من المهندسين المعماريين .

وهنا ارتكب غلطته الكبرى .

فقد بدأ يدخل فى عمليات المقاولة وتجاوز عمله من التصميم إلى التنفيذ ..

و لم ينجح ..

لا يدرى لمه ..

قد تكون حاجته إلى عبقرية المقاول . وعبقرية المقاول .. شيء آخر غير عبقرية الفنان .. بل هى قد تحتاج من الصفات إلى نقيضها .. فالفنان عماده الخيال ..

والمقاول .. عماده الواقع .. الفنان يخلق فى الهواء .. والمقاول يبنى على الأرض .. الفنان يحتاج فى خلقه إلى السكينة والهدوء .. والمقاول يحتاج .. إلى الصياح والضجيج .. الفنان لا بد أن يسرح .. والمقاول إذا سرح ضاع ماله .. ودك صرحه ..

وقد تكون حاجته .. إلى التجربة الطويلة .. وإلى معرفة الناس وممارسة التعامل معهم .. وفهم عاداتهم وأخلاقهم .. لقد خرج من المدرسة إلى الثكنات إلى المكتب ، مليئا بحسن الظن وطيب الفهم .. لم يمارس الخداع .. ولا المماطلة .. وخير المقاولين ما نشأ .. فى الصفوف .. وتدرج من عامل .. إلى ريس .. إلى أسطى .. إلى ملاحظ .. إلى صبى مقاول .. إلى مقاول .

ففى تدرجه هذا سيمارس كل أنواع السفالات المتوقعة .. بين جميع الطبقات .. وعندما يمارسها الناس معه .. لن يؤخذ بها .. فهو يتوقعها قبل أن تحدث .. بل أكثر من هذا سيدخلها فى حسابه .. فهو يعرف جيدا .. أن العمال قد يتخلون عنه بسهولة وأن الأسطوات قد يتعاقدون معه ومع غيره .. ثم يذهبون إلى ثالث .. كل هذا يجب أن يدخل فى حساب العملية ..

هكذا يجب أن يكون المقاول .. و لم يكن هو كذلك ..

وقد تكون حاجته إلى رأس المال .. فلا بد أن يستند المقاول إلى رصيد محترم .. يجرى به عملياته العديدة ، ويظهر بمظهر الرجل القوى القادر على كسب الثقة .. ولا يلجئه إلى الجرى وراء العميل .. واستحلاب نقوده ..

قد يكون هذا أو يكون غيره ..

المهم أنه فشل فى عمله كمقاول .. فشلا ذريعا وجد نفسه فجأة .. متورطا فى بضع عمليات متوقفة .. دون أن تكون لديه القدرة على دفعها والاستمرار فيها ..

وأحس أن كل من حوله يريدون نقودا .. يوميات عمال .. وأثمان خامات .. والعملاء لا يريدون دفعا .. لأنهم دفعوا الأقساط المستحقة .. بل ودفع بعضهم زيادة عليها .. وهم يتعجلون أبنيتهم ويهددون بتنفيذ الغرامات الموجودة فى العقود .. وبعضهم يهدد بالشكوى إلى القضاء .. بل إن أحدهم قد أرسل إليه إعلانا على يد محضر ..

لم يعد إذا .. فنانا .. يمارس عمليات الخيال والجمال .. بل أضحى يمارس عمليات الحياة .. فى بؤرة الواقع .. غريقا فى المونة والأخشاب والأدوات الصحية .. والبلاط .. والمسلح .. مشدودا من عنقه إلى النجارين .. والمبيضين والسباكين ..

وباتت حياته سلسلة من المشاكل والمنغصات .. وباتت معاملاته قائمة على سلسلة من المماطلات .. العمال يماطلونه .. وهو يماطل العملاء ..

واستدان و لم يفلح الدين فى فض مشاكله وفك أزمته .. وتعذرت عليه الحياة .. العادية .. لم يعد مرتبه يكفى لسد حاجاته . والوفاء بديونه .. لم يعد يملك أجر البيت أو مصاريف مدرسة ابنته .. أو سد قسط العربة ..

وكان لا بد من عملية تصفية .. ليس فقط لأعماله الحرة .. ولمكتبه .. بل لحياته .. ولمنزله ..

و لم يكن هناك منفذ له .. إلا .. أن ينقل إلى إحدى وحدات الميدان ..

أجل .. ذلك هو الباب المفتوح أمامه لكى ينقذ نفسه من تلك الشبكة المعقدة التى أحاطت بحياته .. ولكى يخرج من حالة اليأس القاتل التى دفعتها

فى نفسه سلسلة أعمال الفشل التى منى بها .. وسلسلة الخيبة والخذلان التى أصيب بها من كل من تعامل معه ..

كانت عملية تصفية وهروب واستجمام ..

بدأها ببيع عربته .. وتصفية أعماله على أساس تحويلها إلى دين واحد يمكنه سداده على أقساط يوفرها من مرتبه المضاعف الذى سيستولى عليه فى الميدان .. ومن عمليات التوفير التى سيجريها فى حياته بعد أن يترك بيته .. ومن المبلغ الذى سيحصل عليه من إيجار البيت ..

وهكذا استطاع أن يدبر أمره .. ويرتب حياته خارجا من كل ما كان يحيط به .. صفر اليدين .. إلا من زوجه .. وابنته .. ومركز قائد إحدى سرايا المهندسين فى العريش ..

وأحس بالقطار يتهادى .. فتهادى فى تفكيره .. وتمهل فى شروده .. وتنقل بصره من النافذة على أعمدة التلغراف ثم قوائم السور المتتالية . فأشجار التوت الجرداء .. فلافته « بنها » حتى انتهى إلى مبنى المحطة القديم القذر .. وبدأ كعادته يضع له التصميم الواجب .. إنه يستطيع ببعض التعديلات أن يخلقه خلقا جديدا ..

هذه الواجهة يجب أن تزال .. ويجب أن يوضع هناك عمود يحمل السقف .. وفى الجانب الأيمن لا ضرورة لهذا الكشك القذر .. و .. و .. وصفر القطار وغاب المبنى عن عينيه .. وتلاشت معه أصوات الباعة .. سميط وجبنة .. وكازوزة . وانبسطت مرة أخرى أمام عينيه الصفحة الخضراء ..

لقد ترك مديحة زوجته مع ابنته نادية .. فى بيت أبيها .. وهو لا يحس الآن بألم الفرقة .. أو ضيق الوحشة .. لقد أبغض حياته .. بكل ما فيها ..

لا يعنى بالطبع أنه أبغض مديحة .. فهى مخلوقة طيبة يمكن احتمالها كزوجة .. رغم بعد الشقة فى أفكارهما وذوقيهما .

لم يكن هناك أى تطابق بين شخصيتيهما .. وهو لا يدرى إذا كان هذا ضرورة للزواج .. أم لا .. هناك أشياء كثيرة لا تفهمها منه .. وهو لا يجد هناك ضرورة لإفهامها .. فهى تؤدى واجبها له ولابنته .. بلا حاجة إلى أن تدخل فى أعماقه ..

وهو لم يحاول أيضا أن يفهم ما فى أعماقها .. قد يكون لأنه لم يكن لديه وقت لهذا .. أو لأنه لا يعتقد أن هناك شيئا فى أعماقها ..

وابنته لطيفة .. لقد أحبها أكثر مما اعتقد أنه يمكن أن يحب أى إنسان .. وعندما ولدت .. لم يحس لها شيئا .. كانت مخلوقا غريبا عنه .. كأنه قطعة أثاث أو إحدى القطط التى تعودت زوجته ملاعبتها والعناية بها ..

وقد أخذ على نفسه هذا .. وساءه تبلد شعوره الأبوى .. ولكن الزمن أراحه .. فلم تكد نادية .. تعى ما حولها .. ولم تكد تبتسم له .. حتى أحس بشىء يجذبه نحوها .. وبرغبة فى حملها والتحديق فيها ..

ومر بها العام تلو العام .. وقد بلغت الآن السادسة والمفروض أن تدخل المدرسة فى أكتوبر هذا العام أى بعد بضعة أسابيع ..

لقد مرضت وهى فى الثالثة بالتيفوئيد .. وروعت أمها بمرضها وروع الجميع .. ولكنه كان أقلهم ارتياعا .. ربما لأنه لم يحس خطورة المرض عليها ..

هو يحبها ما فى ذلك شك .. ومع ذلك .. فهو يحس الآن بحال « زهقان » من الدنيا .. بكل ما فيها .. ومن فيها .. ولو خير أن يبدأ حياته من جديد .. لما تزوج .. ولما أنجب .. إنه وحده يستطيع أن يكون أكثر شجاعة فى مجابهة مشاكل الحياة .. فلم يكن يفزعه من أزمته إلا تفكيره فى زوجته وابنته .. لقد كان يحس أنهما عبئان على كتفه ..

وما زال هذا الأحساس يتملكه حتى الآن .. إنه لا يستطيع أن يحس بشعور المغامر المتحرر .. لقد فر من حياته فى القاهرة .. ولكن عليه أن يرتبها

فى العريش .. ثم يدبر أمر مستقبله على أساس إعادتها مرة أخرى فى القاهرة ..

وتثاءب وتمطى .. وأطلق من صدره زفرة .. ثم استرخى .. لماذا يتعب نفسه فى كل هذا الآن ؟.

لقد تخلص من شبكة المشاكل وقذفها وراء ظهره .. وهو يجلس الآن مسترخيا مرتاحا .. وعندما يصل إلى العريش سيكون استرخاؤه أتم وراحته أكمل .. لقد قالوا له .. إن له بيتا لطيفا .. وهو لا شك بعيد عن خطوط القتال .. وما فيها من مضايقات ومنغصات ..

وسيرسل لإحضار مديحة ونادية لقضاء فترة قبل دخول المدرسة .. إذا وجد البيت لائقا والجو ملائما .. وإذا زالت من نفسه حالة الزهقان التى يحس بها نحو الدنيا كلها .. وإذا عاودته الوحشة إلى كلتيهما ..

وتثاءب ثانية وتمطى ..

وأحس بفتور النوم يسرى فى أوصاله .. وأسند رأسه على مسند المقعد وأغمض عينيه .. وراح فى إغفاءة ..

الفصل الثانى

خطـايا

لم توقظ إبراهيم .. وقفة القطار فى الزقازيق .. وكان من المحتمل إلا توقظه وقفته فى الإسماعيلية .. لولا ضجة أحدثها رفيق جديد .. فى الديوان .. تعمد بها أن يوقظه ..

هتف الرفيق الجديد فى حماس :

ـــ من ؟.. إبراهيم شكرى .. ماذا أتى بك هنا ؟!

وفتح إبراهيم عينيه .. و لم يبد عليه حماس .. مساو لحماس الجانب الآخر .. لأن الحماس لم يكن فى طبعه .. ولأن حالة النوم والزهقان السابق للنوم كانت تمنعه من كل محاولة لافتعال الحماس ..

خفض ساقيه .. وأقام جسده الطويل الرفيع .. ومد يده مبتسما .. مرحبا وهو يقول فى لهجة منحها النوم كثيرا من استرخائه :

ـــ أهلا مراد .. كيف حالك ؟.

ـــ كيف حالك أنت .. ما الذى أتى بك هنا ؟.

ـــ نقلت إلى العريش ..

ـــ مدهش .. سنخدم سويا مرة أخرى .. أتذكر عندما كنت ضابطا مستجدا فى الأشغال ..

ـــ عندما سرقت منى الخشب ؟..

واندفع الاثنان فى قهقهة عالية ..

كان إبراهيم يذكر الحادثة جيدا .. بل ذكرها .. قبل أن يذكره بها مراد .. ذكرها بمجرد أن رآه .. فقد كان شخصه مقرونا بها فى ذهنه دائما .. كانت نموذجا لاستهتاره وجرأته ..

إنه يذكر أول لقاء لهما فى مكتبه .. فى كوبرى القبة عندما زاره ببدلة الشغل البنية الشبيهة ببدلة العمال وقد تلوثت يداه بالشحم والهباب .. ووقف أمامه بجسده القصير وكتفيه العريضتين كأنه مصارع أو حمال أثقال .

وحياه ببساطة كأن بينهما قديم معرفة وسابق ود .. ورد عليه إبراهيم تحيته ببرود وقد خيل إليه أنه من عمال الصيانة ..

واستطرد مراد فى حديثه بلا مقدمات قائلا :

ـــ لقد استلمت ثلاث دبابات جديدة .. ونريد لها جراجا .. بسرعة ..

ونظر إليه إبراهيم فى غيظ :

ـــ من أنت أولا ؟

وضحك مراد ضحكة بدت منها طيبته وأجاب :

ـــ لقد ظننتك تعرفنى .. لأنى أعرفك .. أنا الملازم أول محمود مراد .. ضابط إمداد آلاى الدبابات ..

ـــ أهلا وسهلا ..

ـــ لقد استلمنا ثلاث دبابات من الجيش الإنجليزى ونريد أن نقيم لها جراجا فى الأرض الكائنة بجوار الميس ..

ـــ اكتبوا خطابا للمصلحة ..

ـــ ليس هناك وقت للخطاب ..

واستمر إبراهيم .. يشرح له ببرود ما يجب عمله ..

ـــ والمصلحة ستحول لنا الخطاب إذا وافقت .. ثم ستجرى مقايسة ..

ـــ لماذا كل هذه الإجراءات المعقدة ؟..

— ثم ترفع المقايسة إلى المصلحة .. وعندما توافق عليها .. يكتب إلينا .. ثم ..

— إننا نريد الجراج حالا .. لا يمكن أن نترك الدبابات تبيت فى الطل .. حتى تجرى أنت مقايستك ..

— هذه هى الأصول ..

— الأصول ألا تترك الدبابات فى الخارج .

— إذا أقم أنت لها جراجا بمعرفتك ..

— سأفعل ..

— لماذا إذا أتيت إلّى ما دمت قادرا ؟..

— كنت حسن الظن بك .. الضابط الذى قبلك كان يفعل لنا كل ما نريد بمجرد أن نطلبه ..

— كانت فوضى ..

— متشكر ..

— العفو ..

وخرج مراد غاضبا .. وكان إبراهيم يعرف أنه يستطيع أن يقيم له الجراج لو أراد .. فلديه من الخامات الوفر .. ما يستطيع أن يفعل به أكثر من هذا .. ولكن طريقة دخول مراد عليه .. ولهجة كلامه لم تعجبه ..

ففضل أن يتبع معه الأصول .. ولا يفعل له شيئا .. حتى يعود إلى رجائه مرة أخرى ..

و لم يعد إليه مراد .. وفى صباح اليوم التالى .. وهو فى طريقه إلى مكتبه .. وجد الجراج مقاما بالعروق الخشبية والسقف الصاج .. وقد أوت الدبابات الثلاث إليه ..

وذهل إبراهيم ..

وزاد ذهوله عندما دخل إلى ثكناته فإذا بكوم العروق الخشبية المرصوص بجوار المخازن والملاصق لجدار الفرسان قد تناقص إلى النصف وإذا بالمخزنجى يقبل عليه مرتجفا لينبهه إلى أن جنود الفرسان قد سطوا على الخشب خلال الليل ..

وثارت ثائرته .. فقد أدرك أن ضابط الفرسان قد نفذ تصميمه .. وأخذ الخشب والصاج وبنى الجراج خلال الليل عنوة واقتدارا ..

واندفع فى ثورته إلى رياسة الفرسان .. ليشكو حادث السرقة والاعتداء ..

وفى طريقة صادف مراد فحياه ضاحكا ..

— صباح الخير ..

— صباح الخير ..

— الجراج عجبك ..

— هذه بلطجة ..

— لتكن .. المهم أن الجراج قد عمل والدبابات لم تبت فى العراء ..

— سأهدمه .

— إياك .. لقد أمرت الجنود أن يضربوا كل من يقترب منه من عمال الأشغال ..

— لا بد أن نستعيد الأخشاب ..

— ولماذا لا تضع بها المقايسة المطلوبة .. سأسلمك الخطاب الذى تريده .. وتتخذ أنت إجراءاتك على أقل من مهلك ..

ووضع يده فى ذراعه ثم سحبه إلى مكتبه ضاحكا وأردف يقول ..

— تعال .. نشرب فنجانا من القهوة .. ونتفاهم ..

ولم يملك إبراهيم إلا أن يضحك ويسير معه قائلا :

ـــ نحن لا نعيش فى ثكنات .. إننا نعيش وسط عصابات .. هذه أول مرة أسمع فيها .. عن مثل هذا النصب ..

ـــ لأنك مستجد .. عندما تقدم ستسمع كثيرا ..

ـــ هذه آخر مرة أسمح فيها بمثل هذه السرقة ..

ـــ عبيط .. لقد وفرت عليك نقل الأخشاب .. وإقامة الجراج .. ووفرت عليك الأخذ والعطا بيننا وبين المصلحة .. احمد ربنا ..

وكان مراد على حق .. لقد كان ما فعل .. هو خير طريقة لإقامة الجراج ..

وكانت تلك هى طريقته الدائمة فى الحياة .. كان جسورا مندفعا .. مستهترا .. لا يقيم وزنا للشكليات الخلقية أو القيم الموضوعة .. المهم أن يصل إلى ما يريد .. بأسرع السبل وأيسر الوسائل ..

وقد صادفه بعد ذلك .. فى عدة مناسبات .. كانت إحداها معركة فى أتوبيس .. ضرب فيها السائق والكمسارى لأنه لم يقف فى المحطة .. رغم خلو الأتوبيس ووجود ركاب على المحطة ..

ومرة أخرى .. على باب إحدى صالات عماد الدين محاطا بزحام .. بعد أن أغلق الصالة ..

وثالثة .. ورابعة .. كلها مناسبات تهور وعراك وجرأة واستهتار .

وسمع عنه أنه ضرب أربعة جنود من الجنود الاستراليين أيام الحرب .. حتى أفقدهم وعيهم .. لأنهم سكروا وحاولوا اغتصاب إحدى الفتيات فى الطريق ..

ولم يكن هناك سبيل إلى أن تقوم بين الاثنين علاقة وطيدة .. فقد كان التناقض فى خلقهما على أتمه .. ولم تستطع الأقدار أن تجمع بينهما إلا فى ظروف عمل متقطعة كانت تتباعد وتتقارب حسب حاجات العمل ..

حتى انقطعت العلاقة تماما بعد أن نقل هو إلى سلاح المهندسين وسافرت

معظم وحدات الفرسان إلى الحدود الشرقية عندما نشب القتال فى فلسطين ..

وعندما لقيه اليوم فى القطار .. لم يجد شيئا به قد تغير .. نفس الجسد العريض القوى .. والقوام الربعة .. والقميص المفتوح الذى يبرز منه شعر صدره المشعث .. والأكمام المشمرة التى تكشف عن عضلات ساعديه .. وشاربه الأصفر المنكوش تحت أنفه كأنه شواشى الذرة .. أو كأنه فيونكة صفراء فى وجه قطة .. وصوته المرتفع وضحكته العالية الصافية .. وإقباله المندفع الحار المتحمس بسبب وبلا سبب ..

كان تماما .. كما أقبل عليه فى مكتبه .. يطلب إنشاء الجراج بسرعة .. لم يتغير به شىء سوى .. اتساع فى جبهته نتج عن تساقط بضع شعرات من مقدمة رأسه كانت — مع النحول البادى فى مؤخرتها — إيذانا ببدء الصلع ..

ونظر مراد إلى إبراهيم مدققا ثم قال :

— لم تتغير فى شىء .. ما زالت بك نفس النحافة والهدوء ..

— ولا تغيرت أنت .. ما زال بك نفس التحدى والبلطجة ..

— لا .. لقد خشعت كثيرا .. كبرنا يا إبراهيم .. السن عليها معول .. مضى على بضعة أشهر لم أضرب فيها أحدا .. إلا بواب البيت الذى أنزل فيه فى الإسماعيلية .. فقد رقعته علقة طيبة .. على الريق ..

— لماذا ؟.

— ابن هرمه .. مضى علىّ ثلاث ليال .. أغمض عينى فى الساعة الثالثة صباحا لأفتحهما فى الثالثة والنصف .. على صوت صراخ مزعج .. يطرد النوم من عينى .. وعندما سألت فى الصباح علمت أنه بواب العمارة يؤذن الفجر .. وقد حاولت نصحه .. بالكف عن الأذان بهذه الطريقة المفزعة فقال لى إنه رجل مؤمن .. وإنه حر فى أن يؤذن كما يشاء .. حاولت أخذه بالحسنى

.. وقلت له إنه حر فى أن يؤذن كما يشاء ولكنه ليس حرا فى أن يزعج الناس كما يشاء .. وأفهمته أن مهنته بواب وليس مؤذنا .. وقلت له إنه يستطيع إذا حزقه الأذان أن يؤذن فى سره .. و لم يرتدع بالطبع .. وفى الليلة الثالثة ازداد أذانه علوا .. وتحديا .. كأنما قد توهم نفسه بلالا بين الكفار .. وهبطت من فراشى بالجلباب .. ورقعته علقة طيبة .. وأفهمته أنه يستطيع أن يتدين .. ويؤذن .. ويجاهد فى سبيل الله طول أيام الشهر .. عدا الثلاثة أيام التى أقضيها فى الإسماعيلية ..

— ثلاثة أيام ؟.. ألا تحصل إلا على ثلاثة أيام إجازة فقط فى الشهر ؟

— سبعة .. ثلاثة فى القاهرة .. وثلاثة فى الإسماعيلية ويوم حرية ..

— ولماذا تقطع الإجازة هكذا ؟

— ثلاثة أيام فى القاهرة .. للعائلة .. وثلاثة أيام فى الإسماعيلية للرفق .. بنت جميلة عبارة عن لوز مقشر .. ويوم الحرية .. خبص منفرد .. تفاريح وسكر وعربدة على ما قسم ..

وبدا مراد فى حديثه بسيطا طبيعيا .. كأن المفروض أن تكون للإنسان عائلة ورفيقة ..

و لم تعجب طريقته فى الحديث إبراهيم .. وبدت له انحلالا شائنا .. فقد كان إبراهيم يحترم نظم المجتمع وشرائعه .. ومبادئه .. وقيوده الخلقية .. كان يعرف أن الزواج ارتباط أو عقد لا يجب الإخلال به .. وبعرف أن لزوجته حقوقا عليه يجب صيانتها .. أولها ألا يشرك فى حياته غيرها .. وأن يؤدى لها كل واجب نحوها .. على الوجه الأكمل بقدر ما تمنحه له ظروفه فى الحياة ..

وهو يعرف أن هناك زللا .. وأن هناك خطايا .. فهو لم يبلغ به البله إلى حد تصور الحياة بلا خطايا ..

يعرف أن الرجل يتعرض لشتى الإغراءات فى مختلف أدوار حياته .. ولكنه يعرف أيضا أن مقاومة الإغراء واجبة .. وأن إرادة الإنسان يجب أن تقوم بدورها فى صد الإغراء .. وصيانة الإنسان من الزلل .. وصده عن الخطايا ..

وهو يعرف أيضا أن بعض الناس .. لا تقوى إرادتهم على المقاومة .. فيغرقون فى الزلل .. والحياة مليئة بالمذنبين من كل نوع ..

ولكن الشيء الذى لا يعرفه .. وإن عرفه فهو لا يقره .. هو اتخاذ الزلل قاعدة .. ومباشرة الخطيئة .. على أنها حق طبيعى .. لا داعى لمقاومته ولا ضرورة لصده ..

لقد كره فى مراد اعترافه برفيقته الجميلة وتحدثه عنها بتلك السهولة .. وبنفس الطريقة التى يتحدث بها عن زوجته .. دون أن تكون بينهما صداقة وطيدة تسمح بإفشاء أسراره بمثل هذه السرعة والسهولة ..

ثلاثة أيام للعائلة .. وثلاثة أيام للرفق .. ويوم للسكر والعربدة ..

هذه وقاحة ..

ومع ذلك .. فقد كان على إبراهيم أن يسلم بها .. ويصمت عنها ..

فما كان لديه من الرغبة والجهد .. ما يدفعه إلى القيام بدور الواعظ .. وما كان يعتقد أنه حتى لو كانت لديه الرغبة والجهد يستطيع أن يبدل هذا المخلوق .. ويغير طباعه المستهترة ..

و لم يعلق إبراهيم على قول صاحبه بكلمة .. ولكن مراد لم يخف عليه .. عدم تحمسه .. لحديثه عن الرفق والسكر والعربدة ..

و لم يملك إلا أن يضحك قائلا فى شبه اعتذار :

— إذا لم أفعل هذا .. قضى على ..

— وإذا فعلته قضى على مستقبلك ..

— أنا أعرف كيف أفرق بين أوقات العبث وأوقات العمل .. لا أظنني جعلت إحداها تطغى على الأخرى أبدا . إني أعرف حق عملي ..

— وحق زوجتك ؟!

— أنا لم أقصر في حقها ..

— والرفق ؟..

— لا دخل لها به .. إنه حقي أنا ..

— أتعرف هي هذا ؟

— تعرف أحيانا .. وتجهل أحيانا ..

— وعندما تعرف ؟

— تغضب ..

— وعندما تغضب ؟

— أرضيها .. أو أتركها حتى ترضى .. هذه هي الحياة .. وهذا هو الزواج ..

ولم يعجب هذا الكلام إبراهيم .. ولم يعلق عليه ..

وهز كتفيه كأنما يقول : (لكم دينكم ولي دين) .. وأراد أن يحول دفة الحديث إلى اتجاه آخر فتساءل :

— كيف الحياة في الميدان ؟..

— إما ضرب .. أو نوم ..

— وأيهما أمتع ؟..

— في رأيي أنا .. الضرب .. إن به حركة وحياة ..

— .. وموت ؟!

— بالنسبة لي لم أجربه .. لقد منحته للآخرين ..

ــ وكيف وجدت منحه ؟.

ــ ممتع عندما تحس أنك تثأر لمظلوم .. أو تأخذ حق مهضوم الحق ..

ومد إبراهيم ساقيه .. وأغمض عينيه ..

وأحس بما يشبه الغثيان .. ومرة أخرى كره الحديث .. و لم يجد وسيلة لتجنبه إلا النوم .. أو التظاهر به .. إنه يبغض العنف ويكره الخطأ .. فما باله بالقتل ..

واستمر القطار يشق طريقه بين رمال الصحراء .. كأنه أفعى تنساب ..

الفصل الثالث

إحساس بالاستقرار

أخذ القطار يقترب من وقفته الأخيرة فى محطة العريش .. وبدا البحر ممتدا على اليسار .. فى زرقة رائعة .. تتخلل أشجار النخيل الممتدة على طول الشاطىء ..

وأحس إبراهيم بشىء من الانتعاش من زرقة البحر ونسماته الرطبة . ومن خضرة النخيل التى تقطع الرمال الصفراء المترامية على طول الطريق ..

وداخل نفسه إحساس المنتهى إلى رحلة استجمام بعد طول مشقة وجهد .. وشعر كأنه مقبل على مصيف هادىء ناء .. حتى توقف القطار فى المحطة ولاح لعينيه مظهرها العسكرى .. وحجب اللون الكاكى .. الذى بدا فى الأبنية المحيطة .. وفى الرمال .. وفى العربات البيك أب ولوريات النقل الرابضة على الرصيف .. وفى ثياب الجند الذين يملأون ساحتها وينتشرون حولها .. حجب الكاكى فى كل مظاهر العسكرية الغالبة .. ما سبق أن لاح لعينيه من زرقة البحر وخضرة النخيل .. ودفع فى نفسه إحساسا جديدا — لأول مرة — بأنه لم يهزب تماما من المتاعب .. وأن نقله من القاهرة إلى العريش لا يمكن أن يكون — كما أدخل فى روعه — عملية استجمام خالصة .. ألغى بها متاعبه .. ليستلقى فى خمول واسترخاء .. بعيدا عن مشاكل المقاولات والعملاء والديون التى أخذت بخناقة ..

إنه سيكون مسئولا عن عمل .. فى ميدان قتال .. حقيقة أنه لن يكون فى

الخطوط الأمامية .. ولن يرهق أعصابه بقلاقلها .. وشغبها الدائم .. ومناوشاتها المستمرة ..

وحقيقة أنه لا يتوقع أن يلقوا به فى أتون قتال .. أو يدفعوه فى دوريات داخل خطوط الأعداء ..

ولكنه مع ذلك .. لا يعتقد أيضا .. أنه سيتمدد فى فراشه ليتسلى بالقراءة .. أو يستلقى على الشاطئ ليستمتع بأشعة الشمس ..

وهو لا يكره عمله العسكرى .. ولا يستثقله .. فقد كان يباشره بسهولة .. كجزء من روتين حياته .. الذى يؤديه بلا إرهاق ولا تفكير ..

طوابير وتدريبات ومحاضرات .. وتفتيشات . ومشاكل جنود .. ومتاعب رؤساء .. ولا شىء أكثر من هذا .. وكلها كان يتناولها فى يسر .. ويخلص منها بلا عناء ..

ولكن الشىء الذى يكرهه — وإن كان لا يخشاه — هو جو القتال .. بما فيه من توتر .. واضطراب .. وتدمير ..

— كان بطبيعته بناء .. يكره الهدم والتدمير ..

و لم يكن فى هروبه من متاعبه بالقاهرة .. قد فكر قط فى المسألة .. من هذه الناحية ..

كان كل ما يريده .. هو تصفية مشاكله .. والتخلص من مصروفاته .. والحصول على مرتب الميدان الذى يستطيع به أن يسوى ديونه ..

وكان يعتبر انتقاله إلى العريش .. انتقالا اقتصاديا بحتا .. حتى يفض مشاكله المالية .. ثم يعود بعد إلى القاهرة .. لبدء أعماله من جديد .. على أساس تجربة جديدة ..

لم يطف بذهنه إذن .. الجانب الآخر من المسألة .. الجانب الشاق المرهق ..

لم يذكر قط .. الملل .. والتوتر .. والاشتباك فى قتال .. على أية حال .. ذكر .. أو لم يذكر .. إنها تجربة لا بد أن يمر بها .. فلن يحل مشاكله سواها .. وهو — سيحاول جهده — أن يجعلها تمر به فى سلام ..

وتوقف القطار تماما فى المحطة .. ونظر إبراهيم من النافذة علّ هناك من ينتظر ..

ولم يتركه مراد يبحث طويلا فقد جذبه من ساعده قائلا :

— إن عربتى فى انتظارى .. سأوصلك إلى حيث تريد .. هيا .. وسأرسل السائق لإحضار حقائبك ..

ولم يجد إبراهيم ما يفعله سوى اتباعه .. فقد كان لا يدرى شيئا عما يفعله .. ولا كان يعرف أين يذهب .. ولا كيف ..

وجلس مراد فى مقعد السائق .. وجلس إبراهيم بجواره واستقر السائق بجوار الحقائب فى الخلف ..

وانطلق مراد بالعربة قائلا :

— ستتغدى معى .. وإن كنت لا أعرف بالضبط أين سأتغدى أنا ..

— لا ضرورة الآن للغداء .. اذهب بى أولا إلى رئاسة المهندسين .. حتى أقدم نفسى ..

— ولماذا العجلة .. أتعتقد أن أعمال المهندسين ستتعطل إذا لم تلحقها .. علما بأن المهندسين هنا .. لا يفعلون شيئا ..

— وماذا تفعل الفرسان ؟.

— أنا شخصيا .. آخذ حمامات شمس .. عندما لا يكون هناك اشتباك ..

— وفى الاشتباك ..

— أجلس فى الدبابة .. لأقرأ روايات الجيب ..

— ومتى إذن ترتكب عمليات القتل التى تدعيها ..

ـــ عندما تكون الرواية .. بايخة ..

ـــ أنت مهرج ..

ـــ وأنت على نياتك ..

وتوقفت العربة .. أمام مبنى رياسة المهندسين .. وصاح مراد بالجندى الحارس الواقف على الباب ..

ـــ يا عسكرى !.

وجرى العسكرى نحوهم ثم وقف محييا :

ـــ أفندم ..

ـــ من عندك من الضباط ؟

ـــ لا أحد يا فندم ..

ـــ والضابط النوبتجى ؟

ـــ ذهب للغداء ..

ونظر مراد إلى إبراهيم :

ـــ ألم أقل لك .. لا ضرورة للعجلة .. هيا بنا أغديك ..

ـــ لا داعى .. أنزلنى هنا .. وسأنتظر حتى يحضر أو اذهب بى إليه ..

ـــ يا أخى لا تكن عنيدا .. سأغديك معى .. سنعزم نفسينا فى رياسة الآلاى .. إنها لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلو ..

واندفع مراد مرة أخرى قبل أن يجيب إبراهيم ..

ووقفت العربة أمام ميس رئاسة الآلاى .. وكان أحد الأكشاك التى خلفّها الجيش الإنجليزى وقد أقيمت به بعض تعديلات بسيطة .. ورصت به بعض الكراسى الأسيوطى وتوسطته منضدة خشبية مستطيلة .

ولم يجد إبراهيم سببا لرفض دعوة مراد للغداء لأنه كان يعلم أنه لا بد أن يتغدى .. وكانت طريقة مراد فى الدعوة ـــ كعادته ـــ طريقة مكرهة عنيفة

صاخبة .. يتعذر رفضها .. ولا سيما على شخص هادىء مسالم رقيق .. كإبراهيم ..

وانتهى الاثنان من الطعام .. وعاد بإبراهيم مرة أخرى إلى رئاسة المهندسين ، وخرج الضابط النوبتجي .. ليستقبله فى ترحيب وحرارة .

وقضى إبراهيم ليلته مع الضابط النوبتجي .. فى أحاديث متقطعة .. عن الجو والسياسة والحرب .. وفى الصباح .. كان عليه أن يلتقى بقائد المهندسين ويتسلم سريته ..

انتهى من المقابلات والتسليم قبل الظهر .. و لم يجد هناك شيئا أكثر مما يتوقع .. كان العمل تقريبا .. هو العمل الذى تعود أن يقوم به .. وعند الظهر .. دعاه ضابط السرية القديم لتناول الغداء معه فى بيته ..

وذهب إبراهيم ليرى البيت الذى كان سيقيم فيه بعد أن يرحل عنه قائد السرية القديم .. وعندما رآه .. أحس بالكثير من الراحة . وعاوده مرة أخرى إحساس .. المقبل على فترة استجمام ممتعة ..

كان إبراهيم بغريزته المعمارية .. شديد الإحساس بالمكان .. أى مكان .. ببنيانه .. بجدرانه .. بواجهته .. بمدخله .. بدهانه .. وكان لكل ذلك تأثير عجيب فى نفسه .. أكثر كثيرا مما قد يحس به الإنسان العادى .. كان يدفع فى نفسه راحة أو ضيقا .. طمأنينة أو قلقا .. كان أشبه بصاحب الأذن الموسيقية الذى تثيره النغمة النشاز .. ويهدئه اللحن الجيد ..

وقد أحس بمجرد أن أشرف على البيت بأنه لحن جيد وسط عالم من نشاز الأبنية العسكرية والأكواخ الصاج .. والخيام المتناثرة ..

كان البيت يقع على ربوة رملية تطل على الشاطىء .. بعيدا عن المنطقة العسكرية .. وقد شيده الجيش الإنجليزى .. ليستعمل مع بعض بيوت أخرى لضباط المنطقة عند احتلاله لها خلال الحرب الماضية ..

وقد بنى من طابق واحد بالطوب الأحمر والدبش المقسم والسقف الجمالون المصنوع من الأراميد الأحمر .. وقد كسى مدخله بنبات البجمونيا المتسلق ذى الأزهار البرتقالية .. التى هى كانت تبلغ أقصى ازدهارها فى ذلك الوقت من السنة .. وقد رصف مدخله بالبلاط الأبيض الذى يتخلله النخيل الأخضر وأحيط بحديقة تناثرت فيها بعض أشجار الموالح ..

وفوجىء إبراهيم بمظهر البيت وحسن موقعه ..

لم يكن يتخيل قط .. أن هذا هو مأواه فى هذه المنطقة الكاكية الجرداء .. وعندما اجتاز باب البيت .. واجهته صالة رحبة .. بدت فى نهايتها نافذة زجاجية عريضة تطل علي البحر .. تبدو بها ربى الرمال وقد تناثر بها النخيل ووراءه البحر والسماء .. حتى ليكاد يظن الناظر إليها لأول وهلة أنها صورة كبيرة متقنة للبحر زين بها الجدار .. وعلى اليمين بدت له مدفأة بسيطة التكوين .. أنيقة المنظر .. بنيت بالطوب الصورناجة الكبير وفى مواجهتها من الجانب الآخر للصالة .. بدا بار فى نصف دائرة رخامية وقد بثت حولها بعض مقاعد حديدية عالية ..

ووقف إبراهيم يقلب البصر فى الصالة فى إعجاب .. وعلق زميله على نظرته قائلا :

— بيت لطيف ..

— لطيف .. فقط .. إنه مدهش ..

— ومريح جدا .. يوجد على يمينك حجرتان للنوم .. بينهما حمام .. وعلى اليسار توجد حجرة للطعام متصلة بأوفيس صغير .. ثم بالمطبخ .. لقد عشت وزوجتى وأولادى طوال الصيف .. وكأننا فى أجمل مصايف أوربا .. ولم يرحلوا سوى الآن .. اثنان من الأولاد لديهما ملحق ولا بد أن يؤديا الامتحان .. تعال أريك بقيته .. إن به حديقة خضار خلفية ..

وتبعه إبراهيم وهو فى دهشة من البيت و لم يتمالك أن سأل قائلا :

— وكيف استطعت أن تحصل عليه .. يخيل إلى أنه أجمل بيت فى المنطقة كلها ..

وضحك الزميل وأجاب :

— طباخ السم — كما يقولون — يذوقه .. لقد استلمت مع ضابط الأشغال كل منشآت الجيش الإنجليزى .. وكان علينا أن نحجز لأنفسنا بيتين .. فلطشت هذا ولطش هو آخر .. شبيها به .. ولكنه لا يطل على البحر ..

— لقد ضحكت عليه .. فإن الميزة الكبرى فى البيت هو هذه النافذة العريضة المطلة على البحر ..

— ماذا تقول إذن .. لو أنك شاهدتها فى الشروق .. إنها تطل على مشرق الشمس من هذا الجانب .. أترى هذه الربوة العالية .. الكائنة بين مجموعتى النخيل .. إن الشمس تتسلل من ورائها فى الصباح .. بطريقة رائعة ..

— الظاهر أنها رائعة فعلا .. لأنها جعلت من ضابط المهندسين شاعرا يتغنى بشروق الشمس .

— لقد كانت ابنتى أول من رآها .. كانت تستيقظ مبكرة من أجل المذاكرة .. فتصيدت منظرها ..

— وأضاعت الملحق بالطبع ..

— لست أدرى ماذا فعلت .. إنى أريد أن أتعجل النزول للقاهرة لأطمئن على حالهم .. لقد تعودوا ألا يذاكروا إلا بوجودى .. وأنت ؟

— ابنتى لم تحتج بعد إلى رقيب .. سأدخلها المدرسة لأول مرة هذا العام ..

— كيف حالها بعد مرض التيفويد ؟

— الحمد لله .. لقد نجت من التيفويد لتتسلمها بقية الأمراض التقليدية التى

تصيب كل الأبناء .. سعال ديكى .. وحصبة وبقية اللستة .

ـــ لماذا لم تحضرها معك ؟

ـــ لم أتخيل المقام مريحا بهذا الشكل .. كنت أخشى أن أبيت فى خيم ..

ـــ لقد قلت لك إن هناك بيتا مريحا ..

ـــ ظننتك مبالغا .. وكنت فى حالة من الزهقان لا تسمح لى بأن أحمل نفسى عبء اصطحاب أحد .. وإن كنت أفكر الآن فى استدعائها مع أمها لقضاء أسبوعين قبل دخول المدرسة ..

ـــ إذا أردت .. أحدثها عندما أنزل ..

ـــ سأحدثها أنا فى التليفون .. عندما أستقر .. وأدبر أمرى .. أليس الاتصال سهلا فى التليفون ؟

ـــ جدا .. تستطيع أن تطلبها فى أى وقت تشاء .. ولا سيما فى الصباح المبكر ..

ومرت بضعة أيام ، استقر إبراهيم خلالها فى البيت وجرت الأمور هادئة حوله .. كان كل شىء على ما يرام والعمل لا يتعدى بضعة أعمال روتينية كان يستطيع أن يؤديها وهو جالس فى البيت ..

وأحس بالطمأنينة والاستقرار وأضاع الاسترخاء والراحة حالة الضيق والزهقان .. وبدأ يحس بوحشة إلى ابنته .. وخيل إليه أنها تستطيع مع أمها الاستمتاع بفترة استجمام قبل أن يحل موعد المدرسة .. ولا سيما أن أزمته هذا الصيف حرمتهما من الاصطياف ..

ودعا زوجته فى التليفون للحضور .. وبدأ يجرى بعض التجميلات والإعدادات لاستقبال الضيفتين .. الأم والابنة .. وملأ نفسه الإحساس بأنه يدعوهما لمصيف .. وليس فى ميدان قتال ..

الفصل الرابع

امــرأة واجب

وصلت الصغيرة وأمها إلى بيت العريش .. و لم تكن الأم ترحب كثيرا بالسفر .. فقد كانت تجد مدة الإقامة من القصر بحيث لا تستحق عناء السفر ، و لم تكن تحس فى قرارة نفسها بأن إبراهيم نفسه ستطول إقامته هناك . فقد كانت أدرى بطبيعته التى تنفر من حياة العسكرية البحتة ، وبمدى تعلقه برسومه ومبانيه وعماراته ومكتبه الفنى .. وكانت تعرف تماما أن رحيله إلى الميدان لم يكن أكثر من عملية هروب ، دفعته إليها كثرة المشاكل وفرط اليأس .. واضطراب الأعصاب .. وكانت واثقة أنه لن يستطيع الاستقرار لحظة .. إذا ما هدأت أعصابه .. وضاع قلقه .. وأحس بأن مشاكله حلت .. أو على الأقل تباعدت ..

كانت تعرف أنه لن يطيق حياة الوحدة .. وقد حاولت أن تقنعه بعدم السفر .. وعرضت عليه الحياة مع أهلها حتى تفك أزمته .. وتسوى ديونه .. ولكنه أبى قائلا : إنه يريد أن يقطع كل علاقة له بأعماله القديمة .. وإنه يريد أن يمضى فترة استجمام طويلة تهدأ فيها أعصابه .. ويستعيد فيها ثقته بنفسه .. ويحسن حالته المالية .. حتى يستطيع أن يبدأ مرة ثانية من جديد ..

و لم تجد بدا من التسليم بما يريد .. فهى تعرف أن مناقشته لا تجدى نفعا .. فهو دائما يفعل ما يريد .. وهى تلتزم حد النصح ولا تتعداه إلى المناقشة أو الإصرار .. وهى أميل إلى الهدوء والصمت وعدم التدخل فيما لا يعنيها ، ولو كان الأمر بيدها لما تركته يخرج عن دائرة عمله العسكرى قيد أنملة ..

كانت تعتبر أن فى عمله كضابط مهندس فى الجيش كل الكفاية .. كانت تكره الطموح والمغامرة .. وتحب الاستقرار والأمن والسلامة ..

وعندما أنشأ مكتبه الفنى .. هزت كتفيها فى استخفاف كأنما تتركه يلهو ويتسلى .. فلما أصاب نجاحا اعتبرته من باب المصادفة وحسن الحظ .. وعندما بدأ أعمال المقاولات نصحته بعدم الإقدام على المغامرة .. وبأن هذا ليس عمله .. فلم يأبه لها كعادته .. فلما انهارت أعماله ومنى بالفشل .. لم تنزعج .. و لم تشمت فيه .. و لم تلمه .. بل حاولت أن تعينه بكل ما تملك .. وبكل ما استطاعت أن تحصل عليه من أبيها وأمها ..

كانت امرأة واجب أكثر منها امرأة شعور .. كانت بطيئة الانفعال ولكنها قوية الإدراك ..

لم تهمل قط واجبها نحوه .. ونحو ابنته .. ولكن حسب ما تفهمه هى .. الفهم التقليدى الأصولى : وجبات جيدة فى موعدها .. بيت نظيف مرتب يجد به كل شىء فى موضعه ..

ولكنه لم يكن يفهم الحياة على أنها أصول .. وقواعد .. بل كان يعرف أن الأصول هى ما يحلو للإنسان .. وأن القواعد هى ما يريحه .. حتى فى فنه المعمارى كان يكره التقيد بالأصول والقواعد .. وكان يفعل ما يحس أنه الواجب .. لا ما اصطلح الغير على أنه واجب .. كان جريئا فى تصميماته إلى الحد الذى يبديه شاذا ..

وكان ذلك هو نقطة الخلاف بينهما ، ومحور التنافر .. و لم يكن خلافهما وتنافرهما يتخذان أبدا مظهرا جادا .. أو شكلا واضحا .. لأن كلا منهما كان رقيقا بطبعه .. أميل إلى الهدوء والمسالمة .. كما كان كل منهما يحس بحاجته إلى الآخر .. وواجبه نحوه ..

لم يبلغ بينهما الخلاف أبدا حد الصدام .. فقد كان كل منهما ينتحى

ليفسح للآخر طريقه .. دون أن يصطدم به .. ودون أن يغير هو اتجاهه .. كان الخلاف داخليا مستورا بحجب الحاجة ، وحجب الواجب ، وحجب الائتلاف التقليدى اللاشعورى بين أسرة طيبة .

كانت هى مثلا ترى أن فنجان الشاى لا يشرب أبدا بأكثر من قطعتين من السكر ، وكانت عندما تعد له الشاى تضع له قطعتين .. فإذا ما جلسا إلى المائدة سألها :

ـــ وضعت السكر فى الشاى ؟

وتجيب باقتضاب :

ـــ أجل .

ويذوقه .. ثم يضيف قطعتين أخريين .. كان لا يتذوق الشاى إلا بأربع قطع .

وكانت هى تجد أن الأصول أن تضع له السكر فى الشاى ، وألا تضع أكثر من قطعتين ، وكانت تعرف أنه لا يشرب إلا بأربع قطع ، ولكنها لم تجاره أبدأ .

ولم يحاول هو منعها أو نهرها . كان يتركها تضع قطعتين ، ثم يسألها هل وضعت السكر .. ثم يضيف قطعتين أخريين .

وكان ذلك المثل هو نموذج لحياتهما .. خلاف بلا صدام ، تنافر بلا عراك .

كانت تجد أن الأصول أن يخرج فى الشتاء مرتديا البالطو .. وفى كل صباح تخرج له البالطو من الدولاب لتضعه على المقعد .. بجوار بقية ملابسه ..

وكان هو يرتدى كل ملابسه .. ثم يخرج بدون البالطو ..

ولم يقل لها أبدا لا تخرجى البالطو .. ولم تكف هى أبدا عن إخراجه .. ولا ضاق أحدهما ذرعا بالآخر ..

لم يحدث الصدام بينهما .. لأن كلا منهما كان يعرف حدوده .. وكان

هناك شبه اتفاق لتقسيم السلطات بينهما .. كان تنظيم البيت من حقها .. وكان عمله من حقه .. لا يملك أحدهما من وسيلة للتدخل إلا مجرد النصح ..

وفى النواحى المشتركة .. لم يصل الخلاف لحد الصدام ، لأن كلا منهما كان متزنا .. معقولا .. مسالما ..

وعندما دعاها للسفر إلى العريش . لم تتوان عن السفر لحظة واحدة .. كانت تعرف أن المدرسة لم يبق عليها سوى أسبوعين .. وأن هناك إجراءات قد تستدعى وجودها هى والطفلة بالقاهرة فى ذلك الوقت .. ولكنها كانت تعرف أنه قد طلب منها أن تسافر .. وأن واجبها أن تلبى طلبه .. وأن تكون بجواره ما دام يريد ذلك .. وعندما يحين وقت المدرسة تستطيع أن تعود ثانية ..

ووقف بها القطار فى محطة العريش بعد سفر طويل .. لم تجد القراءة أو التريكو أو مناكفات نادية ومناقشاتها فى إضاعة ملله .. وهبطت من القطار بقوامها الطويل الذى منحها بعض الانحناءة .. وقد لفت إشارب حول رأسها .. وبدا وجهها بسمرته ، وحاجباها الثقيلان ، وأنفها الدقيق ، وشفتاها الرقيقتان ، وبملامحه خليط من رقة الأنوثة وحزم الرجولة ..

واندفعت نادية تعدو إلى أبيها .. فتلقفها بين يديه وضمها إلى صدره .. وقال لها وهو يمطرها بالقبلات :

ـــ أهلا .. أهلا .. حبيبتى نادية .. انت واحشه بابا جدا ..

وأجابت نادية على ترحيبه بسؤالها :

ـــ حضرت لى جردل وكوريك .. ماما رفضت أن تحضرهما لى ؟

ـــ سأحضر لك كل شىء ..

وأقبلت مديحة .. وشدت على يد إبراهيم قائلة :

ـــ كيف حالك ؟ .. وحشتنا بضعة الأيام التى غبتها عنا ..

ـــ وأنتما أيضا .. لقد أتعبكما المشوار .. ولكنك ستجدين الجو والبيت يستحقان عناء السفر ..

وتساءلت نادية :

ـــ بابا .. أين البحر .. لقد أحضرت المايوه الأزرق ..

ـــ سنذهب الآن إلى البيت .. ثم نعوم سويا ..

وهنا تدخلت الأم لأداء واجبها :

ـــ لن تستطيع النزول إلى الماء .. لأن عندها مبادئ زكام .. وكحة ..

ـــ ستضيع الشمس والشاطئ وهواء البحر كل هذا .. لا تخافى ، هيا بنا يا نادية ..

وانطلقت بهم العربة .. حتى وقفت أمام البيت .. واندفعت نادية تعدو فى الحديقة .. وصاحت الأم بها :

ـــ إياك أن تذهبى إلى البحر ..

وأجاب إبراهيم مطمئنا :

ـــ لا تخشى شيئا .. إن السور محيط بالحديقة .. والباب الخلفى المؤدى للبحر مغلق ..

وألقت مديحة نظرة عامة على البيت .. ووقف إبراهيم يرقب تأثير البيت عليها .. ثم تعجل رأيها متسائلا :

ـــ ها .. ما رأيك ؟

وبطبيعتها غير المنفعلة .. وبأسلوبها المتحفظ أجابت :

ـــ لطيف ..

و لم تكن الكلمة كافية فى نظر إبراهيم ، فجرها من ذراعها إلى الداخل قائلا :

ـــ إنه من الداخل ألطف .. ستجدين به كل شىء .. ما رأيك فى المدفأة ..

والبار ؟

ثم توقف بها أمام النافذة العريضة المطلة على البحر .. متسائلا فى إعجاب :

— وما رأيك فى هذا المنظر ؟

وبنفس اللهجة غير المتحمسة أجابت :

— لطيف ..

— لطيف فقط ؟

و لم تجب عليه .. فقد صاحت بنادية التى كانت تعدو فى الحديقة :

— نادية .. كفى جريا .. ستعرقين .. ثم يلفحك الهواء .. هذا هو الذى يسبب لك البرد ..

— يا ستى اتركيها تلعب .. هنا على الشاطىء لا يصاب الإنسان بالبرد ..

واستمرت الأم تصيح :

— نادية ..

وهز إبراهيم كتفيه فى استخفاف .. لقد كانت صحة نادية خارج حدود سلطاته .. و لم يكن يملك فيها سوى النصح .. ثم الصمت ..

و لم يحاول مرة أخرى أن يلفت نظر زوجته إلى مزايا البيت .. وتركها تكتشف ما يحلو لها اكتشافه ..

وبدأت مديحة تباشر سلطاتها فى البيت ، غيرت نظام المقاعد .. وبدلت حجرة بحجرة .. و لم يعترض إبراهيم ما دامت لم تمس حجرته .. وتركها ترتع فى تعديل البيت كما تشاء .. واختلى بنادية فى حجرته يرسمان سويا خطط اللعب والعوم ..

ودق التليفون . فانطلقت نادية للرد .. فقد كان الرد على التليفون ضمن هواياتها المحببة ..

وانتزعت أمها السماعة قائلة :

— مائة مرة قلت لك لا تمسكى سماعة التليفون ..

— أفندم ..

وأجابها صوت يطلب إبراهيم ..

وأقبل إبراهيم على التليفون وهو يتمتم فى ضيق :

— سخافة من سخافاتهم .. عسكرى ضرب آخر .. أو اللحمة لم تحضر بعد .. ماذا سأصنع لهم .. لقد قلت لهم لا تتصلوا بى بعد الظهر أبدا ..

وأمسك بالسماعة وتساءل فى غضب :

— فيه إيه ؟

وأجابه صوت يضحك قائلا :

— ومالك محموق هكذا ؟

وضحك إبراهيم وأجاب :

— أهلا وسهلا يا فندم .. لقد ظننتها سخافة من سخافات القشلاق .

— اطمئن .. وهذه المرة سخافة من سخافات المحافظة ..

— أنا فى الخدمة يا فندم ..

— أولا قبل أن أبدأ الحديث .. من صاحب الصوت الحريمى الذى رد على ؟

— اطمئن .. إنه صوت العائلة ..

— متى حضروا ؟

— اليوم ..

— حمدا لله على سلامتهم .. متى ستزورونا ؟

— عندما نهدأ ونستقر .. وننتهى من عملية إعادة تنظيم البيت ..

— ومتى تنتهى تلك العملية ؟

— الله أعلم .. قد تنتهى بعد انتهاء الحرب ..

ـــ اسمع لا تمزح .. لماذا لا تزورونا الليلة ؟

ـــ غير معقول .. لن نقبل زيارة أحد قبل أسبوع .. عندما تشفى نادية من الزكام ..

ـــ قل لها فريدة تريدك .. وهى ستقبل فى الحال .. إنهما معرفة قديمة .. منذ أن كانوا يقطنون سويا فى المنيرة ..

ـــ حاضر سأبلغها ..

ورفع إبراهيم السماعة عن أذنه ..

ثم صاح بزوجته :

ـــ فريدة تريدك ..

ونظرت إليه مديحة فى دهشة وتساءلت :

ـــ فريدة من ؟

ـــ زوجة البكباشى عبد الرحمن ..

وصاحت زوجته بأقصى ما تملكه طبيعتها الباردة من حماس وانفعال :

ـــ فريدة صادق .. ماذا أحضرها إلى هنا ؟

ـــ زوجها وكيل المحافظ ..

ـــ عجيبة .. لم يكن لدى أقل فكرة عن وجودها .. إننا أصدقاء منذ الصغر عندما كنا نقطن فى المنيرة ..

ـــ مفهوم .. مفهوم .. هل تريدين الذهاب ؟

ـــ لا مانع ..

ورفع إبراهيم السماعة إلى أذنه .. وقال باختصار :

ـــ أو .. كيه .. الزيارة مقبولة يا فندم ..

وسمع صوتا نسائيا يتحدث بجوار صاحبه .. ثم سمع صاحبه يقول :

ـــ إنها تريد أن تحادثها ..

وصاح بزوجته :

ـــ تفضلى كلمى .. صديقة الصبا ..

وانهمكت الصاحبتان فى الحديث .. وعاد إبراهيم إلى اللعب مع ابنته ..

الفصل الخامس

كـان لـى

ذهب إبراهيم ومديحة لزيارة البكباشى عبد الرحمن وكيل المحافظة وزوجته ، وقد اصطحبا معهما نادية .. و لم يكن البيت يبعد كثيرا عن بيت إبراهيم .. وكان من الطراز العتيق السميك الجدران ، العالى السقف ، الفسيح الحجرات ، يحيط به النخيل وأشجار الزيتون ..

واستقبلت المضيفة ضيفتها بترحاب شديد .. وانهمكت وإياها فى حديث طويل عن عائلتهما وذكرياتهما .. وجلس إبراهيم مع عبد الرحمن يتبادلان الآراء عن القيادة الجديدة وإسرائيل واللاجئين وموضوعات شتى ..

وجلست نادية تلهو مع بنات عبد الرحمن ببعض الدمى .. وعلى مقربة منهن جلست فتاة فى نحو الرابعة عشرة ترقبهم فى صمت حزين .. وقد بدا عليها سيماء الشرود .. وكان وجهها رقيق الملامح دقيق التقاطيع قد بدت به صفرة وهزال .. وفرق شعرها الأسود الناعم فى منتصف رأسها الصغير ثم جدل فى ضفيرة طويلة تهدلت على ظهرها .. واستقرت يداها متشابكتين فى حجرها .. وانحنى كتفاها ومال رأسها حتى استقر ذقنها على صدرها ..

و لم يطل المقام بهم طويلا حتى أخذت الظلمة تنتشر .. وأحست مديحة بإقبال الليل عندما أضيئت أنوار البيت .. وبدا عليها القلق وتلفتتْ حولها تنادى نادية ..

وأجابتها صديقتها مطمئنة :

ــ أنها تلعب مع ميرفت وهناء ..

— لقد حان الوقت للرحيل ..

— كيف ؟ .. إننا سنتعشى سويا ..

— غير ممكن ..

— غير ممكن أن تذهبوا الآن .. إننا لم نجلس معا بعد .. ماذا ستفعلين فى البيت ؟

— إن نادية متعبة من السفر .. ولا بد أن تنام ..

— دعيها تنام وقتما تشاء .. ونستطيع أن نحملها إلى البيت عندما يحين وقت العودة ..

— أخشى أن يلفحها الهواء .. ولديها مبادىء زكام .. لقد كان يجب على ألا أحضرها .. ولكن لم أستطع تركها فى البيت وحدها .. لأنى لم أحضر الخادمة .. لقد وجدت مدة البقاء لا تستحق .. ولكن يبدو أنى سأجد بعض العناء بدونها .. على الأقل من أجل مراعاة نادية ..

— أستطيع أن أعيرك خادمتى فى هذه الفترة ..

— وأنت ؟

— اطمئنى .. يمكننى أن أتحمل بدونها ..

— غير معقول .. ليس مفروضا أن أحضر لأضايقك ..

— قلت لك إنى أستطيع الاستغناء عنها مؤقتا .. فخذيها ..

— لا .. لا .. إن المسألة لا تستحق ..

— إذن فخذى نهى .. علها تساعدك وتسليك بعض الشىء ..

— نهى .. من ؟

— فتاة فلسطينية من نابلس فقدت ذويها بعد اعتداء اليهود على العرب وطردهم من أراضيهم .. وقد لقيتها وحيدة فى أحد معسكرات اللاجئين وتبينت فيها الطيبة والهدوء ، فأنست إليها وسألتها أن تعيش معنا .. علها تؤنس

وحدتى وترعى معى شئون البيت والأولاد ..

ولم يبد كثير تحمس على مديحة لقبول صحبة الفتاة .. كانت تجد أن مدة البقاء لن تتجاوز أسبوعين .. يمكن قضاؤها — على حد قولها — بالطول أو بالعرض .. ولم تجد هناك مبررا لأن تسبب من أجلها إزعاجا لأحد .. ولم تأبه صاحبة البيت لترددها ونادت الفتاة قائلة :

— نهى .. نهى ..

ثم التفتت إلى مديحة وأردفت :

— سأريك إياها .. ستعجبك ..

— لا داعى لإقلاق نفسك .. وإقلاق الفتاة .. إن المسألة لا تستحق ..

— ليس هناك إقلاق لأحد .. ستجدينها ودودة طيبة .. وستأنسين عشرتها بسرعة ..

وأقبلت الفتاة .. بهيكلها الهزيل الرقيق .. وعينيها السوداوين الواسعتين .. وثيابها البسيطة النظيفة التى لم تزد على جلباب من الكستور وصديرى من الصوف البنى طويل الأكمام .. وبدا جسدها طويلا نحيلا بلا امتلاء أو استدارة أنثوية .. اللهم إلا ارتفاع منبسط لا يكاد يلحظ عند الصدر ..

ووقفت نهى فى حياء أمام الزائرة .. وقد خفضت بصرها بعد أن ألقت على السيدة نظرة فاحصة سريعة ..

وقالت صاحبة البيت تقدمها إلى مديحة :

— سلمى يا نهى على مديحة هانم ..

وتقدمت الفتاة ومدت يدها إلى مديحة مصافحة .. واستمرت صاحبة البيت فى حديثها :

— ستمكث مديحة هانم أسبوعين هى وابنتها نادية .. حتى يحل موعد المدارس .. وقد أتت من القاهرة وحدها .. أتحبين أن تؤنسيها خلال بقائها

فى العريش ..

و لم يبد على ملامح نهى أى تعبير .. لا ترحيب .. ولا اعتراض .. وأومأت برأسها إيماءة خفيفة وأجابت فى استسلام الذى لا يملك من أمره شيئا ..

— أمرك ..

— إذن فابقى مع الأولاد حتى يحين وقت العودة لتذهبى معهم ..

وعقبت مديحة على قولها وهى تنهض قائلة :

— لقد حان وقت العودة ..

ثم نظرت إلى إبراهيم الذى جلس فى آخر الحجرة .. يرقب عبد الرحمن وهو يرمى حجارة الطاولة ليستعينا بها على قضاء الوقت بعد أن أفرغا كل ما فى جعبتيهما من حديث معاد ..

ونادته مديحة ..

— هيا .. بنا ..

وصاح عبد الرحمن :

— إلى أين ؟

— إلى البيت ..

— إلى البيت ؟!. ما زال الوقت مبكرا جدا .. لقد كنت أنوى أن آخذكم إلى السينما .. ثم نتعشى معا ..

— سينما .. وعشاء .. مرة واحدة ..

— أقل ما فيها .. لا بد أن نكرمكم ..

— لنؤجلها إلى ليلة أخرى .. نحن متعبون من السفر .. ولا بد أن أذهب .. لأعشى نادية وأنومها ..

— إذن دعى لى إبراهيم .. إن بيننا ثأرا لا بد أن آخذه ..

ونهض إبراهيم وهو يغلق الطاولة قائلا :

— إذا كان على الثأر .. فيمكنك أن تأخذه فى ليلة أخرى .. وإن كنت واثقا أنك لن تأخذه أبدا ..

وسار الأربعة تجاه الخارج ومديحة تنادى ابنتها ..

ونادت صاحبة البيت نهى ثم وجهت الحديث لزوجها قائلة :

— ستذهب نهى معهم لتؤنس مديحة وتعاونها طيلة مدة إقامتها ..

وأجاب إبراهيم معترضا فى دهشة :

— لا داعى لإقلاق أنفسكم أبدا ..

وأيدته مديحة قائلة :

— لقد قلت لها هذا ..

واعترض عبد الرحمن :

— أى إقلاق يا أخى .. إننا لا نحتاج إليها .. وهى ستنفعكم .. هيا يا نهى ..

وتقدمت نهى .. وقد أمسكت بيد نادية .. ونظرت إلى صاحبة البيت فى شىء من التردد وأدركت السيدة ما يدور فى خلدها فأجابتها :

— سأرسل لك ما تحتاجين إليه من ملابس فى الصباح .. وتستطيعين أن تستأذنى من مديحة هانم إذا أردت الحضور لأى شىء .. وعلى أية حال .. سنكون كلنا معا دائما ..

وقبل أن يتحرك الركب .. رفعت نادية ذراعيها إلى أبيها بحركتها التقليدية قائلة :

— بابا .. احملنى ..

وقبل أن يمد إبراهيم يديه لرفعها كانت نهى قد حملتها .. وحاول إبراهيم أخذها قائلا فى رفق :

— دعيها لى .. إنى متعود على حملها ..

ولم تدعها نهى وأجابت فى هدوء :

— أنا أيضا تعودت على حمل أختى مى ..

ونظرت إلى نادية ووجهت إليها القول :

— أتحبين أن أحملك يا نادية ..

ونظرت إليها الصغيرة نظرة فاحصة ثم أطرقت برأسها موافقة ، وسارت العائلة إلى البيت وقد حملت نهى نادية .. والصغيرة لا تفتأ .. توجه من آن لآخر أسئلتها الساذجة :

— هل ستنامين معنا ؟..

— أجل ..

— وستبقين معنا دائما ؟

— إن شاء الله ..

— وعندما نعود إلى مصر .. هل ستعودين معنا ؟

— لا ..

— ولماذا ؟..

— لأنى سأبقى هنا ..

— لم ؟

— لأنه .. لأنه ليس لى مكان الآن غير هنا ..

— لأن هذه بلدك ؟..

— لأنها قريبة من بلدى ..

— وأين بلدك ؟

— هناك ..

— هناك أين ؟

— .. فى فلسطين ..

— ولماذا لا تذهبين إليها ..؟

— لا أستطيع ؟..

— ولماذا لا تستطيعين ؟..

وترددت نهى برهة وتدخل إبراهيم محاولا إسكات نادية بقوله :

— نادية .. كفى رغى ..

ولم تأبه نادية لاعتراضه واستمرت متسائلة :

— لماذا لا تستطيعين الذهاب إلى بلدك ؟

— لأن اليهود أخذوها ..

— وكيف أخذوها ؟..

— بالقوة .. ضربونا وطردونا .. وأخذوها ..

— ولماذا لم تضربوهم أنتم .. ألم يكن معكم عصا ؟..

— كان معنا عصا .. وكان معهم مدفع .. والمدفع يغلب العصا ..

— ولماذا لم يكن معكم مدفع ..

ومرة أخرى حاول الأب أن يتدخل فقال ناهرا نادية :

— نادية يا حبيبتى .. لقد أصبحت لتاتة جدا .. أصمتى لحظة .. لقد أوجعت دماغنا ..

أجابته متسائلة :

— باب .. لماذا لا تعطى نهى .. مدفعا .. لتطرد اليهود من بيتهم ؟..

— سنعطيها .. وسنذهب معها كلنا لنطرد اليهود .. مبسوطة ؟..

وكأن نادية لم تثق فى قول أبيها فعادت تؤكد لنهى :

— عندما أعود إلى مصر سأشترى لك مدفعا وأرسله لك لتضربى اليهود .. وتعودى إلى بيتك ..

ـــ متشكرة يا حبيبتى ..

ـــ هل تعرفين كيف تعودين إليه .. أم تضلين ويأخذك العسكرى إلى القسم ؟..

ـــ إذا كان معى مدفع .. فلن أضل أبدا .. سيكون طريق العودة .. إلى بيتى .. واضحا ..

ـــ هل المدفع يضىء الطريق ؟

ـــ المدفع يظلم طريق السلام .. ويضىء طريق العدوان ..

ـــ أتسكنين فى شارع العدوان ؟ .. لقد كنا نسكن فى شارع العدوى .. لماذا لا تعزلين من شارع العدوان ؟

ـــ لأن العالم كله عدوان ..

ـــ إذن سأرسل لك مدافع كثيرة .. وعندما تضربين اليهود وتعودين إلى بيتك .. هل آتى إليك ؟..

ـــ طبعا ..

ـــ وإذا ضللت .. وأخذنى العسكرى إلى القسم ؟..

ـــ لن تضلى ..

ـــ هل سآتى معى بمدفع ؟ لينير لى الطريق ..

ـــ لن تكون هناك ضرورة للمدفع .. سيكون الطريق بعدما أعود .. طريق سلام ..

ـــ ماذا سيضيئه لى ؟

ـــ يضيئه ابتسامتك الحلوة ..

ـــ أنت تكذبين على .. .. إن ابتسامتى لا تضىء شيئا .. هه .. أنظرى ..

وانفرجت شفتا نادية عن ابتسامة واسعة .. بدت من خلالها أسنانها

الصغيرة ..

وضحكت الأم وقال الأب مقهقها :

ــ يا نهى .. لا تأخذى معها وتعطى .. إنها متعبة وحديثها لا ينتهى أبدا ..

واستمرت نادية تتساءل فى عناد :

ــ لماذا لم تضىء ابتسامتى الطريق ؟

وأجابت نهى وهى تضمها فى رفق :

ــ لقد أضاءت شيئا أكثر من الطريق .. لقد أضاءت قلبى ..

ــ أنا لا أريد أن أضىء قلبك .. إنى أريد أن أضىء الطريق ..

ــ عندما تأتين إلىّ .. سيكون الطريق إلى بيتى .. طريق السلام .. وطريق السلام .. تشرق فيه الابتسامة وتضيئه المحبة .. وستجدين به الورود .. وأغصان الزيتون ..

ــ والجبنة ؟!

ومرة أخرى انفجر الأب ضاحكا ..

وتلفتت نادية فى دهشة من ضحكه وقالت موضحة :

ــ أنا أحب الجبنة أكثر من الزيتون ..

وضحكت نهى وربتت على ظهرها فى رفق قائلة :

ــ عندما أعود إلى بيتنا .. سأعد لك الجبنة .. التى تحبينها .. كانت لى عنزة صغيرة .. وكان لنا كرم .. على السفح .. تتهدل عناقيده .. وكانت لنا بئر وسط الحقل .. نسقى منها أشجار البرتقال والليمون .. وكنت أرقب مشرق الشمس من وراء ربوة الكرم .. وكنت أسمع زقزقة العصافير .. وكنت أملأ الجرار من البئر .. وكنت أعدو بين الأشجار .. كانت الحياة جميلة .. وكنت أحس الطمأنينة والسلام .

وصمتت نهى برهة .. وعادت نادية تستحثها :

ــ وماذا كان هناك أيضا .. احكى لى ..

ــ كان لى أخت جميلة أحملها كما أحملك .. وكان لى أم .. وكان لى أب ..

ــ وأين ذهبوا ؟

ــ لست أدرى .. قتلهم اليهود .. أم شردوهم .. لقد فقدتهم جميعا ..

وران الصمت برهة .. واقتربوا من باب البيت .. وقبل أن يدخلوا هتفت نادية :

ــ أنا أكره اليهود ..

تمتمت نهى والظلمة تخفى دموعا ترقرقت فى مآقيها .. « وأنا أيضا » ..

الفصل السادس

أنى أعرفه جيدا

مرت بضعة أيام ونهى تعيش بين العائلة الصغيرة .. وقد أحست للبيت وللعائلة .. بشعور من الراحة والاستقرار .. ونما بينها وبين نادية نوع من الألفة والود .. بعث الطمأنينة فى نفس الأم نحوها .. وزاد من إحساس الأب بالعطف عليها ..

كانت مخلوقة وديعة طيبة مسالمة .. تظل على حالها فى الوداعة والسكون .. حتى يطوف بها ذكر إسرائيل . والوطن المسلوب .. والأهل الصرعى .. فتلدغها شوكة المرارة والحقد والأسى .. وإذا بأعصابها قد شدت كأنها هرة قد تقوس ظهرها ..

واستطاعت الألفة والود اللذان أحيطت بهما من أفراد العائلة الثلاثة أن يخرجاها من انطوائها .. ويقللا من شرودها .. فبدا إقبالها على العمل فى البيت .. وعلى العناية بنادية ..

ولكنها مع ذلك ظلت على حال من الشرود لم تستطع الألفة أن تمحوه .. كانت تنطلق من البيت أحيانا .. دون أن يعرف لها اتجاه أو مقر .. فلا تعود إلا خائرة منهوكة القوى .. وكانوا يستيقظون فى كثير من الأحيان فلا يجدونها .. وقد أزعجهم قيامها فى بادىء الأمر .. وسألوا عنها عبد الرحمن وزوجته .. فعرفوا أنها لم تذهب إلى بيتهما .. وعرفوا كذلك .. أن غيابها أمر تعودوا عليه ، وأنها تهيم شاردة ، ثم لا تلبث أن تعود حين يدركها التعب ..

واستيقظ إبراهيم ذات يوم مبكرا .. والشمس لم تشرق بعد فقد كان عليه

أن يذهب إلى رفح .. لملاحظة ما يحتاج إليه الطريق من عمليات الإصلاح .. ولمراقبة بعض أعمال المهندسين ، التى تحتم وجوده لنزول زميله المشرف على تلك المنطقة إلى القاهرة ..

وغادر حجرة نومه متجها إلى الحمام مارا بالصالة .. وهو يسترق الخطى حتى لا يوقظ أهل البيت فى هذه الساعة المبكرة .. فإذا به يجد شيئا قد التصق بالنافذة العريضة الزجاجية المطلة على البحر .. ولم يستطع أن يميز منه إلا خطوطه الخارجية التى تحدد هيكله .. فقد كان ملتصقا بالزجاج .. وكانت وقفته فى طريق الضوء المنبعث من النافذة قد حجبت بقية تفاصيله ..

وعرف فى الشبح نهى .. وهم بسؤالها عما أيقظها فى هذه الساعة المبكرة .. وعما أوقفها هكذا مسمرة فى النافذة .. ولكنه لم يشأ مضايقتها وكان قد تعود منها أوضاع الشرود .. والهيمان .. فاكتفى بأن يلقى إليها تحية مقتضبة قائلا :

— صباح الخير ..

ودون أن يسمع ردها استمر فى طريقه إلى الحمام ..

وانتهى من الحلاقة والاغتسال .. وفى طريقه إلى حجرته .. وجد نهى لا تزال فى وقفتها كالتمثال ، وكان الضوء قد أخذ فى الانتشار ، وطلائع الشروق الأرجوانية قد بدت من بعيد على حافة الأفق .. واقترب منها ومس كتفها برفق فأصابتها رجفة ، ورفعت إليه رأسها ذا المفرق ووجهها النحيل الدقيق .. وبدت فى عينيها الواسعتين السوداوين دمعتان قد انحدرتا حتى بللتا زاويتى شفتيها .. فمدت طرف لسانها تلعقهما فى صمت ..

وأحس إبراهيم من دموعها الصامتة المنحدرة على طرف لسانها بشىء يعتصر جوفه .. ولم يملك نفسه من أن يربت على ظهرها فى رفق ويسألها السؤال التقليدى .. الذى يدرك هو إجابته :

ــ ما بالك يا نهى ..

ــ لا شيء ..

ــ ما الذى أيقظك مبكرة .. وأوقفك هذه الوقفة ..

ــ لأرقب مشرق الشمس من وراء الربوة .. انظر . لقد بدأت تظهر ..

ونظر إبراهيم فإذا بالمنظر الذى سبق أن وصفه له صاحبه قد بدا من خلال النافذة ..

ففى أقصى اليمين بدت الربوة وقد حد حافتيها صفان من النخيل .. ومن بين صفى النخيل .. ومن وراء الربوة .. بدأ القرص الأرجوانى الصافى الملتهب يبدو رويدا .. رويدا ..

أخذت الفتاة تتمتم كأنها تحدث نفسها :

ــ هذا هو الطريق .. هذا دربى .. وتلك ربوتى .. ومن ورائها كانت الشمس تشرق دائما لتضىء الحقل والبيت والكروم .. لو سرت إليها .. لوصلت .. إلى هناك ..

وصمتت برهة .. وهى تتطلع إلى الشمس المشرقة فى لهفة وما لبثت أن أطرقت فى حزن وأردفت تقول :

ولكننى عندما أذهب لأسير على الدرب .. أجدها قد تصاعدت .. وأجد طريق العودة قد ضاع .. والحلم قد تبدد .. ولا أعود أجد فى طريقى غير قفر فى قفر .. ورمال فوق رمال .. فأعود مكروبة بائسة ..

ــ لهذا يجب أن تكفى عن الخروج والهيمان وحدك .. فأنت تعرفين أن عودتك الآن مستحيلة ..

ــ ولكننى سأعود يوما إلى هناك .. من نفس هذا الطريق .. إنى أعرفه جيدا .. بالربوة فى آخره .. والشمس المشرقة من ورائه . سنعود جميعا إلى دورنا مرة أخرى .. إلى حقولنا .. ودروبنا .. وربانا .. أليس كذلك ..

لا يمكن أن يستمر هذا الظلم .. لا يمكن أن تسلب أرضنا وأشجارنا وسماؤنا .. وهواؤنا .. وشمسنا .. إن هذا لا يرضى الله ..

وتمتم إبراهيم فى شبه ذهول :

— ولا حتى .. الشيطان ..

ثم جرها من يدها قائلا :

— أجل .. لا بد أن تعودوا .. يوما .. كل شىء يمكن أن يسلب فى هذا العالم إلا الوطن .. وكل شىء يمكن أن يعتاد ويستمر إلا الظلم ومرارته ..

وتركت نهى النافذة .. وعادت إلى داخل البيت ولسانها ما زال يلعق السائل المالح الساخن المنساب على زاويتى شفتيها ..

وعاد إبراهيم إلى حجرته .. وانتهى من ارتداء ملابسه .. وفى رأسه ما يشبه الطنين ..

لقد أخرجته الفتاة من ذاتية تفكيره .. ومن عزلة المحيط الذى يعيش فى نطاقه ..

كان إبراهيم .. مخلوقا جادا مخلصا .. قويم الخلق .. سليم المبادىء .. ولكنه كان يحصر نفسه وتفكيره واهتمامه فى دائرة ضيقة محيطها عمله وحياته الخاصة .. ولم يكن اهتمامه ليتعدى أبدا محيط أعماله ورسومه ومنشآته ومقاولاته .. بكل ما فيها من مشاكل وبحوث وتطورات .. يضاف إليها أعماله فى الجيش .. ومطالب البيت وزوجته ونادية .. لم يكن يأبه كثيرا لأنباء السياسة الداخلية وتشكيل الوزارات والأحزاب .. ولا أنباء مشاكل الدول والتيارات التى تتجاذبها .. إلا بالقدر الذى يتأثر به محيطه الداخلى .. والذى قد يرفع سعر الحديد أو يخفضه .. ويبيح الاستيراد أو يمنعه ..

ولم يكن يحس بالمشاكل العامة .. إلا بقدر تأثيرها على محيطه الخاص .. ولم تنل مشكلة فلسطين من تفكيره أو إحساسه .. إلا بالقدر الذى تناله مآسى

الغير التى نمر على عناوينها بالصحف .. فنمصمص شفاهنا أو نهز رؤوسنا أسفا .. ثم نجتازها إلى مشاكلنا الخاصة العادية التى تكتظ بها حياتنا ..

وعندما بدأت الحرب ضد إسرائيل .. لم يحاول أن يكون لنفسه رأيا فيها .. فى ضرورتها .. وفى المقدرة على خوضها .. وفى نتائجها المحتملة .. بل سلم بالمسألة كإجراء من إجراءات الدولة العامة التى عليها أن تتحمل مسئوليتها .. والتى لا يمكن أن تقدم عليها إلا بعد استكمال دراستها من كل الوجوه .. والتى لا تهم شخصه إلا إذا تحتم عليه بحكم عمله أن يقوم بدور محدد فيها ..

لم يكن من طبيعته الانفعال بالأحداث العامة .. أو المشاركة فى حماس المجاميع .. بل كان تأثره فرديا بحتا .. ما لنفسه أو للغير .. فهو يتأثر بالمشكلة العامة .. إذا انعكست على شخصه .. أو على شخص غيره مما يمكن أن يحس به إحساسا مباشرا ..

فهو لا يكره الحرب .. أو يتأثر بها .. كإجراء عام بعيد عن محيطه .. ولكنها تمس نفسه .. إذا أبصر أثرها فى شخص قريب منها ..

وهو من أجل ذلك .. لم يحس بمشكلة فلسطين .. ولا أثر فى نفسه كل ما قرأ عنها .. ولا أحس بأن عليه واجبا نحوها . ولا خطر بباله قط أن يتطوع مع الفدائيين الذين تطوعوا للدفاع عنها .. بل كان يجد التطوع لمثل هذه الأشياء .. عملا لا يقدم عليه إلا الذين برؤوسهم هوس الحماس والانفعال وحب البطولة .. وإنه ما دام يعيش فى دولة نظامية .. فإن على الدولة أن تنظم أعمال الأفراد بحيث توجه كلا منهم إلى ما تحتاج إليه منه .. وكان يسلم بواجبه نحو الدولة وطاعته لها .. وكان يشعر فى قرارة نفسه .. أنه سينفذ كل ما يطلب منه .. وسينتظم فى أى وضع تجد الدولة أنه أفيد لها فيه ..

وإذا كان قد تعجل السفر إلى الميدان .. فلم يكن التعجل مبعثه أبدا .. اللهفة على أخذ دوره فى القتال .. أو الحماس لفلسطين .. لأنه لم يحس بلهفة

ولا حماس .. ولكنه كان فقط مسلما بأنه عندما يحين دوره .. سيتقدم إليه ببسالة ورضاء .. كما يتقدم لتنفيذ أية عملية من عمليات المقاولات التى سبق أن أقدم عليها .. أو كما يخرج إلى أى طابور من طوابير الشكنات ..

تلك كانت نفسيته .. حتى لقى الفتاة الهزيلة ذات العينين الواسعتين .. وحتى أبصر دموعها الصامتة الحارة تنساب على طرفى شفتيها .. وأحس بالمرارة التى تملأ نفسها وبالضياع الذى تحس به ..

لقد تركزت المشكلة العامة .. التى لم يكن يحس بها .. فى فرد يراه .. ويحس بآلامه .. فمست شغاف قلبه .. وهزت أوتاره ..

ولأول مرة أحس .. بأنه هنا .. ليحارب إسرائيل .. وليشارك بمجهوده فى فتح طريق العودة الذى تتطلع إليه هى والآلاف المشردون عن أرضهم ووطنهم ..

لقد أحس بالمشكلة .. كمسألة خاصة .. بفرد قريب منه .. ضائع شريد .. يئن فى صمت .. ويتوجع فى يأس ..

ولكنه لم يعرف للمشكلة حلا .. كانت معلوماته عنها مهزوزة عائمة .. لأنه لم يحاول أن يدخل فى محيطها من قبل ..

إن هناك قوات من الجيش تقف مواجهة لقوات العدوان الإسرائيلية .. وواجبها لا شك هو سحق هذه القوات .. وفتح طريق العودة .. للمشردين عن أوطانهم ..

ولكن ما هى قدرة القوات .. وطبيعة الخطط .. وما هى فرص النجاح ..

كل هذا يجهله .. فهو منذ أن أتى إلى هنا لا يعرف إلا أن واجبه هو أن يؤدى خدمات المهندسين للقوات التى تقف متأهبة للقتال .. ولا شىء أكثر من ذلك ..

هو لا يعرف شيئا عن العدو .. ولا عن القتال .. ولا يعرف شيئا عن

المراحل التى مر بها .. والمراحل التى يحتمل أن يسير فيها ..

وغادر إبراهيم البيت .. وسارت به العربة تنهب الطريق إلى رفح .. وفى طريقه .. كان يمر بجنود فى خيام .. أو فى خنادق .. وبعربات ومدافع ودبابات ..

لم يكن يعرف شيئا عن دورها .. ولا كان يستطيع أن يميز بين وضع هذه ووضع تلك .. ولا كانت لديه أقل فكرة عن مواقع قواتهم وتوزيعها .. أو عن مواقع إسرائيل ..

كان يسير فى الطريق .. كأنه يسير فى طريق الإسكندرية الصحراوى .. لا يكاد يعى شيئا مما يحيط به من أسرار عسكرية ..

ومرت بذهنه الفتاة .. الواقفة وراء الزجاج .. ترقب خلال دموعها .. طريق العودة .. والشمس تتصاعد من وراء الربوة بين صفى النخيل ..

وأحس بضياعها .. وبدا له الطريق .. طويلا .. باهتا .. سرابى النهاية .. ضائع المعالم ..

وأحس بالمشكلة .. فسيحة الأركان .. معقدة الخيوط .. وبدا له مدى عجزه .. عن أن يعين الفتاة بحل مشكلتها .. كمسألة عامة .. معلقة بظروف هو أعجز حتى عن فهمها .. بله المساهمة فيها .. فإن أقصى ما يستطيع فعله كعمل إيجابى .. هو أن يأخذ سلاحا ويتقدم به إلى مواقع إسرائيل .. حيث الكروم والحقول .. وهو عمل جنونى خيالى .. لن يؤدى إلا إلى مصرعه .

ولكنه مع ذلك يستطيع أن يحل مشكلتها كشىء خاص بها .. فإذا كانت عودتها إلى وطنها .. قد تعذرت أو استحالت فهو يستطيع أن يجعل لها من بيته وطنا .. ومن نفسه أبا ..

إنه يستطيع أن يعينها .. كفرد .. بمشاعره وحنانه وعطفه ..

وأحس إبراهيم ببعض الراحة .. عندما انتهى إلى حل فردى فى متناول يده

.. لمشكلة عامة .. يعجز عن فهمها والتصرف فيها ..

ووقفت به العربة أمام رئاسة القوة فى رفح .. وهبط من العربة إلى الكشك الصاج الذى استقر فيه الأركان حرب ..

وقبل أن يجتاز الباب سمع صوتا يصيح به مرحبا :

ـــ أهلا .. إبراهيم ..

وأبصر مراد بصدره المفتوح .. وشاربه الأصفر المنفوش يتقدم إليه ثم يصافحه ويجره إليه ويعانقه ..

وكان إبراهيم يكره العناق .. ولم يكن يحس بشىء من الوحشة تدعوه إلى تبادل العناق مع مراد .. ولكنه لم يملك إلا التسليم به .. فقد فرض مراد عليه العناق فرضا ..

واستمر مراد فى ترحيبه الصاخب وثرثرته العالية :

ـــ ماذا أتى بك إلى هنا .. إنى ذاهب إلى العريش وكنت أنوى أن أزورك اليوم .. لقد دعوت نفسى إلى الغداء عندك ..

ـــ وأنا على استعداد لإطعامك .. لوجه الله ..

ـــ لا تنفع الدعوة .. فقد أضعتها بمجيئك إلى هنا .. إنى سأؤجل ذهابى إلى العريش .. وأدعوك أنا للغداء ..

ـــ ولكنى لن أبقى للغداء .. إن المسألة لن تستغرق أكثر من نصف ساعة .. أو ساعة على الأكثر ..

ـــ إذن أنتظرك حتى نعود سويا إلى العريش ..

ـــ اتفقنا .. أين ألقاك ؟..

ـــ كما تشاء .. إنى سأقابل قائد القوة .. ثم أذهب إلى السرية .. وأمر على بعض المواقع .. ثم أعود إلى رياستى .. لأنتظرك هناك .. إنى أدعوك إلى فنجان من الشاى سأصنعه لك .. أنظر هل ترى الفنطاس القائم على يمينك .. خذ

زاوية ٣٠ درجة .. أترى التبة التى هناك فى اتجاه كودية الحشيش .. سر ..

ــ اسمع .. ليس لدى وقت لأسمع كل هذا الوصف .. بناقص فنجان شاى .. سأنتظرك هنا بعد ساعة ..

ــ كنت أريد أن أريك بعض .. معاكسات مع اليهود .. حاجة على الماشى ..

ــ لا ضرورة لذلك .. وإلا تأتى الطوبة فى المعطوبة ..

ــ أمرك .. ليس لك فى الطيب نصيب .. كنت أريد أن أجلسك .. فى الأبارتمان الفاخر .. الذى أنشأته داخل الدبابة .. لقد فتحت له نافذتين .. إحداهما على البحرى .. والتانية .. قبلى للشمس ..

ــ مرة أخرى .. يكون لدى وقت ، سأزورك .. لأجرى لك بعض التعديلات المعمارية .. من يدرى .. يمكن أن أفتح لك دبابتين على بعض ..

ــ مشروع غير معقول .. ليس لدينا من الدبابات ما يسمح بهذا ..

ــ كم لديكم من الدبابات ..؟

ــ قال يا جحا .. عد غنمك .. واحدة نايمة .. والثانية برضه نايمة ..

ــ أنت مشنعاتى .. حتى على سلاحك ..

ــ خليها على الله .. سلام عليكم .. سأحضر إليك بعد ساعة ..

الفصل السابع

حياة بلا حساب

انتهى إبراهيم من أعماله فى رفح قبل أن تنتهى الساعة ، وذهب إلى مكتب الأركان حرب لانتظار مراد ..

وأقبل مراد بعربته يصيح بصوته الصاخب :

ـــ ها .. انتهيت ..

ـــ أجل ..

ـــ إذن تعال معى فى عربتى ودع عربتك تأتى وراءنا ..

وانطلق مراد بعربته الجيب ينهب الطريق فى سرعة خارقة ، وقد جلس إبراهيم بجواره مثبتا بصره على عداد السرعة ، والعداد يتحرك رويدا رويدا فى اتجاه الزيادة ، وهو يحاول أن يمسك أعصابه ، وأن يترك لمراد فرصة كافية للحمق حتى يهدأ من تلقاء نفسه ، فلما رأى إصرار مراد على السرعة الجنونية رفع بصره إليه وقال له بأقصى ما يستطيع من هدوء :

ـــ ألديك موعد فى العريش ؟

وهز مراد كتفيه وهو مستمر فى سرعته .. وأجاب وعيناه إلى الطريق :

ـــ أبدا ..

ـــ ألديك فكرة أن لدى موعدا هناك ؟

والتفت مراد إليه فى دهشة متسائلا :

ـــ كيف أعرف ..

وزغده إبراهيم فى كتفه ناهرا :

ـــ أنظر أمامك ..

وعندما تأكد أن مراد أعاد عينيه إلى الطريق ، قال فى لهجته الهادئة :

ـــ ما دمت واثقا أنه ليس لديك موعد .. وما دمت لا تعرف أنى على موعد .. فلماذا إذن هذه السرعة الجنونية ؟

ـــ أنا تعودت دائما ألا أسير أقل من هذا .. حتى ولو كنت فى غير عجلة ..

ـــ ولكنى لم أتعود هذه السرعة .. حتى ولو كنت فى عجلة ..

ـــ يجب أن تتعودها .. ما دمت تركب معى ..

ـــ إذن .. أرجوك أن تقف .. وتدعنى أركب عربتى .. لأنى لا أريد أن أتعود حماقاتك أبدا .. مفهوم ؟

ـــ مفهوم يا فندم !

وبدأ مراد يهدىء السرعة .. وتساءل فى سخرية :

ـــ أتعجبك هذه السرعة ؟

ـــ أجل ..

واستمر فى سخريته .. وهو يتلفت ..

ـــ يا سلام .. طريق عامر .. يستحق النزهة .. هل تريد أن أبطىء أكثر .. لترى الغاديات الرائحات .. وتملأ نظرك من أردافهن ؟

ـــ أهذا كل ما يلفت نظرك فى الطريق .. وما يلزمك السرعة المعقولة ..

ـــ لا .. بالطبع .. يلفت نظرى .. الرمال ، وكوديات الحشيش ، والأجساد الكاكية العجفاء ، والجمال ، والمعيز .. يا سلام .. انظر هذا الكلب .. تغزل !

وتباطأ مراد حتى كاد يقف بجوار الكلب ..

ونهره إبراهيم بقوله :

— كفى عبثا .. وسر .. أليس لديك وسط .. إما أن تسير بسرعتك الجنونية أو تقف .. أتظن كل غرضك من الطريق هو البصبصة ؟

— لماذا أتمهل إذن ؟

— من أجل حياتك ..

— حياتى !

ثم اندفع مقهقها .. وأردف يقول وهو يغنى :

— حياتى انت .. ما ليش غيرك .. وفايتنى لمين ..

وهز إبراهيم رأسه ومصمص شفتيه وتمتم قائلا :

— مهرج ..

ونظر إليه مراد وهو يضحك قائلا :

— حياتى يا أستاذ .. لا وجود لها فى مشروعاتى .. ولا حساب لها فى تصرفاتى .. ليس من شأنى أن تنتهى أو لا تنتهى .. إن هذا من شأن غيرى .. من شأن هذا الجالس فوقنا .. إنه المتصرف فيها .. ينهيها أو يبقيها .. هذا أمره وحده .. فلماذا أحشر نفسى فيه .. أنا أسرع .. وأغامر .. وأحارب .. ما دام هو مبقيا لى حياتى .. وما دام إنهاؤها لم يحن فى برنامجه بعد .. فإذا ما قرر إنهاءها .. فسينهيها بالطريقة التى تحلو له .. لا التى تحلو لى .. فقد أسرع وأقلب العربة .. ولا ينهيها .. وقد أغامر وأحارب ، وأتعرض لسلاح العدو .. ولا ينهيها .. ثم ينهيها ببساطة .. بسلاح جيليت مثلا .. يصيبنى جرح من موسى الحلاقة وأنا أحلق .. فيتسخ الجرح ويتسمم ، وأصاب بغرغرينا .. وأموت ..

— يا سلام على الأفكار ..

— لماذا تسخر .. إن لى صديقا من دفعتى مات هكذا .. فلماذا تستعصى على حياتى نهاية كهذه .. أو حتى أبسط من هذه .. لا سلاح ولا غيره ..

جرثومة تيفويد مثلا .. لا راحت ولا جت !.. إن انتهاء حياتى ليس من شأنى .. فلا يجب أن أقيم لها وزنا فى تصرفاتى ..

ـــ إنهاء حياتك ليس من شأنك .. ولكن المحافظة عليها من شأنك ..

ـــ كلام فارغ .. كيف أملك المحافظة على شىء .. لا أملك منع دماره .. أو تحطيمه .. بل حتى لا أعرف سر كيانه .. ووجوده .. أو بقائه ..

ونظر إليه وتساءل فى سخرية :

ـــ هل اقتنعت .. أأسرع .. أم ما زلت تريد المحافظة على حياتك ..؟

ـــ إنى أريد المحافظة على عقلى .. إن لنا بيوتا وأولادا ..

ـــ ولهم جميعا رب .. ألا تؤمن به ؟

ـــ أومن به .. بطريقة تحتم تعاونى معه ..

ـــ وأنا أومن به بطريقة تحتم توكلى عليه .. أنا أترك له كل أمرى يدبره كما يشاء .. أنا إذن أشد منك إيمانا به وثقة فيه ..

وعاد ينظر إليه مبتسما فى خبث وهو يتساءل :

ـــ ها .. أسرع ؟ .

وضغط على دواسة البنزين وانطلق فى جنون وهو يصيح ضاحكا :

ـــ إن الله معنا .. إنى أحس أنه قد دبر لى نهاية أفضل من عربة مقلوبة .. نهاية بها شىء من البطولة ..

ـــ أنت مجنون بطولة .. إن شاء الله ستنتهى كما انتهى بطل توفيق الحكيم فى قصة « عرف كيف يموت » ..

ـــ وكيف مات ؟

ـــ فى بكبورت ..

ـــ إخص .. فال الله ولا فالك .. وفال توفيق الحكيم .. إنى سأريه كيف أموت .. سأعلم أدباءنا كيف يكتبون موت الأبطال ..

وكانت العربة قد أشرفت على نهاية الطريق واقتربت من قشلاق المهندسين فهتف إبراهيم بمراد :

ـــ بس .. هنا .. أنزلنى من فضلك .. أرهم أنت كيف يموت الأبطال .. فأنا لا أريد أن أُرى أحدا عَرضًا لطرق الموت ..

ـــ ألا تحب ميتة الأبطال ؟

ـــ بل أفضل عليها حياتى ..

وقفز إبراهيم من العربة .. وهو يقول :

ـــ أتنتظرنى فى العربة .. أم تأتى معى إلى المكتب ؟

ـــ أستغيب طويلا ؟

ـــ ليس أكثر من ربع ساعة ..

ـــ إذن فسأذهب إلى رئاسة الآلاى وألحق بك فى الميس ..

ـــ أى ميس ؟

ـــ ميس المهندسين .. ألم نتفق على أنك ستغدينى ؟

ـــ سأغديك فى البيت .. أكلة بيتى تربى على جتتك ..

ـــ أسكنت فى بيت ..

ـــ طبعا .. قائد سرية مهندسى العريش بحاله ولا يسكن فى بيت ..!

ـــ لا بد أنه بيت من الصاج كالكشك الذى نبيت فيه .. إنى أفضل أن أبيت تحت المشمع ولا أبيت فيه .. إنه محرق فى الصيف ..

ـــ يا أستاذ بيت من الصاج إيه ؟ .. سأريك البيوت على أصولها .. أنه بيت بمدفأة وبار ..

ـــ مرة واحدة ؟! .. والبار عامر ؟ ..

ـــ سأعمره لك .. ماذا تريد ؟

ـــ لا أشرب على الغداء غير بيرة مثلجة ..

ـــ سأحضرها لك ..

ـــ وأنا سأكون عندك بعد ربع ساعة ..

واندفع بعربته بنفس السرعة الجنونية .. مثيرا وراءه سحبا من الغبار ودخان البنزين ..

ودلف إبراهيم إلى مكتبه ، وقبل أن يبدأ فى إنجاز أعماله رفع سماعة التليفون قائلا :

ـــ أعطنى البيت ..

ورد عليه صوت نادية :

ـــ ألو .. مين حضرتك ..

وقبل أن يجيب كانت الأم قد اختطفت السماعة من يدها .. وسمع صوت صياحها ثم سمع صوت مديحة يتساءل :

ـــ ألو ..

ـــ أنا إبراهيم .. أنا عزمت اليوزباشى مراد على الغداء ..

ـــ ولماذا لم تخبرنى فى الصباح حتى أعمل ترتيبى ؟

ـــ لأنى لم أقابله إلا اليوم ..

ـــ إذن فكان عليك أن تدعوه باكرا حتى تعطينى فرصة ..

ـــ لقد أتى هو اليوم إلى العريش .. ولم أكن أستطيع أن أقول له تعال غدا حتى أعطى زوجتى فرصة .. لقد سبق أن دعانى إلى الغداء ولا بد أن أرد له العزومة ..

ـــ كنت تستطيع ..

ـــ مديحة .. أرجوك .. ليس هناك مبرر للمناقشة .. لقد دعوته وانتهى الأمر .. ونستطيع أن نأكل أى شىء .. فليست المسألة استعراض كرم .. إنها رد دعوة .. مفهوم ..

ـــ حاضر ..

ووضع كل منهما السماعة فى وقت واحد .. وعاد كل منهما إلى هدوئه كأن لم تحدث بينهما مناقشة ..

ونادت مديحة العسكرى الطباخ .. وأصدرت إليه أوامرها بخصوص الضيف قائلة :

ـــ لقد دعا البيه ضيفا للغداء .. اشو اللحمة الكستليتة الموجودة عندك .. وأعمل طبق سلطة خضار .. وإذا لم يكن هناك فاكهة ..

ـــ لقد اشتريت التين .. ولدينا عنب ..

ـــ كفاية ..

وعادت مديحة فى سكون إلى مقعدها فى شرفة الحديقة لتعمل فى صديرى تريكو من أجل نادية ، وأقبلت نهى تتساءل بعد أن سمعت أوامر مديحة للطباخ :

ـــ أأضع نمرة جديدة على المائدة !

ـــ أجل ..

وذهبت نهى لتعد المائدة .. وتغير زهور الزهرية .. ووراءها نادية تابعها متسائلة :

ـــ لماذا تضعين هذا الطبق ؟

ـــ لدينا ضيف ..

ـــ من هو ؟

ـــ لا أعرف ..

ـــ هل سآكل معه ؟

ـــ كما تريدين ..

ـــ أريد أن آكل معك فى الحديقة ..

— نستأذن من ماما أولا ..

— لن نأكل إذن ..

— لماذا ؟

— لأنها ستقول لك لا .. نادية تبرد .. انتظرى حتى يأكلوا هم ثم نتسلل معا إلى الحديقة ..

— لا .. هذا عيب .. يجب أن نستأذنها أولا .. وهى ستوافق ..

وارتفع صوت الأم منادية :

— نادية البسى البلوفر .. لكيلا تبردى ..

وقالت نادية لنهى :

— مبسوطة .. ألم أقل لك .. دائما تقول إنى سأبرد ..

— لأنها تحبك وتخاف عليك ..

— ولكن بابا يحبنى ولا يضايقنى كما تضايقنى هى .. أنا أحب أن أسمع كلام بابا ..

— ويجب أيضا تسمعى كلام ماما ..

— لماذا ؟..

— لأن ماما هى التى تجلس معك .. أما هو فيذهب إلى عمله .. ومن أجل هذا يجب أن تسمعى كلامها أيضا ..

وسمع صوت عربة تقف عند الباب ، وقفز إبراهيم من العربة ووراءه مراد ..

ووقف مراد يتطلع إلى البيت فى إعجاب متسائلا :

— أهذا بيتك ؟

— طبعا ..

— ما شاء الله .. إذن فأين ينزل قائد القوة ؟

— أدخل .. حتى تراه من الداخل ..

وأقبلت مديحة على الضيف مرحبة .. ومن ورائها نادية ونهى .. وقام إبراهيم بواجب التعريف .. وتبادل الاثنان بعض ألفاظ التحية .. ودلفوا إلى البيت ومراد يحملق فيما حوله .. قائلا :

— عجيبة .. لم يكن لدى أقل فكرة أنه يوجد فى العريش مثل هذا البيت .. لقد مضى على سنة كامنة وأنا أنتقل بين الخيام وأكشاك الصاج .. والمشمعات .. لقد طلبت زوجتى أن أحضرها لتمضى جزءا من الصيف هنا .. فلم أعرف أين أنزلها ..

وأجابت مديحة من باب المجاملة :

— البيت تحت أمرك .. تستطيع أن تدعوها للنزول معنا ..

وفكر مراد برهة ثم أجاب :

— والله فكرة .. نمضى بضعة أسابيع ..

و لم يعلق إبراهيم على قوله باعتبار أنه مجرد كلام .. ولكن مراد عاد يتساءل :

— ولكن هل لديكم حجرات فاضية ؟

ووجدت مديحة نفسها أمام أمر واقع فأجابت مجاملة :

— نستطيع أن نفضى غرفة أو غرفتين ..

— غرفة واحدة تكفى .. إنى سأرسل فى استدعائها حالا .. إنى أستطيع أن أحضر كل يوم لأبيت هنا ..

.. وبدا أن مراد قد أخذ المسألة مأخذ الجد ..

و لم يستطع كل من إبراهيم أو مديحة أن يتراجع فى دعوته ..

وأجابت مديحة الإجابة التى لا مفر منها :

— تنزلون على الرحب والسعة ..

وقال مراد فى تردد :

ـــ ولكن أخشى أن نضايقكم ..

ورد إبراهيم :

ـــ بالعكس .. إن مديحة تقضى طيلة اليوم وحدها .. ولا شك أن زوجتك ستسليها فى بضعة الأسابيع التى ستقضيها هنا قبل موعد المدارس ..

ـــ إذا كانت المسألة ليس فيها مضايقة لكم فسأدعوها .. أين التليفون ؟

وأرشده إبراهيم إلى التليفون .. فرفع السماعة قائلا :

ـــ أعطنى مصر ـــ ٦٠٢١٠ ـــ أنا اليوزباشى محمود مراد من الفرسان ..

وأجابه العامل أن الخط مشغول ..

فرد :

ـــ بمجرد أن يفضى أعطه لى ..

وسار إبراهيم بجوار مراد يعرض عليه البيت .. وهمس مراد ضاحكا :

ـــ فرصة .. نوفر مشوار القاهرة .. ونكتفى بإجازة الإسماعيلية .

ونظر إليه إبراهيم فى دهشة وتساءل :

ـــ أستدعوها .. لكى تذهب أنت إلى الإسماعيلية ؟

ـــ ولم لا ؟ أنا لدى مأمورية فى الإسماعيلية ، وهى ستسلى مع السيدة حرمكم .. ماذا فى ذلك ؟

وهز إبراهيم كتفيه فى دهشة وهو يسائل نفسه : أى مخلوق هذا ؟

الفصل الثامن

هـزة مفـاجئة

لبت زوجة مراد دعوته .. وفى اليوم التالى كان يقف مع إبراهيم لاستقبالها فى المحطة .. ولم يكن إبراهيم يحس فى قرارة نفسه بحماس شديد لاستقبال الضيفة الجديدة .. إذ لم تكن صلته بمراد من القوة بحيث ترفع الكلفة بطريقة تجعل إقامتهما معا سهلة مريحة .. ولا كان مراد نفسه المخلوق الذى تستحب صحبته وتسهل عشرته .. ولم يتعود إبراهيم من قبل أن يعيش مع أسرة أخرى فى بيت واحد .. وقد كان هو وزوجته أقرب إلى الانطواء .. فكانا محدودى المعارف .. قليلى الأصدقاء .. ولم تكن هناك سابق معرفة بين زوجته وزوجة مراد ، بحيث يمكن أن تألف صحبتها .. وترتاح إلى عشرتها ..

من كل ناحية .. لم يكن هناك ما يبعث على الارتياح للشركة الجديدة فى المسكن .. وكانت المسألة لا تتعدى نوعا من التورط الذى لا يمكن دفعه .. تماما كعناق مراد عند التحية .. الذى يفرضه عليه بقوة الذراعين .. وفرط المرح والبشاشة والصفاء ..

لقد فرض مراد عليهم دعوته .. بطريقته الهلهلية .. البسيطة .. ولم يكن فى الأمر غضاضة .. إذ كان بطبيعته لا يحس كلفة لأحد ..

ولو كان هو صاحب البيت لما ضايقه أبدا .. أن ينزل معه إبراهيم .. وعشرة ضباط آخرين بعائلاتهم .. دون أن يتعب نفسه كثيرا فى تدبير أمرهم .. وإيوائهم وإطعامهم .. كان يعتقد أن كل هذه أشياء لن يستعصى تدبيرها .. فمن وراء عجزه إذا عجز ــ ككل شيء يقدم عليه ــ رب مدبر مسئول قدير

على كل شيء ..

وكان على إبراهيم وزوجته أن يقبلا الصحبة .. كفرض لا راد له .. إلا بالخشونة وقلة الذوق .. وقد كانا من الرقة والأدب بحيث يفضلان قبول المشكلة والرضوخ للورطة .. عن دفعها .. بالخشونة .. وردها بالجليطة .. وأصبح عليهما أن يدبرا أمر الضيفين كأفضل ما يكون التدبير .. حتى يمن الله عليهما بالخلاص ..

ولم يكن التدبير المادى بالأمر العسير .. فقد استطاعا أن يفسحا لهما مكانا .. بأن ينضم إبراهيم إلى زوجته فى حجرة واحدة .. ولم يكن الطعام يدخل فى حساب المشكلات .. فقد كانت وفرته تكفى لقبول أكثر من الضيفين ..

أما العسير فقد كان التدبير المعنوى .. وهو ترويض النفس على قبول الصحبة الجديدة .. التى فرضت ، ليس لبضع ساعات من اليوم .. أو بضعة أيام من الأسبوع .. بل صحبة دائمة .. طيلة الأيام .. وطيلة الأسبوع أو الأسابيع التى يحتمل أن يقضياها معهم ..

ووقف إبراهيم يرقب القطار وقد بدا شبحه ينساب من بعد .. وأخذت ضجته وصفيره .. يعلوان رويدًا رويدا .. ووجد نفسه يتخيل الصيفة القادمة برغمه .. كزوجها .. مهياصة .. مهذارة .. مستهترة .. ولم يدر كيف يمكن أن تقع من نفس زوجته .. هل ستحتملها وتروض نفسها على عشرتها ؟..

لم لا ؟ .. إن زوجته تعرف كيف تأخذ الناس على علاتهم .. إنها لا تصطدم ولا تثور أبدا .. ولكنها تكره الإهمال والقذارة .. وإذا كانت زوجة مراد فى مثل إهماله واستهتاره .. فلن يكون التفاهم بينهما سهلا .. ولن تكون الألفة ميسورة ..

ولكن لماذا يشغل نفسه ويثقل على ذهنه .. بمثل هذه الافتراضات .. إن المسألة كلها لن تزيد على أسابيع ..

ثم .. من يدرى ؟ قد تكون المخلوقة نفسها محتملة .. وقد ترتاح إليها زوجته .. فتؤنس وحشتها وتسلى وحدتها ؟..

ووصل القطار إلى المحطة .. واستمر يتهادى حتى توقف تماما .. وأخذ مراد يفحص النوافذ .. ثم اندفع إلى إحداها صائحا فى مرح :

— هاى .. ليلى ..

وتبعه إبراهيم ببصره .. حتى استقر أمام النافذة .. وأخذ يرقبه وهو يصافح اليد التى امتدت إليه من النافذة .. ويهزها مرحبا ثم تلفت وراءه باحثا عنه .. وصاح به :

— إبراهيم ..

وتقدم إبراهيم .. وعيناه مثبتتان فى الوجه الذى أطل من النافذة وقد أرتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة ..

وأحس من الوجه .. بما يشبه الهزة .. لم يدر مبعثها بالضبط .. أهى هزة مفاجئة .. أم هزة إعجاب .. أم نشوة .. أم إنذار وتحذير .. أم كانت كلها معها ..

أما عن المفاجأة .. فقد كانت أمرا لا شك فيه .. فهو لم يتوقع قط أن تكون زوجة مراد .. التى يتحدث عنها بتلك الطريقة الماجنة .. والتى يحاول دائما أن يتسلى عنها برفيقة دائمة .. والتى يعتبرها فى حياته مجرد سد خانة .. والتى يراها عبئا عليه يقيد حريته .. وينغص عيشه .. لم يتوقع قط أن تكون الزوجة التى يصفها مراد بمثل هذه الأوصاف .. هى صاحبة هذا الوجه العجيب .. الذى لا يمكن أن يوحى بغير السكينة والهدوء ..

وكان وجها بلا رتوش ولا أصباغ .. أشبه بوجوه الراهبات أو الأطفال .. ولم تكن جاذبيته ناتجة عن فتنة .. أو إثارة .. وإنما كانت عن رقة ونعومة وطيبة ..

كان جميلا جمال البحيرة الزرقاء الصافية الساكنة .. أو جمال الرقيقة الوادعة ..

كان الوجه عاجى اللون .. لا يكسو بياضه غير سواد الحاجبين وظلال الرمشين وحمرة غير صارخة فى شفتين رقيقتين .. ولم تكن بالعينين سعة .. وإنما كانتا مشروطتين فى ضيق يزداد مع الابتسامة حتى تكاد الحدقتان الخضراوان تحتضنهما الرموش المطبقة .. وأسنان بيض منظمة تجعل البسمة أجمل ما يمنحه الوجه .. من تعابير .. يحيط بكل ذلك هالة من الشعر الأسود الناعم الذى شوشته ريح القطار فترامت بعض خصلاته فى إهمال لتقطع بياض الجبين ..

تلك كانت تفاصيل الوجه .. ولم يبصر إبراهيم بالطبع كل الدقائق .. ولكنه .. أخذ بالوجه فى جملته .. وبشىء خاص من تلك الدقائق أحس به من أول مسة .. مس بها الوجه إحساسه .. وهو اقتران الشعر الأسود بالعينين الخضراوين .. لقد كان ذلك هو أول عناصر الهزة التى أصابته .. بلا إرادة ولا تفكير .. فقد كان اقتران اللونين فى وجه .. من أشد دوافع إحساسه بالجمال ..

وقبل أن يصل إلى النافذة .. وقبل أن يمد يده ليلقى اليد الممدودة لمصافحته .. أصابته الهزة الثانية .. هزة الإحساس بالذنب .. الناتجة عن إحساسه بالهزة الأولى .. هزة المتعة المفاجئة .. والنشوة اللاإرادية التى أصابته كما تصيبة طلقة ليس له من تجنبها مفر .. وبدا لنفسه مذنبا .. لمجرد الرضوخ .. لهذا التأثير الممتع .. ولمجرد الاستسلام لشعور النشوة .. من مصدر محرم .. وفى جملة ظروف لا يمكن أن يسمح واحد منها .. بمجرد قبول الإحساس ..

وتصافحت الأيدى .. وبين ألفاظ التعارف التى انطلقت من فم مراد الصاحب .. نشبت معركة سريعة خفية فى باطن إبراهيم بين استمتاعه باليد

الرخصة والبسمة الجميلة .. ومقاومته لإحساس المذنب.. الذى لم يتعود قط أن يكون مذنبا ..

وتغلب إحساس المقاومة .. واستطاع إبراهيم أن يطرد فى حزم وسرعة كل شعور فى باطنه إلا شعور المضيف والصديق ..

وبادل الضيفة ابتسامتها قائلا فى ترحيب :

— أهلا وسهلا .. شرفت العريش ..

وتلقى مراد حقيبة زوجته .. واختفت هى من النافذة وتحرك الاثنان ليستقبلاها من باب القطار .. واتجه ثلاثتهم ليستقلوا العربة إلى البيت ..

وقالت ليلى مجاملة :

— يبدو أن الجو لطيف عندكم !..

وأجاب مراد :

— انتظرى حتى تذهبى إلى البيت ..

وسألت ليلى إبراهيم :

— أهو جميل حقا كما وصفه لى ..؟

وأجاب إبراهيم :

— أظنه سيعجبك ، أو على الأقل سيكون مرضيا بالنسبة لغيره من بيوت المنطقة ..

وصاح مراد معترضا فى لهجته الصاخبة :

— مرضيا ؟ .. ستجدين بيتا .. لم يحلم أحد أجدادك بالسكنى فيه ..

وأخذ « إبراهيم » بلهجة « مراد » الوقحة نحو زوجته ، وهو لم يتوقع منه الأدب فى حديثه ، ولكنه لم يتوقع أيضا أن يرفع الكلفة مع زوجته أمامه .

وأحست « ليلى » بالحرج من لهجة « مراد » أمام « إبراهيم » .

ولكنها مالبثت حتى أضاعت الحرج بقولها ضاحكة :

ـــ لا أظن أحد أجدادى قد فكر فى الحضور إلى العريش .

ولكن « مراد » لم يحس حرجا من الاستمرار فى مزاحه .. الوقح ، فقال مقهقها :

ـــ لا بد أن واحدا منهم قد حضر أيام السلطة ، وكانت ستك تصيح به : « يا عزيز عينى .. والسلطة خدت ولدى » .

ولم تجب « ليلى » ، وكأنما خشيت أن يسوقها أى رد إلى مزيد من الإهانة والحرج ، وهى تعرف سلاطة لسان زوجها ، واستهتاره وعدم تحرجه أو اعتباره لأى ظرف .

وتملك « إبراهيم » إحساس بالعطف على « ليلى » ، وهو يرى استسلامها لوقاحة « مراد » ، وخوفها من اندفاعه المستهتر ، وإحساسها بالحرج أمامه كإنسانة وزوجة يتحتم عليه احترامها .

وكان عليه أن يقول شيئا لينقذ به الموقف .. فدفع مراد من ذراعه إلى العربة فى مزاح :

ـــ أدخل .. وكفى وقاحة .. أنت لا تنفع إلا فى المنزل ..

وسارت العربة حتى وصلت إلى البيت .. وعلى بابه وقفت مديحة ترقب القادمة بنظرة فاحصة .. من إخمص قدمها إلى رأسها .. حذائها المنخفض المترب وجوربها الذى رتقت النسل الذى به ببقعة من أكلادور الأظافر .. إن ساقيها جميلتان ولكنهما تحتاجان إلى قطعة حلاوة تزيل هذه الشعيرات البادية من وراء الجورب .. ثم فحصت الجيب .. لم يكن شيئا غير عادى .. لم يكن الجيبون يملأه بحيث يبدو نافشا كما يجب .. إن خصرها ضيق ولكن أردافها تبدو مسكوعة قليلا .. ومجنحة .. ولكن جسدها على بعضه جميل ، البلوزة لطيفة ولكن بها فتق صغير عند الكم.. وصدرها لا بأس به..إنه يبدو كصدر فتاة، طبعا لأنها لم تلد و لم ترضع .. إن السوتيان يحتاج إلى أن يشد قليلا .. إن

الوجه جميل .. ولكنه باهت ، لماذا لم تضع بعض الأحمر على خديها .. إنها فى مجموعها .. تبدو إنسانة لطيفة .. رقيقة .. على أية حال ، لم يكن منها مفر ، لا بد من احتمال ضيافتها ..

ومدت مديحة يدها .. وشدت على يد الضيفة مرحبة .. وصاح مراد يقدمها بلهجته الصاخبة الوقحة :

ـــ ليلى هانم .. حرمنا المصون .. سيدة كاملة .. ليس بها من عيب إلا أنها تمشى وهى نائمة ..

وقالت نادية وهى تمسك بثوب أمها :

ـــ أنا أيضا أعرف كيف أمشى وأنا نائمة ..

واستمر مراد فى وقاحته مقهقها :

ـــ أنت تمشين على الأرض .. ولكنها تمشى على الحيط ..

وأحست ليلى بالارتباك .. لم يكن هناك تقديم أسوأ من هذا التقديم ..

وبدا الضيق والانزعاج على وجه إبراهيم .. ولكن ليلى .. وقد تعودت على سخافات زوجها .. لم تلبث أن أزالت حرج الموقف بابتسامتها الرقيقة .. ومدت ذراعها ورفعت نادية وضمتها إلى صدرها قائلة فى لهجة مدللة :

ـــ أنت جميلة .. أرينى كيف تسيرين وأنت نائمة ..

وأغمضت نادية عينيها ومدت ذراعيها أمامها ، وصمت الجميع .. وقالت نادية :

ـــ لقد رأيت الرجل يسير فى السينما هكذا .. وكان يسير على حرف السور .. أتذكر يا بابا ..؟

ومدت الأم ذراعها فأُنزلت نادية قائلة :

ـــ دعى تنت ليلى تدخل لتستريح..إن مشوار السفر مرهق..

وأقبلت نهى من الداخل فصافحت الضيفة .. وبدا التساؤل على وجه ليلى فقال مراد يعرفها بها :

— نهى .. لاجئة فلسطينية ..

واستدرك إبراهيم يصحح قوله :

— إنها ضيفة علينا ..

وقالت ليلى مرحبة فى رقة :

— أهلا وسهلا .. إنها ضيفة علينا جميعا ..

وصاحت نادية قائلة :

— عندما تعود إلى بيتها .. ستدعونا كلنا ..

وأجابت ليلى :

— إن شاء الله تعود قريبا :

وضرب مراد على صدره فى قوة .. وصاح :

— أنا وحدى الذى سأعيدها .. أنا ونفيسة ..

وتساءلت مديحة ضاحكة :

— تقصد أنت وليلى ؟..

— بل أقصد نفيسة .. سأدخل تل أبيب على ظهر نفيسة .. دبابتى ، فهمتم ..؟

وتساءل إبراهيم مازحا :

— هل تستطيع نفيسة أن تسير بك إلى هناك ؟.. إننى على استعداد لمنحك « بل دوزر » .. من سلاح المهندسين .

— لا يا عم .. دبابتك العرجاء ولا سؤال اللئيم ..

— تأدب .. فلن أسكت على وقاحتك ..

وتدخلت مديحة قائلة :

— يا جماعة .. دعوا ليلى تدخل لتستريح ..

وقالت نهى :

ــــ لقد أعددت لها الحمام .. والحجرة ..

وقال مراد بوقاحته :

ــــ لا داعى للحمام الآن ، سنستحم سويا فى الصباح ..

وكسا الاحمرار وجه ليلى العاجى .. ولم يعجب مديحة هذا الخروج فى الكلام .. ولا سيما أمام نهى ونادية .. وجر إبراهيم مراد من ذراعه وقال له زاجرا :

ــــ وبعدين .. لِمّ لسانك ..

وأجاب مراد فى رضوخ :

ــــ حاضر .. متأسف ..

وسارت ليلى إلى حجرتها وتبعها مراد .. وبدا التجهم على وجه ليلى وهى تفتح الحقيبة لتضع ملابسها فى الدولاب .. واقترب منها مراد يحاول ضمها إليه فتملصت منه فى ضيق ..

وقال مراد محاولا استرضاءها :

ــــ أغضبت ...

ولم تجب ليلى ..

وعاد مراد يتساءل :

ــــ أسنبدأ فى لوى البوز .. قولى ماذا أغضبك ؟..

ــــ قلة الأدب التى لم تكف عنها منذ حضرت ..

ــــ أهذا شىء جديد عليك ..

ــــ شىء جديد على الناس الذين ننزل عليهم ..

ــــ من أدراك أنه شىء جديد .. كل الناس سفلة مثلنا ..

ــــ ليس هناك أسفل منك .. يجب أن تتحفظ أمام الناس .. يجب أن تحترم نفسك ..

— يا ستى لا تدققى . كونى بحبوحة ..

— هذه ليست بحبحة .. هذه سخافة وسماجة ..

— تعالى .. تعالى ..

ثم جذبها من ذراعها وضمها إليه فى عنف ، وقال وهو يقبلها ضاحكا :

— واحشانى .

وحاول أن يجرها إلى الفراش فدفعته فى ضيق قائلة :

— أنت متوحش ؟ .. إننا فى بيت ناس !..

— ونحن سنفعل ما يفعله الناس .. تعالى ..

وعادت تتخلص منه فى ضيق قائلة :

— دعنى حتى أفرغ الحقيبة ..

وسمع طرق على الباب .. ثم دخلت نهى تقول فى رقة :

— أتريدين الغداء أولا أو الحمام ..

— إنى لا أريد أن أتعبك ..

— ليس هناك ما يتعبنى .. لقد أعددت كليهما ..

— سأستحم أولا ..

وخرجت نهى وأغلقت الباب ومراد يصيح بها :

— حمام لاثنين ..

وهتفت به ليلى :

— وقح .. إذا كنت تنوى الاستمرار فى وقاحتك أمام الناس .. فسأعود ثانية إلى القاهرة .. مفهوم .. اتفضل .. أخرج ..

وقال مراد وهو يهز كتفيه :

— أمرك .. أنت الجانية على نفسك .. ستضيعين عمرك فى المحافظة على كرامتك أمام الناس .. لعن الله أباك .. وأبا كل الناس ..

الفصل التاسع

بـركان خـامد

مضت بضعة أيام ومراد وليلى يقيمان فى بيت العريش .. وكان مراد يذهب كل صباح إلى موقعه فى رفح ثم يعود قبيل الساعة الثالثة بعد الظهر حيث يتناول الكل الغداء معهم ..

ولم يصعب على الأسرتين الاندماج .. وفرضت عليهما الوحدة والغربة .. ألفة سريعة .. واستطاعت ليلى برقتها ووداعتها .. أن تكسب صداقة مديحة .. وأن تزيل بسرعة آثار الكلفة ..

أما الأمر الذى بدا متعذرا على ليلى .. فهو ترويض زوجها وستر نقائصه .. وإظهاره كمخلوق مهذب يمكن معاشرته ..

كان التناقض شديدا بين الاثنين .. ولم تستطع حماقة مراد وتبجحه أن تستر هذا التناقض .. فبدا واضحا مكشوفا .. لا يستره حجاب من الانسجام الظاهرى الذى يستر تناقض الزوجين الآخرين إبراهيم ومديحة ..

كان الأربعة يمثلون ثلاثة أنواع من الخلق والشخصية .. اثنان منهم وهما مراد ومديحة .. يمثل كل منهما أقصى اتجاه من الخلق .. والاثنان الآخران وهما إبراهيم وليلى .. يمثلان الوسط المعتدل المشترك .

كان مراد يمثل اللا أصولية واللا مسؤولية .. والانطلاق فى الحياة بلا قيد ولا قاعدة .. والتحرر من كل ما يثقل ميوله أو يقيد رغباته .. وإلقاء عبء المسئولية وتحميل النتائج على إله مفروض أن يدبر له أمره .. ويحمل عنه وزره ويغفر خطاياه ..

كان حيوانى النزعة .. بدائى التفكير .. يفعل ما يريد .. كيفما يريد .. ووقتما يريد .. لا يردعه عنه عرف .. ولا ذوق .. ولا أصول .

وكانت مديحة .. تمثل .. أقصى النقيض ..

كانت تمثل الأصولية المطلقة .. والمسئولية الكاملة .. كانت لا تتصرف إلا فى نطاق ضيق محدود من الأصول والقواعد .. وما يجب وما لا يجب .. وما جرى به العرف .. وما لم يجر .. وما علمته أمها لها .. وما نهتها عنه .. وما تعود أن يفعله أبوها .. وما لم تره يفعله ..

كانت تتحرك فى مجال تطبيقى .. لما تعلمته من النظم .. بلا تفكير ولا ابتكار .. ولا محاولة لاستنباط جديد يطابق ميولها وحياتها .. كل شىء فى محيطها يجب أن تفعله كما تعود الناس أن يفعلوه ..

الشاى يشرب بقطعتين من السكر .. فلا مجال لشربه بأربع أو بواحدة .. وأبوها كان يرتدى المعطف قبل الخروج فيجب أن يرتدى زوجها معطفه .. وأمها كانت تلفها قبل النوم .. فيجب ألا تنام ابنتها بدون لف فى البطاطين وحزم من الوسط .. السجاجيد كانت تقرع بالمنفضة فى بيت أبيها .. فيجب أن يستمر قرعها بالمنفضة حتى ولو كان بالبيت مائة مكنسة كهربائية .. لأن المكنسة لا تخرج التراب كالمنفضة . حسب تعاليم أمها .. وأم زهرة الغسالة كانت تغسل الملابس طيلة حياتها فى بيت أبيها .. فلا يمكن أن تغنى عنها فى بيتها غسالة كهربائية .. تلك كانت مديحة .. جدول مرسوم محفوظ لا يمكن أن تنتهى نتائجه إلا كما حسبت فى نهايته ..

عرفنا إذن فى مراد ومديحة ـــ أقصى النقيضين .. منتهى اللا أصولية .. ومنتهى الأصولية .. آخر اللامسئولية .. وآخر المسئولية القاعدية التطبيقية الجامدة ..

ووسط هذين النقيضين .. يقف إبراهيم وليلى .. ليمثلا أصولية الإحساس

.. ومسئولية الإدراك والفهم والتطور ..

كان كلاهما ذكيا .. رقيقا .. حساسا ..

لم يكن أحد منهما يكره الأصول .. ولا يحب الخروج عليها والعبث بها .. ولكنه أيضا لم يحاول أن يجعل فيها حدا كحد الموسى .. يقطع كل ما يخرج عليه .. كان يعتبر الأصول خطوطا رئيسية تنظم حياة الإنسان لتمنحه أقصى ما يمكن من خير ورخاء وسعادة وسلام .. يتبادلها مع غيره من المخلوقات و لم يكن يعتبر الأصول خطوطا متفرقة متشابكة تتداخل فى حياة الإنسان حتى تخنقه وتكتم أنفاسه ..

كان كل منهما يرى فى الأديان .. خطوطا عريضة لتنظيم حقوق الإنسان وواجباته ومعاملاته مع الناس .. بحيث تحقق أكبر حصيلة من الخير فى هذه الدنيا .. ولكنه لم ير أبدا .. أنها يمكن أن تتدانى إلى تعقيدات شكلية .. وتنظيمات هيكلية رهيبة .. وحركات آلية .. تفقد الإنسان حريته .. وتضيع من الحياة بهجتها .. ومتعتها ..

كان كل منهما يقدر الأصول الأساسية الرئيسية التى بغيرها لا تنتظم حياة البشر .. والتى تحدد قيمة الأخلاقية ومثله العليا .. ولكنه كان يترك لنفسه ولحسه ولمنطقه التصرف فى الأصول الفرعية المتكاثرة المتشابكة .. بحيث لا يخرجه تصرفه عن القواعد العامة الرئيسية وبحيث لا يعيش فى صورة مطبوعة من تقاليد سواه .. التى لا يعترف بها حسه ولا يقرها منطقه ..

كان إبراهيم مثلا .. يقر قواعد البناء التى بغيرها لا يستقيم بنيان .. ولكنه كان يكره أن يفرض على نفسه طابع غيره .. لمجرد التوارث .. وهو يحس بقلق من توارثه وتقليده .. ويدرك أنه لو أجرى بطريقة أخرى .. لكان خيرا وأبقى ..

وعندما كان يقتنع بإحساسه .. ويستريح إليه .. لم يكن شىء يقف فى سبيله ..

لم يكن يقيد نفسه بوراثة .. أو تقليد .. لقد عودته أمه أن تدخله الفراش بعد الحمام .. ولكنه لم يكد يحصل على حريته حتى أضحى يلعب التنس ثم يستحم ويخرج دون أن يصاب بالبرد الذى خشيت عليه أمه منه ..

كان يعرف أن الأكل بالشوكة والسكينة شيء واجب .. ولكنه عندما يأكل السمك أو الحمام .. كانت الشوكة والسكينة تفقدانه متعة أكلهما .. فكان يلقيهما جانبا ببساطة ويأكل بأصابعه حتى يستمتع بالأكل.. ولكنه لم يتعمد أن يلقيهما أبدا .. لمجرد الخروج على الأصول ..

كان يحب مص الثلج .. وكان أبوه ينهره عنه لأنه مؤذ .. وعندما كبر لم يحاول أن يقلد أباه بنهر نادية عن مصه .. بل مص الثلج معها ..

كان يحب أن يجلس ليرقب السماء أو البحر .. ويسمع الموسيقى .. وكان يحب المزاح واللعب .. و لم يحاول عندما كبر وأضحى مهندسا وضابطا ان يترك قيود مهنته ومركزه وسنه تحرمه من عاداته القديمة التى كانت تمتعه .

وبنفس الطابع كانت ليلى ..

كانت تحب البساطة .. وعدم التكلف .. ولكن ليس إلى حد الإباحية .. أو الخروج على الأصول الرئيسية فى حياتها ..

كانت تحب المزاح ولكنها تكره النكتة الجارحة .. وكان بها من فرط الحساسية وشدة الذكاء ما يجعلها شديدة الالتقاط لمعانى الجمال .. المنظور منه والمسموع ..

لم تكن تقيد نفسها بقيود الأصول والقواعد المتوارثة التى تكبل بها مديحة نفسها .. ولكنها كانت فى الوقت نفسه تكره ما يجافى الذوق وينافى الأدب والخلق .. كانت تنظف البيت ولكنها لم تكن تحدد لنفسها وقت نظافته من الثانية إلى العاشرة مثلا .. بحيث لا تستطيع قوة إلا المرض أو الموت أن تمنعها منه .. بل كانت إذا أعجبتها قطعة موسيقية .. تسمح لنفسها بترك الكنس حتى

تسمعها .. وكانت تقبل ببساطة استعمال المكنسة الكهربائية .. ولا تصر فى عنف على إخراج آخر ذرة من التراب من السجادة .. بواسطة قرعهـا بالمنفضة ..

كانت تلهو فى بعض الأحيان .. كما كانت فى طفولتها .. وكانت تقرأ .. وتفهم .. وتضحك ..

تلك كانت ليلى ..

وذلك كان إبراهيم ..

لم يكن من العسير بعد ذلك .. أن تتطابق مشاعرهما وتتقارب ميولهما ..

وأبدت الأيام القلائل الأولى .. هذا التقارب والتطابق بين كليهما .. بجلاء ووضوح ..

وبدأ الأمر بجلسة فى الصباح على مائدة الإفطار ..

صبت مديحة الشاى فى فنجان مضيفتهمـا .. ثم أمسكت بالسكريـة وتساءلت :

ــ قطعتين ؟

وابتسمت ليلى فى حياء وقالت :

ــ أكثر ..

ــ ثلاثا ؟

وبدا على ليلى التردد ثم هزت رأسها موافقة .. ولكن مراد قهقه قائلا لمديحة :

ــ ضعى القطعة الرابعة ..

ثم وجه السؤال إلى ليلى :

ــ لماذا لا تقولين إنك تشربينه بأربع قطع .. تصوروا أنها تشرب الشاى بأربع قطع .. تماما كالعيال ..

واستغرق إبراهيم فى الضحك قائلا :

ـــ الحمد لله .. لقد وجدت شريكا فى المصيبة ..

وتساءل مراد فى دهشة :

ـــ أنت أيضا تشربه بأربع .. لماذا لا تشربون عسلا .. بدل الشاى ..

وصبت مديحة الشاى لمراد وتساءلت :

ـــ كم قطعة ؟

ـــ ولا قطعة .. سأشربه سادة بالعند فيهما .. أنا لا أطيق أن يشرب أحد أمامى شايا معسلا ..

وقال إبراهيم :

ـــ وأنا أرجو من ليلى هانم أن تتولى صب الشاى لى منذ الآن حتى تريحنى من مناقشة مديحة .. ومحاولتها إقناعى بأن قطعتين كفاية جدا و ..

وضحكت ليلى قائلة :

ـــ وأنا مستعدة ..

ـــ اتفقنا ..

وعادت مديحة تسائل مراد :

ـــ أتريد لبنا ؟..

ـــ لا .. ولكنى سأقص عليكم نكتة بمناسبة اللبن مع الشاى ..

ونظرت إليه ليلى فى حذر فأجابها :

ـــ لا تخافى .. إنها ليست قبيحة ..

ـــ غير معقول .. أنت لا تعرف غير النكت الوقحة ..

ـــ وقحة ؟.. اعملى لى بنت ناس .. اسمعوا .. فى أحد مقاهى باريس فى الحرب الماضية .. جلس جندى إنجليزى على المائدة .. وطلب شايا .. وعندما وضعت له الجرسونة الشاى سألته .. أتريد لبنا .. فأجاب بالإيجاب .. فما

كان منها إلا أن أخرجت ثديها واعتصرته فى الفنجان .. ونظر إليه الجندى مشدوها .. ثم ابتلع ريقه قائلا .. الحمد لله .. لم أطلب ماء ساخنا !..

وضحك إبراهيم .. ولم يبد على وجه مديحة الجامد أثر للنكتة .. لا رضاء ولا غضبا وكأنها لم تسمعها .. ونظرت ليلى إلى زوجها فى غيظ :

— أهذه نكتة تقال على المائدة وقت شرب الشاى .. يا أخى اعقل .. تعلم .. الملافظ سعد ..

ولم يحب عليها مراد بأكثر من :

— اتلهى ..

ثم بصق بجواره بصقة كبيرة .. ولم يستطع وجه مديحة الجامد أن يخفى تعابير الاشمئزاز التى بعثها منظر البصقة وطريقتها ، ونظرت إليه ليلى فى ضيق وحرج .. وهمست :

— أليس معك منديل ؟!

— معى ..

— لماذا إذن تبصق على الأرض ؟..

— لا تغضبى .. فى المرة القادمة سأبصقها على وجهك ..

ثم انطلق يقهقه بمنتهى الانشراح ..

ولم تجد ليلى بدا من الصمت .. فقد كانت تتجنب كل ما يؤدى إلى الاحتكاك .. والصدام .. وهما فى بيت الناس ..

وأحس إبراهيم بالضيق من أجلها .. ولكنه لم يملك التدخل .. لا سيما وأن ليلى قد آثرت الصمت ..

تلك كانت أول مظاهر الميول المشتركة .. أربع قطع من السكر فى فنجان الشاى .. ثم تلاها .. (مضناك جفاه مرقده) ..

كان إبراهيم يدندن بها .. وكانت ليلى تنصت فى لهفة ..

وفى الساعة الثانية والربع أقبل إبراهيم مندفعا إلى حجرة الصالون ليدير الراديو فوجد ليلى تضبط المحطة ..

وقال إبراهيم فى أدب :

ـــ أتسمحين ؟ إن قصيدة عبد الوهاب الجديدة تذاع الآن ..

وضحكت قائلة :

ـــ مضناك ..؟

ـــ أجل ..

ـــ إنى أضبط المحطة لأسمعها ..

وجلس الاثنان يسمعانها فى استمتاع .. وعلى باب الحجرة وقفت نهى تنصت وترقب .

وأقبلت مديحة .. ونظرت إلى الراديو فى دهشة وقالت فى حزم :

ـــ أغلق الراديو .. لئلا توقظ نادية ..

وأشار لها إبراهيم بأصبعه أن تصمت قائلا :

ـــ مضناك ..

ـــ البنت نايمة .. وسيوقظها الراديو ..

ـــ أغلقى الباب وراءك .. فلا يتسرب الصوت ..

وغادرت مديحة الغرفة وأغلقت الباب وراءها فى شىء من الضيق .

وتكررت بعد ذلك .. مظاهر الميول المشتركة .. والأحاسيس المتطابقة .. بدأ ذلك فى الزهريات التى أخذت ليلى تنسقها من بعض الزهور البرية وفى أنواع الطعام التى يحبانها والتى يكرهانها ..وفى الموسيقيين والرسامين والأدباء الذين يميلان إليهم أو ينفران منهم ..

وأخذ يجمعهما إحساس مشترك بالعطف على نهى .. كان إبراهيم يحاول

جهده بعد أن أحس بمشكلة الفتاة ، كمسألة عامة يعجز عن حلها ، أن يمنحها من عطفه ما يعوضها عن عطف أهلها .. وأن يهيئ لها فى بيته ما يخفف عليها ألم الحرمان وعذاب التشريد ..

وأحست ليلى بشعورها المرهف .. بمصاب الفتاة .. بتشريدها وضياعها ولهفتها على الوطن وحنينها إلى الأهل .. وهى بطبيعتها رقيقة حنون .. مليئة بشعور الأمومة .. التى لم تباشره .. لأنها لم تزرق بعد أطفالا .. و لم تهيئ لها خشونة زوجها أن تمارس فيه هذا الإحساس .. فوجدت فى نهى على كبر سنها .. وعلى ضآلة الفارق فى العمر بينهما .. منفذا تفرغ فيه أمومتها .. ففاضت عليها حنانا وعطفا ..

وهكذا زادت الميول المشتركة بينهما .. وبمضى الأيام .. تعددت موضوعات الحديث بينهما .. وتكررت جلساتهما معها .. جلسات صريحة .. مكشوفة .. وأحاديث عامة .. لا حرج فيها ولا غبار عليها ..

لقد أحس إبراهيم .. بإنسان يفهمه .. إنسان يمكن أن ينصت إليه باهتمام .. ويستمع إلى مشروعاته .. ويتبع فى حماس آماله .. ويؤيد اتجاهاته وآراءه ..

أحس إبراهيم أنه يمكن أن يشرح لمخلوقة رقيقة جميلة .. أفكاره التى ابتكرها فى المشروعات التى صممها .. ويشرح رسم الفيللا التى أقامها فى المعادى لوزير التموين .. ويشرح لها العمارة التى أقامها فى مصر الجديدة .. والانقلاب الذى أحدثه فى تصميمها من الداخل .. وفى الواجهة ..

لقد وجد إبراهيم من يجاوبه فى أفكاره .. ويؤيده فى نواياه .. و ..

وفى كل حديث بينهما .. كان يكتشف تشابها جديدا .. وإحساسا مشتركا .. حتى طريقة النوم اكتشف أخيرا أنها واحدة .. عندما قال زوجها مراد فى مناقشة أنها لا تستطيع أن تنام إلا على جنبها الأيمن .. فأحست هى بالخجل من أن يذكر طريقة نومها .. ولكن إبراهيم ضحك فى نفسه .. ثم قال

لها بعد ذلك :

ـــ أتعرفين أننا متشابهان حتى فى طريقة النوم ..

و لم يحاول أحد منهما مقاومة ذلك الإحساس الجميل الذى يحس به كل منهما للآخر .. إذا ما جلس إليه .. أو ناقشه .. أو حتى فكر فيه ..

كان إحساسا .. نقيا .. لا تشوبه شائبة سوء .. كانت عناصره لا تزيد .. على الإعجاب .. والتقدير والاحترام .. والفهم المتبادل .. والذوق المتشابه .. والمشاعر المشتركة ..

تلك هى مركباته وعناصره .. ولا شىء أكثر من ذلك .. ولا تفكير فى أبعد من ذلك ..

مجرد نظر وحديث واستماع ..

ومع كل ذلك .. كان هناك إحساس خفى بعيد متوار فى الأعماق .. إحساس بالذنب .. وبالخطر ..

و لم يكن أحد من الزوجين يشعر بأن هناك شيئا غير طبيعى .. ولا تصرفا يبعث على الارتباك أو الضيق ..

مراد فى صخبه وضجيجه وأحاديثه البذيئة ونكته النابية .. وغنائه بأعلى صوته .. وسيره فى البيت والحديقة بالفانلة واللباس .. وحكاياته عن اليهود والدبابات ..

ومديحة فى صمتها وجمودها .. وحسابها للأصول والقواعد .. وما يجب وما لا يجب ..

ونهى .. ترقب وتدرك فى صمت .. وتحس وحدها بأنهم يجلسون على فوهة بركان .. الله يعلم متى يخرج حممه ..

الفصل العاشر

استدعاء على عجل

فى خلال الأسبوع الذى نزل فيه مراد ضيفا على إبراهيم .. نقل البكباشى عبد الرحمن وكيل المحافظة من مقره فى العريش وأخذت زوجته تستعد للسفر إلى مصر .. وذهبت لزيارة مديحة وتوديعها .. وجلست السيدات الثلاث قبيل المغرب فى الصالة حول المدفأة .. وانتحث نهى بنادية جانبا من الصالة بجوار النافذة الزجاجية تداعبها وتحاكيها .. وجلس إبراهيم وعبد الرحمن على مقعدين متقابلين بجوار البار .. واتكأ مراد بمرفقيه على البار مسندا ذقنه على كفيه .. وقد جلس على أحد المقاعد المرتفعة وأمامه كأس فى قاعها بقايا ويسكى ..

ورفع مراد الكأس فأفرغ ما بها فى جوفه ومصمص بشفتيه .. ثم هز رأسه قائلا فى أسف وهو يقلب رأسه فى رفوف البار الخالية :

ـــ يعطى الحلق للى بلا ودان ..

ورد إبراهيم بقوله ضاحكا :

ـــ يا أخى خد الحلق واشبع به .. اعتبره ملكا لك من الآن ..

ـــ لو أنه كان ملكى لما تركته هكذا خاويا .. لعمرت كل ركن فيه .. هنا فى هذا الركن .. أضع الكونياك .. وفى الركن المقابل أضع الويسكى .. وتحت الزبيب .. الزحلاوى الأصيل .. و ..

ـــ ولماذا لا تريح نفسك وتفتح خمارة ..؟

ـــ عندما أحال على المعاش سأفعل هذا ..

ـــ بعد عمر طويل إن شاء الله ..

ـــ لا .. بل قريبا .. بمجرد أن نقضى على هؤلاء الخنازير .. ونعيد العرب إلى أوطانهم فى فلسطين ..

وهز عبد الرحمن رأسه وتساءل فى شك :

ـــ أتظن أن هذا سيحدث قريبا ..؟

وضرب مراد الكأس على رخام البار وأجاب :

ـــ .. ولم لا ..؟

ونظر عبد الرحمن إلى إبراهيم متسائلا :

ـــ ما رأيك أنت ..؟

وشرد إبراهيم بذهنه فترة ثم أجاب :

ـــ ليس لدى أقل فكرة .. الواقع أنى لم أحس بالمشكلة .. ولم أفكر فيها إلا منذ فترة قصيرة ..

وعاد مراد يقرع الرخامة بكأسه قائلا فى سخرية :

ـــ أنتم ضباط غير محاربين .. اسألونى أنا .. قسما بالله لو انطلقت بنفيسة فلن أقف إلا فى تل أبيب ..

وتساءل عبد الرحمن فى دهشة :

ـــ نفيسة ؟

وقال إبراهيم مفسرا وهو يضحك :

ـــ نفيسة الدبابة .. إن لديه نفيستين .. أمه والدبابة ..

وتساءل عبد الرحمن ضاحكا :

ـــ ولماذا لا تنطلق بنفيسة ؟

ـــ لأنها الآن مقعدة ..

وقال إبراهيم فى خبث :

ـــ أيهما ..

وصاح مراد :

ـــ الاثنتان .. أمى مشلولة .. ودبابتى بطاريتها فاضية .. تصوروا يا جماعة دبابة على خط القتال ببطارية فاضية ..

ـــ وكيف ستصل إلى تل أبيب ؟

ـــ زق ..

وانطلق بقهقه فى صخب ..

ونظر إليه إبراهيم وهز رأسه فى دهشة وقال :

ـــ مهرج .. لا يمكن أن يجدّ أبدا ..

ـــ إذن ما رأيك أنت .. ما آخرة هذه الوقفة ؟..

ـــ حقيقة لا أدرى .. هل تصدق أنى لم آت إلى هنا إلا لأحل أزمتى المالية .. بمرتب الميدان المضاعف .. وإنى لم ألمس حقيقة المأساة التى نحارب من أجلها .. إلا منذ أن لقيت نهى .. ولمست آلامها .. وأحسست بمشاعرها ..

وأرهفت نهى سمعها وأحست من قول إبراهيم بما يشبه الربت العطوف أو الضم الحنون .

كانت نهى تجد دائما فى حنان إبراهيم ملجأ تستقر فيه وتحتمى به من مشاعر الضياع واليأس التى تتملكها .. كانت تحتمى إلى جواره بالثقة والأمل والطمأنينة . كان يبدو لها كجدار تأوى إليه فى فراغ عريض موحش تعصف به الزوابع وهبات الريح ..

كانت تحس به إحساس الصغيرات بفارس الأحلام الوهمى الذى يأتى بالخوارق ويصنع المعجزات .. كان أول صدر حنون يرق لها ويحنو عليها فدفعت إليه بكل آمالها وأمانيها .. وتوهمت فيه القدرة على تحقيقها .. وتخيلته على رأس جيش طويل عريض .. يشق لها طريق العودة .. ويعيدها إلى وطنها

.. ودارها .. وأهلها .. وربوتها التى تشرق من ورائها الشمس وكرمها المتهدل على الدرب ..

أجل .. سيعيدها إلى كل هذا .. و .. ويستقر معها .. فى الأرض العزيزة والوطن الحبيب ..

ولكن كيف يستقر معها .. وله وطن .. وله بيت .. وله ابنة وله زوجة — وأكثر من هذا — له شيء جديد .. يبدو أنه قد تعلق به أخيرا .. ووجد فيه بغيته .. وملاذه ..؟

ورفعت عينيها فاختلست من ليلى نظرة سريعة ..

إنها رقيقة .. جميلة .. طيبة .. وهى الأخرى تحس بمشاعرها .. وتشاركها فى آلامها ..

ونهى تحبها .. ولكن حبها لها .. تشوبه الحيرة .. والقلق .. لأنها تشاركها شيئا آخر غير الآلام .. إنها تشاركها فى أحاسيسها نحو إبراهيم .. وأحاسيسه نحوها ..

إنها لا تدرى بالضبط نوع تلك الأحاسيس .. ولا مداها .. ولكنها واثقة من وجودها .. واثقة من تعمقها وتشعبها .. تعمقا بطيئا .. وتشعبا غير محسوس .. ولكنه كائن .. ومستمر كامتداد الجذور فى باطن الأرض ..

وفى بعض الأحيان يتملكها .. إحساس لليلى لا تقره .. إحساس بالضيق وربما الغيرة .. عندما يغمرها اليأس وتتملكها الوحشة .. فى جلستها الصامتة وراء النافذة .. وهى ترقب الاثنين أمام النافذة .. وقد أنهمكا فى الحديث .. وبدا كأن كلا منهما لا يحس إلا بالآخر .. وكأن الدار قد خلت إلا منهما .. لا زوج لليلى ولا زوجة لإبراهيم .. ولا ابنة .. ولا نهى ..

ولكنها سرعان ما تطرد ذلك الإحساس .. فهى لا ترى لنفسها حقا فيه .. بل لا تجد لنفسها حقا فى أى شيء .. فكل ما أصابته من عطفه وحنانه إنما هو

منحة لا يجب أن تبنى عليها حقوقا .. بل عليها أن تقبلها شاكرة .. فإذا دفعتها الأوهام إلى أن تجعل منه منقذا لها ومحققا لأمانيها .. فلا يجب أن تغرر بها هذه الأوهام بحيث تضع لنفسها حقوقا عليه .. وتبنى على تلك الحقوق أوضاعا تمنحها حق الغيرة .. والضيق .. وغير ذلك مما يشعر به كل صاحب حق على آخر ..

ثم هو .. بعد كل هذا .. زوج .. ولا حق لأحد عليه .. غير زوجته .. وإذا كان ثمة مشاعر خفية تتعمق جذورها وتتشعب بينه وبين ليلى .. فتلك المشاعر خطيئة .. وهى لا تحب أن تجعل من الخطيئة المفردة خطيئة مزدوجة ..

لا .. لا .. يجب ألا تتعدى مشاعرها .. الأوهام .. والأحلام .. ألا يكفى أنها تزيل عنها اليأس .. وتفتح أمامها باب الأمل وتمهد طريق العودة..

وليلى نفسها .. صاحبة فضل عليها .. وجحود ونكران .. أن تضع نفسها ندًّا لها .. فتضيق بها .. وتغار منها ..

وإبراهيم .. فى نظرها .. أجل .. من أن يكون .. مجرد رجل يغار عليه .. إنه موئل .. وملجأ .. ومنقذ .. إنه قوة ضخمة .. من الإيمان .. والحب .. وكل المشاعر الجميلة ..

إن العابد لا يغار فى حب إلهه .. من بقية العابدين .. وبإحساسها لإبراهيم شبه كبير من إحساس العابد لإلهه .. ثقة وإيمان .. وآمال ..

إن آمالها فيه لا حد لها ..

لا تدرى لمه ؟ أمن فرط اليأس الذى أصابها بالضياع والتشرد والقلق ؟؟ كان لا بد لآمالها الحائرة .. من أن تستقر على محقق لها .. ولو بطريق التمنى أو الوهم .. وكان إبراهيم أول من فتح لها صدره .. ومنحها حبه ورعايته ..

أم تراه حقيقة الشخص القدير على تحقيقها الجدير بثقتها ..

ولكن .. كيف ..

إنها تتوهمه على رأس جيش كبير ..

وهو كما قال مراد فى مزاحه .. ضابط غير محارب ..

إنه مهندس .. إنه لا يتحدث عن الدبابات والمدافع .. ولا يبدى حماسا كبيرا لها .. كل ما يتحدث عنه التصميمات .. والفيلات .. والعمارات ..

لماذا إذن لم تضع آمالها .. فى مراد .. المحارب بطبعه .. الذى لا يكف عن الحديث عن الدبابات وعن المدافع .. وعن سحق إسرائيل ..

ومرة أخرى رفعت عينيها واختلست نظرة من مراد .. وقد جلس على المقعد العالى يدق البار بقاعدة الكأس دقات منغمة منتظمة ..

و لم تحس بحماس كثير له ..

ليس هو الإنسان الذى يمكن أن تثق فيه .. وتكل إليه بآمالها وأمانيها .. إنه قد يحارب .. ولكنه لا يحس .. ولا يفهم ..

إنه حتى الآن لم يحس بوجودها كإنسان .. وهى إحدى نتائج الظلم الذى يحارب لرفعه .. ورمز للحق الضائع الذى يريد أن يضعه فى نصابه ..

وفى المرات القلائل التى أحس بوجودها .. كان إحساسه منفرا بغيضا .. فقد نظر إليه نظرات فاحصة ..

لقد فحصها كأنثى .. ثم ارتد عنها ..

رده منها .. جسد أعجف .. وصدر ضامر ..

لا تعفف .. ولا ضمير ..

بل لأنها .. ببساطة .. لم تعجبه كامرأة .. والنساء كلهن فى نظره مجرد أجساد .. إما مثيرة فيقبل عليها .. أو غير ناضجة .. فيعرض عنها ..

ومع ذلك فهو لا يقبل على زوجته ..

لماذا .. إنها لا تدرى ..

ولكنه ليس وحده .. الذى لا يقبل على زوجته ..

إن إبراهيم أيضا يفعل هذا ..

إلهها .. ومنقذها .. وفارس أحلامها .. وأبوها أيضا لم يكن يقبل على أمها ..

لعل تلك هي عادة الأزواج .. إنها من أجل ذلك لن تتزوج .. أجل سترفض أى إنسان يتقدم لزواجها ؟..

أى إنسان ؟ .. حتى إبراهيم ؟ ..

ولكنه متزوج ..

لنفرض أنه غير متزوج ؟

فى هذه الحالة .. سيحتاج الأمر إلى تفكير .. إن إبراهيم .. مخلوق مثالى .. وهو إذا أعرض عن زوجته .. فلأن زوجته .. لا تحاول فهمه وإرضاءه .. كما تفعل ليلى .. وهى إن تزوجته .. فستفعل كما تفعل ليلى .. لا كما فعلت مديحة ..

أجل .. ستشرب مثله الشاى بأربع قطع سكر .. وستنام على جنبها الأيمن .. وستنصت إلى كل أحاديثه عن الفيلات والعمارات .. وستستمع معه إلى « مضناك جفاه مرقده » ..

أجل .. أجل .. إنها تستطيع أن تحتفظ به جيدا .. ولن تتركه يعرض عنها .. ويقبل على أخرى ..

أجل ستكون كليلى .. وليست كمديحة ..

وحولت بصرها إلى المدفأة حيث جلست السيدات الثلاث .. وأخذت تقارن بين مديحة وليلى ..

ليلى لطيفة .. ابتسامتها لذيذة .. ووجهها رقيق جميل .. وطريقتها فى رفع شعرها وعقصه على شكل ذيل الحصان .. تبدى جمال عنقها واستدارة وجهها ..

لو كانت رجلا .. لأحبت ليلى ..

ليس بها من عيب فى مظهرها .. إلا أنها تشاركها فى مشاعر إبراهيم ..

أما مديحة .. فبتقاطيعها صرامة .. وبخلقها حدة .. وهى لا تحب منها تلك الرقة المتناهية .. وتكره أيضا طولها المفرط .. وهذا الانحناء فى ظهرها ..

ومرة أخرى .. أنصتت نهى .. فقد سمعت اسمها يتردد مرة أخرى .. كان المتحدث عنها هذه المرة .. هى فريدة زوجة المحافظ ..

قالت فريدة ردا على سؤال لمديحة :

— سنسافر فى الغد .. لقد كان مفروضا أن نسافر فى الأسبوع الماضى ولكننا تأخرنا حتى يأتى وكيل المحافظ الجديد .. إنى أعرف زوجته .. سيدة لطيفة .. أعتقد أنها ستعجبك .. ولو أنها بلدى .. بعض الشىء ..

— تعجبنى أو لا تعجبنى .. لا أظننى سأعاشرها طويلا ..

وصمتت فريدة برهة ثم تساءلت موجهة القول لزوجها :

— عبد الرحمن .. ماذا سنفعل فى نهى ..

وأجاب عبد الرحمن مرددا قولها دون أن يحير جوابا :

— ماذا سنفعل فى نهى ؟ .. كما تريدين ..

— هل سنأخذها معنا إلى مصر ؟..

— إذا كنت تريدين .. سليها ؟

— ولكنى لا أريد أن أضايق مديحة بأخذها .. فإذا كنا ..

وقاطعتها مديحة قائلة :

— أبدا .. أبدا .. لا تحملى همى .. أنا نفسى لا أعتقد أنى سأمكث بعدك كثيرا .. فلا بد أن أعود لأجل مدرسة نادية ..

— إذن تمكث معك حتى تعودى ثم تحضريها معك ...

— أبدا .. أبدا .. لا يمكنك أن ..

وتدخل إبراهيم قائلا :

ـــ يا جماعة .. تسافر أو لا تسافر .. هذا شأنها .. وحدها .. أسألوها ..

ثم صاح بنهى :

ـــ نهى .. ما رأيك ؟

وأجابت نادية نيابة عنها :

ـــ ستبقى معنا .. لقد قالت إنها لن تسافر .. لأنها تريد العودة إلى بيتها ..

وصاح مراد متهكما :

ـــ تعود إلى بيتها ؟.. يخرب بيتها .. بدرى على العودة .. ما زال أمامنا وقت طويل ..

ـــ متى ستعود إذن ؟

ـــ عندما تملأ بطاريات الدبابات .. وتستطيع نفيسة السير .. سآخذها معى ..

وصاحت نادية متسائلة :

ـــ وعندما أرسل أنا لها مدفعا من القاهرة ؟..

ـــ بل أرسلى لنا .. قنابل .. بشرط أن تنفجر من الأمام لا من الخلف ..

وتساءل عبد الرحمن ضاحكا :

ـــ هل هناك قنابل تنفجر من الخلف ؟..

وأجاب مراد وهو يتساءل فى سخرية :

ـــ أتضحك ؟ .. إن نصف قنابلنا ينفجر من الخلف .. لقد أصبحنا نخاف من مدافعنا أكثر مما نخاف من مدافع العدو ..

وتدخل إبراهيم قائلا :

ـــ لا تصدقه .. إنه أكبر مشنعاتى .. لقد شنع على الدبابات .. والآن جاء دور المدفعية .. دعك منه .. لننته من أمر نهى أولا .. ما رأيك يا نهى .. أتحبين السفر إلى القاهرة ؟..

وعادت نادية تصيح :

— قلت لك لا ..

— اسكتى أنت يا نادية .. دعيها تتكلم ..

وأجابت نهى بعد أن منحت فرصة للرد :

— إنى أفضل البقاء ..

وقالت فريدة :

— ولكن مديحة هانم لن تمكث هنا كثيرا .. وقد تعود إلى القاهرة بعد بضعة أسابيع ..

— إذن أعود إلى المعسكر ..

وتدخل إبراهيم قائلا :

— دعوها لنا .. لا تحملوا همها ..

وبدا لمديحة أن تعترض ..

ولكن إبراهيم أسكتها بقوله :

— أنا سأتكفل بها .. وسأريحها .. سأعمل كل الترتيبات اللازمة ..

وقال عبد الرحمن :

— لن يكون هناك أية ترتيبات .. سأجرى أنااللازم .. وسأدعها لك ..

وصاحت نادية وهى تعانق نهى :

— ستبقى معنا .. ولن نعود .. إلا بعد أن تعودى أنت وسأطلب من نينا فى مصر أن ترسل لنا المدفع .. ومعه قنبلة تفرقع من الأمام .. أليس كذلك يا أنكل مراد ؟

— هل عند نينا مدفع وقنبلة ؟

— تشترى ..

— هل لها قريب فى القصر ..

— القصر العينى ؟

— لا القصر الملكى ..

وتساءل إبراهيم فى دهشة :

— القصر الملكى ؟

وأجاب مراد :

— أجل .. إذا كانت ستشترى المدفع والقنابل بواسطة القصر فعلينا العوض ..

وصاحت نادية :

— بل ستشتريه من ألف صنف ..

— إذن فلن ينفجر من الخلف ..

وتساءل إبراهيم :

— ما هذا التهريج ..

— ليس تهريجا .. بل حقيقة ..

— أنت مجنون .. وستودى نفسك فى داهية ..

— وأنت أهبل .. وسيودون هم بك فى داهيتين .. داهية فى الميدان .. وداهية فى داخل البلد ..

ودق جرس التليفون فجأة .. ومد مراد يده فرفع السماعة .. قائلا :

— ألو ..

— اليوزباشى مراد موجود .

— أجل .. أنا مراد ..

— تفضل كلم رفح ..

وتحدث صوت آخر يتساءل فى عجلة :

— مراد ..

ـــ من ؟..

ـــ أنا عبد المنعم .. جناب البكباشي يريدك حالا .. عندنا عمليات سريعة ..

ـــ أليس عندكم ضباط غيرى ؟..

ـــ ليس هذا وقت المناقشة .. احضر بسرعة ..

ـــ وكيف نبدأ .. العمليات .. إذا كانت الدبابات بلا بطاريات ..

ـــ البطاريات حضرت وركبت الآن فى الدبابات ..

ـــ ولماذا هذه العجلة .. العمليات حبكت الليلة ؟..

ـــ يا مراد لا تكن سخيفا .. احضر أرجوك .. وإذا كان لك اعتراض .. قله لجناب البكباشى ..

ـــ يخرب بيتك لبيت جناب البكباشى .. سأحضر حالا ..

ووضع السماعة فى قرف قائلا لمن حوله :

ـــ عمليات .. عن إذنكم .. سأذهب لآخذ لى يدا ..

وقام ليرتدى ملابسه وبعد خمس دقائق كانت العربة تنطلق به إلى رفح ..

الفصل الحادى عشر

عمليـة انتحـارية

أقبل مراد على خيمة البكباشي منصور قائد الآلاى والليل قد أدلهم .. وبرودته قد أخذت تنفذ إلى العظام .. وقد التف مراد بكوفية وضم المعطف الكاكى الخشن حول جسده الربعة .. ووقف أمامه وقد رفع يده بالتحية ووراءه اليوزباشي عبد المنعم أركان حرب الآلاى ..

وبدا البكباشي منصور مقطب الجبين شارد النظرات ، وقد جلس على مقعد خشبى وأمامه منضدة من نوع الـ ٦ قدم عبارة عن حاملين حديديين ، وقرص خشبى منفصل وقد تناثرت أمامه بضعة أوراق منها خريطة جنوب فلسطين ، وخليط من يوميات الميدان وأوامر العمليات وصندوق بسكوت وعلبة طباق وبجوارها غليون ضخم ، وعلى عمود الخيمة علق فانوس هاريكان وفى ركن من أركانها وضع جهاز لاسلكى وبجواره راديو صغير ..

ورد قائد الآلاى التحية فى صمت وأمسك بالبيب وأخذ يعبث به فى قلق ..

وقال مراد وهو يحدق فى قائده لعله يستشف ما برأسه :

ـــ أفندم ؟

ورفع منصور رأسه وسأله بغتة :

ـــ كم دبابة عندك جاهزة للتحرك ؟

وأجاب مراد ببرود :

ـــ ولا واحدة ..

— كيف ؟

— لأن البطاريات جميعها فى الصيانة ..

— دعك من البطاريات ..

— كيف ؟ .. هل نجر الدبابات ؟ ..

— البطاريات قد سلمتها لكم الصيانة اليوم ..

— لم أستلم شيئا ..

وتدخل اليوزباشى عبد المنعم بقوله :

— لقد تسلمها قواد السرايا بعد الظهر ، وقد ركبت الآن فى الدبابات ..

ورد مراد :

— إذن ستتحرك جميع الدبابات .. عدا اثنتين من الميدوز القديمة ..

وقال منصور :

— الميدوز لا تهم .. هل هناك شىء عاطل من اللوكاس ؟

— لا أظن ..

— المسألة ليست ظنا .. أريد أن أعرف بالضبط ..

— إذن ستتحرك جميع الدبابات .. فقد كانت هناك دبابة فى سرية زكى أفندى بها بعض العطل .. وإن كنت أعتقد أنها لا بد أن تكون قد أصلحت ..

— ألا تستطيع أن تجهز ثلاث تروبات ؟ ..

— طبعا أستطيع ..

— انتهينا .. جر هذا المقعد واجلس .. سأشرح لك ما أريده منك ..

ثم وجه القول إلى عبد المنعم ..

— أجلس يا عبد المنعم ..

— هل أحضر أوامر العمليات ؟..

— أجلس يا أخى .. ليس هناك وقت .. اسمع يا مراد ..

ـــ أفندم ..

واستعدل القائد الخريطة المنشورة أمامه وأمسك بقلم على المنضدة ووضع سنه على نقطة معينة قائلا :

ـــ أترى هذه التبة ؟..

ومد مراد عنقه قليلا ليرى النقطة التى وضع عليها قائده قلمه .. وعندما تحقق منها أجاب متسائلا :

ـــ التبة ٨٦ ..؟

ـــ أجل ..

ـــ لقد احتلها اليهود اليوم ..

وفغر مراد فاه وصاح فى جزع :

ـــ نهار أبيهم أسود ..

وأطلق القائد ضحكة ساخرة مريرة من شفتيه قائلا :

ـــ نهار أبينا نحن .. هو الأسود .. إن لم نطردهم حالا .

وعقب اليوزباشى عبد المنعم على قوله :

ـــ لقد قطعوا الطريق إلى غزة .. وعزلوا كل قواتنا الموجودة فى الشمال ..

وقال مراد وقد بدا عليه الذهول :

ـــ وأين كانت القوة التى تحتل التبة ؟

وأجاب القائد وهو ما زال يضع قلمه على الخريطة :

ـــ لقد اضطروها إلى الانسحاب بعد أن كادت تفنى .. لقد هاجموها بقوات متفوقة جدا .. تبلغ حوالى مجموعة لواء ..

وأطرق مراد برأسه برهة ثم تساءل :

ـــ والمطلوب ؟!

ـــ أن نستردها ..

ــ كيف ..

ــ بآلاى الدبابات ..

ــ فقط ؟

ــ لقد صدرت الأوامر إلينا من قيادة الفرقة باستردادها حالا وستعاوننا المدفعية بضرب مواقع اليهود ..

ــ والمشاة ؟

ــ لا علم لى بها ..

ــ ولكن المفروض أن تقوم المشاة بالهجوم بمعاونتنا ؟ .. هذا على الأقل هو ما أذكره من التكتيك الذى تعلمته ..

ــ سنقوم نحن وحدنا باسترداد الموقع ..

ــ وعندما نسترده مَن الذى يحتله ويعززه ويدافع عنه ؟..

ــ نحن أيضا ..

ــ هذا ليس من واجب الدبابات ..

وصرخ القائد فى وجهه فى ضيق :

ــ لا تقل هذه الكلمة أبدا .. لقد أصبحت سبة فى وجوهنا .. لقد أصبح الجميع يتندرون بها .. ويعتبرونها فكاهة الميدان .. لقد باتوا يقولون عنا .. إنهم كلما يكلفوننا بعمليات قلنا إن هذا ليس من واجب الفرسان ..

ــ لأنه يكون فعلا ليس من واجب الفرسان ؟

ــ لقد ضاقوا بنا ذرعا ..

ــ لأنهم لا يعرفون جميعا عملنا .. إنهم يريدون أن ينشرونا فى المواقع الدفاعية .. إن القيادة لا تعرف .. واجبات القوات المدرعة .. فى كتاب تعليم آلاى المدرع ..

وقاطعه القائد بحدة :

— ليس هذا وقت تطبيق تعليمات الكتب .. إننا هنا لننفذ أوامر لا لنجرب تعليمات .. يجب أن نفعل كل ما يكلفوننا به .. سواء كان فى طبيعة عملنا أم لم يكن .. وسواء نص عليه كتاب التكتيك أم لم ينص .. مفهوم ؟

— مفهوم يا فندم .. ما هى أوامركم ؟..

وسحب القائد ورقة بيضاء ورسم عليها دائرة وجر أمامها خطا وقال :

— اسمع .. هذه هى التبة ٨٦ وهذا هو الطريق ..

ثم خط بضعة خطوط داخل الدائرة وحولها .. واستطرد يقول :

— وهذه هى المواقع التى كنا نحتلها فى التبة .. والتى أعتقد أن اليهود لا بد أن يكونوا قد احتلوها .. لأنها جميعا على الطريق .. ولأنهم يستطيعون منها أن يمنعوا أى قوة من التقدم شمالا أو جنوبا .. مفهوم ؟..

— مفهوم يا فندم ..

— ليس أمامنا وقت لعمل استكشاف .. لأن المفروض أن نبدأ عملنا فى طردهم .. عند أول ضوء .. بحيث تكون التبة فى أيدينا قبل الظهر .

وقلب مراد شفته السفلى ونظر إليه القائد فى غيظ وصاح به ناهرا :

— مالك ؟

— لا شىء ..

وأعاد القائد قوله فى إصرار :

— ستكون التبة فى أيدينا قبيل الظهر ..

— سنحاول ..

— وسننجح ..

— التساهيل على الله ..

— وعلينا .. وعلى عزمنا ..

— العزم موجود ..

ــ والقدرة ؟

ــ لا يقدر عليها إلا الله .

ــ لا أريد منك هذا التواكل ..

ــ أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا إلا بالاتكال على الله ..

ــ توكل على من تشاء .. المهم أن تكون التبة فى أيدينا قبل الظهر ..

ــ ما هو المطلوب منى بالضبط ؟..

ــ سأشرح لك الخطة العامة .. ثم أعطيك أوامر كتيبتك .. سنقوم بالعملية بكتيبتين .. ستتقدم كتيبة على الطريق .. لتثبيت العدو .. ولتحويل أنظاره ..

ــ بهجوم مخادع ..؟

ــ بل هجوم حقيقى .. مباشر على مواقع العدو ..

ــ هجوم حقيقى من الطريق ؟

ــ أجل ..

ــ والكتيبة الثانية ..

ــ ستقوم بعمل لفة من الجنوب إلى الشرق حول مواقع العدو لتهدد مؤخرته .. وتضطره إلى الانسحاب .. مفهوم ..

ــ مفهوم يا فندم ..

ــ وستدق المدفعية مواقع العدو طول الليل ..

ــ وما هى أوامرى أنا بالتحديد ..

ــ ستقوم أنت بالهجوم بثلاث تروبات على محور الطريق ..

ــ هجوم مباشر على محور الطريق ..؟

ــ أجل ..

— هذا انتحار .. وليس هجوما ..

— ليكن .. وسيقوم الصاغ مرسى بعمل الالتفاف بكتيبته ..

— حلال عليه ..

— وعليك أن تبدأ الهجوم .. عند أول خيط من خيوط الفجر .. أعنى بمجرد أن تستطيع أن تبصر مواقع العدو .. بمجرد أن يلوح الضوء ..

— ولماذا الانتظار حتى يلوح الضوء .. لماذا لا نتحسس مواقعه ..

— أتمزح ..

— لا يا فندم .. إنى أحب التحسيس .. ولو على مواقع العدو ..

وضحك منصور لأول مرة .. وكان يعرف أن مراد مهرج مهذار ويعرف أيضا مدى استهتاره .. ولكنه كان يعرف أيضا أنه رغم مناكفاته ومشاغباته .. أقدر ضباطه على أعمال الجرأة .. والاندفاع .. فلم يجد خيرا منه يوكل إليه العملية التى وصفها مراد بأنها عملية انتحارية ..

ونظر منصور إلى ساعته وقال وقد أعاد إلى وجهه سيماء الجد :

— الساعة التاسعة الآن .. أريدك أن تتحرك فى أقرب وقت تستطيع التحرك فيه ..

— إن هناك أشياء كثيرة لا بد أن نعدها .. نريد أن نعبىء البنزين والذخائر .. وأريد أن أفتش على الشدة ..

وقال اليوزباشي عبد المنعم :

— لقد أعطينا الكتيبة إنذارا بالتحرك .. وقد قلت لليوزباشى فريد قائد ثانى الكتيبة جميع الأوامر الإدارية اللازمة .. وضابط الإمداد والتموين وضابط الصيانة وورشة الآلاى تحت أمرك .. وأعتقد أنك ستجد الكتيبة جاهزة بأجمعها ..

ونهض مراد قائلا :

ـــ أرجو أن تكون البطاريات قد شحنت جيدا .. وألا تكون الصيانة قد أعادتها كما هي ..

وضرب كعبيه ببعضهما ثم رفع يده بالتحية قائلا للقائد :

ـــ عن إذنك يا فندم .. سأذهب لأعد الكتيبة للتحرك .. وأعطى قواد التروبات أوامرى ..

ـــ أعطنا خبرا .. عند التحرك .. وأرجو أن يكون هذا قبل ساعة ..

ـــ إن شاء الله ..

وقبل أن يستدير للانصراف .. مد يده فأمسك بعلبة البسكويت الموجودة على المنضدة قائلا :

ـــ أتسمح بهذه يا فندم .. حتى لا أموت .. جائعا ..

ـــ خذها .. وخذ هذه أيضا ..

ومد يده إلى جيب معطفه المعلق وأخرج علبة سجائر قائلا :

ـــ هذا تموين الأسبوع ..

ـــ وحضرتك ..

ـــ كفاية البيت ..

ـــ متشكر يا فندم .. السلام عليكم ..

ـــ عليكم السلام .. لا تتلكأ فى التحرك ..

ـــ حاضر يا فندم ..

وقال القائد لليوزباشى عبد المنعم :

ـــ أعد الرئاسة للتحرك ..

وأجاب عبد المنعم :

ـــ جاهزة يا فندم ..

وخرج عبد المنعم فى أعقاب مراد .. والتفت إليه مراد متسائلا .. وهو يدس علبة السجائر فى جيبه ويفتح علبة البسكويت ليأكل منها :

ـــ ستتحرك الرئاسة معنا ..

ـــ ستتحرك مع كتيبة مرسى ..

ـــ يا رعاديد .. لماذا لا تتحركون معنا ..

ـــ معك أو معهم .. كله شقاء ..

ـــ لا .. ليس كله شقاء .. بعضه شقاء .. وبعضه .. انتحار .. على أية حال .. أنا لا أحب صحبة الرياسات .. لأنى أكره أن يتدخل أحد فى شؤونى .. سأريكم كيف يكون الهجوم ..

ـــ أنت أسد ..

ـــ وأنت جحش ..

ـــ تأدب .. إنك على أبواب موت .. دعنا نذكرك بالخير .. ونقول .. الله يرحمه .. كان مهذبا ..

ـــ بل ستقولون .. الله يرحمه .. كان كذابا .. إذا قلت إنك أى شىء .. غير الجحش ..

ـــ الله يسامحك ..

ـــ لا أظنه سيسامحنى .. إن بيننا حسابا طويلا .. من الخبص والهاس ومفاسد أخرى ..

ـــ إن رحمته واسعة .. إنك رغم هذا ابن حلال .. وأعتقد أنه سيرحمك ..

ـــ يرحمنى ؟ . مالك قلبتها غما .. لماذا تريده أن يرحمنى .. إنى سأعود سالما من عمليتكم الانتحارية .. إن عمر الشقى بقى ..

— لم أقصد هذا .. إن رحمة الله مطلوبة لنا جميعا .. أحياء وأموات ..

— أجل .. قل هذا ..

وقبل أن يتخذ مراد مقعده فى عربته .. التفت إلى عبد المنعم وقال فى اهتمام :

— اسمع .. أمتأكد أنت أن البطاريات شحنت تماما ؟..

— طبعا .. لقد اختبرها ضابط الصيانة ..

— .. تصور لو فضيت البطاريات فى وسط المعركة .. ووقفنا أمام العدو .. كالمشلولين لا نستطيع حراكا ..

— يا أخى دع عنك الوساوس .. اتركها على الله .. ألم تقل للقائد إنك لا تتكل إلا على الله ..

— أجل .. إنى على استعداد لأن أتكل على الله .. ولكن ليس على ضابط الصيانة .. السلام عليكم ..

— اطمئن لا تخش شيئا ..

— وإذا خشيت .. ماذا يهم ؟.. أهى موتة أم اثنين .. من لم يمت بالسيف .. يا أستاذ .. مات بلدغة أو قرصة .. أو سكرة .. ومن لم يمت بهذا كله .. مات فطيسا .. دعها لله .. السلام عليكم ..

ورفع يده بالتحية فرد عبد المنعم التحية .. ووقف يرقبه وهو ينطلق بعربته ويختفى فى الظلمات ..

وأطلق عبد المنعم تنهيدة وتمتم لنفسه قائلا :

— كان الله فى عونه .. وفى عوننا جميعا .. أهذه عملية تخاض بالدبابات اللوكاس ..

وطافت بذهنه صورة سريعة .. للعمليات الدائرة .. وللأسلحة وللذخائر

.. وأحس كأنه يغرق فى مستنقع .. من الطين ..

لشد ما خاب ظنه .. وخيبت آماله ..

لقد توهم أنه سيطبق ما تعلمه .. من دراسات عن الحرب .. وسيصدر أوامر عمليات .. وسيضع جداول سير .. وسينظم عمليات التموين كما تعلمها فى كلية أركان حرب ..

ولكنه عندما جابه الحقيقة .. أحس بكل هذا يتبدد .. ووجد نفسه ضالا فى بيداء من الارتجال بلا نظم ولا قواعد .. لماذا إذن أجهدوا أنفسهم فى تعليمهم .. إذا كانت المسألة تنتهى فى الواقع إلى مثل هذه الفوضى ..

على أية حال .. لا بد مما ليس منه بد .. وكما قال قائده .. إنهم هنا لينفذوا الأوامر . لا ليطبقوا تعليمات الكتب .. وإذا كانت الأوامر هى الانتحار .. فلا بد من الانتحار ..

الفصل الثانى عشر

فـراش خـال

انطلقت العربة بمراد فى الظلمات إلى مواقع كتيبة .. وأخذت تمر بذهنه خواطر سريعة مختلطة متشابكة ..

هذه المرة .. سيقوم بعمل ضخم ..

هو وحده الذى سيطرد اليهود ..

سيقابلهم وجها لوجه .. فى عمليات لا شك ستكون عنيفة .. عملية قتال حقيقى .. لا مطاردة .. ولا مناوشة ..

ولكن كيف سيقوم بالهجوم ..

ليست لديه خطة واضحة فى ذهنه .. لأنه لا يعرف تفاصيل تفيده عن عدوه .. لا مواقعه .. ولا قوته .. كل ما يعرفه أنه احتل التبة ٨٦ وأنه قطع الطريق إلى غزة .. وأن عليه أن يطرده ..

وأخذ يستعيد فى ذهنه صور أوامر العمليات التى درسها .. ولم يجد لديه من المعلومات ما يستطيع أن يملى به أبسط أمر عمليات درسه .. ولكن ما الداعى لأمر العمليات .. إذا كان هو نفسه لم يتلق من قائد الآلاى أكثر من هذه الأوامر العائمة .. بأن يتقدم على الطريق ويهجم على العدو ليطرده من مواقعه .. وأن المدفعية ستدق المواقع طول الليل تمهد للهجوم .. والكتيبة الثانية ستلف حول مواقع العدو ..

ما شاء الله .. هذه هى كل أوامر عملياته ..

وليس عليه إلا أن ينقلها بدوره إلى ضباطه ..

على أية حال .. ليس المهم أوامر عمليات .. ولا تقدير الموقف ولا غير هذا مما تعلم .. المهم .. أن يأخذ دباباته .. ويتقدم فى سرعة ويدق اليهود فى عنف أينما وجدهم ..

أجل .. سيمزقهم إربا ..

وتملكته حمية القتال .. واستحث السائق ليسرع إلى مواقع الكتيبة ..

ثم عاد يفكر مرة أخرى ..

إن لديه قاذفات اللهب .. وسيستعملها لأول مرة .. ويصلى بها اليهود نارا حامية ..

سيطرد اليهود من مواقعهم .. ويتبعهم حتى يفنيهم .. سيمزقهم بأسنانه .. هو وضباطه .. وعساكره .. إن لديه بضعة أولاد « حمشين » يأكلون الزلط ..

سيأخذ التبة ٨٦ .. ولن يقف .. فيها ..

أجل لن يحتل مواقع .. ويقف للدفاع ..

ليس هذا واجب الدبابات .. رغم كل ما قاله .. قائده ..

إنه سيستمر فى التقدم .. وليحتل المشاة التبة ٨٦ ويدافعوا عنها ما شاء الله لهم الدفاع ..

إن التبة ٨٦ لا تهمه فى قليل ولا كثير .. إنه سيتقدم بدبابته .. ولن توقفه قوة ولا أوامر .. حتى يصل إلى تل أبيب .. على ظهر نفيسة كما كان يحلم دائما ..

وانتقل من نفيسة الدبابة .. إلى نفيسة الراقدة فى شبرا .. إلى أمه المشلولة .. الطيبة .. التى تغرقه بدعواتها ..

لا شك أنها الآن تفكر فيه .. وتدعو له .. وقد تكون عبراتها تتدحرج على خديها الغائرين كما تعود أن يراها دائما ..

ستسمع غدا أخباره .. عندما تذيع الإذاعة أن اليوزباشى مراد قد أحتل تل أبيب .. وشنق بن جوريون وعلقه من أذنيه فوق أعلى قمم الهاكارمل ..

وتذكر زيارته للهاكارمل .. ولحيفا .. قبل خروج الإنجليز من فلسطين وقبل إعلان دولة إسرائيل .. وتذكر اليهوديات راقدات على شاطىء تل أبيب .. الشاطىء الرملى الضيق القائم بجوار الجدار العالى الذى يفصله عن الطريق ..

وانتقل من اليهوديات الراقدات على شاطىء تل أبيب إلى عشيقته الراقدة فى الإسماعيلية ..

ترى ماذا تفعل ريتا الآن .. لعلها تستحم كعادتها .. فهى تقضى نصف حياتها فى البانيو ..

وأحس بشوق لها .. وبدأ يستعيد لنفسه ساعاته معها .. عندما وقفت به العربة .. أمام الكشك الصاج الذى يعتبر المأوى الوحيد فى الموقع الذى ترابط فيه كتيبته ..

وقفز من العربة وأقبل عليه جندى مراسلة يحييه ..

ورد مراد تحيته وصاح فى عجلة ..

ــ أين حضرات الضباط ؟

ــ ذهبوا إلى مواقعهم ..

ودلف مراد إلى الكوخ الصاج .. وهو مستمر فى تساؤله :

ــ وأين عبد الرحيم أفندى ..؟

ــ كان هنا منذ لحظة ..

ــ ابحث عنه وقل له أن يجمع الضباط ويأتى حالا ..

ــ حاضر يا فندم ..

ــ أحضر الباشجاويش بقرى أيضا ..

— حاضر يا فندم ..

ووقع بصر مراد على زجاجة ويسكى قد وضعت على منضدة فى ركن الكشك .. وتبين له أنها نقصت كثيرا فصاح يستدعى العسكرى :

— من شرب من هذه الزجاجة ؟..

— لست أعلم يا فندم ..

— اقترب ..

واقترب العسكرى واستمر مراد فى أوامره :

— افتح فمك ..

وفتح العسكرى فمه .. فمد مراد أنفه يشمه وعندما لم يجد به رائحة ويسكى عاد يتساءل فى غضب :

— من إذن الذى شرب من الزجاجة ؟

— والله لا أعرف يا فندم ..

— لا بد أن يكون عسران أفندى .. اسمع .. هل مكث عسران أفندى فى الكشك وحده مدة طويلة ..؟

— لا أدرى ..

— ما الذى تدريه ؟.. ماذا تفعل هنا .. إذا كنت لا تحرس ممتلكات قائد الكتيبة .. سبعة أيام حجز قشلاق .. مع قطع أربعة أخماس الماهية .. وفى المرة القادمة سأخصم منك ثمن زجاجة الويسكى .. وعندما أعود سأجرى تحقيقا وسأخرب بيتكم جميعا .. أذهب وناد عبد الرحيم أفندى بسرعة ..

وانطلق العسكرى يعدو فى الظلمات .. وسار مراد داخل الكوخ وأمسك بزجاجة الويسكى يفحصها آسفا ويتمتم لنفسه فى غضب :

— ضاع نصفها .. ضباط غجر وكتيبة بايظة .. لو لم نكن على عجل لشممت أفواه الكتيبة كلها .. وعرفت السارق .. ولكن من يكون غير

عسران أفندى .. إن له سوابق فى هذا .. لقد لطش ثلاث زجاجات بيرة فى الأسبوع الماضى .. لا بد أن أعمل له مجلس تحقيق .. سأوقفه .. ولكن ليس هذا وقته .. بعد المعركة إن شاء الله .. المهم الآن .. أن نشرع للتحرك .. لا نريد أن نضيع لحظة واحدة ..

وفتح الزجاجة وأخذ منها جرعة .. ومصمص شفتيه قائلا لنفسه :

ـــ قليل من الخمر يصلح المعدة ..

ومسح شفتيه وأردف قائلا :

ـــ ويريح الأعصاب أيضا .. نحن الآن فى أشد الحاجة إلى أعصاب ..

وتلفت حوله .. يلقى نظرة شاملة على الكوخ كأنما يبحث عن شىء ..

وبدا الكوخ على ضوء المصباح موحشا .. قد صفت به خمسة سراير سفرية .. ثلاثة منها للضابط فى ناحية .. وفراشان فى الناحية الأخرى.. كان أحدهما له ..

وألقى مراد نظرة على فراشه .. ثم انتقل ببصره إلى الفراش المجاور ..

كان فراشا .. بلا صاحب ..

لقد ذهب صاحبه .. و لم يعد .. أو عاد .. إلى مرقده ببطن الأرض فى حفرة .. لا فراش فيها .. سوى الثرى .. ولا غطاء .. سوى الرمل والحجارة ..

ذهب كما يذهبون الآن ..

ذهب اليوزباشى جلال .. قائد ثانى الكتيبة .. يضحك فى جذل .. ويدندن بأغنية مرحة .. وطلب منهم ألا يأكلوا .. كل علبة البلوبيف .. واستحلفهم بألا يمسوا زجاجة البيرة التى تركها ..

وأبقوا له العلبة والزجاجة .. ولكنه لم يعد ..

وبقى فراشه خاليا .. وسيذهبون الآن جميعا .. الملازمون الثلاثة .. وهو .. لا يعلم أحد منهم .. من العائد .. ومن سيكون صاحب الفراش الخالى ..

ومرة أخرى نظر مراد إلى فراشه ..

وأحس برجفة .. وتملكه إحساس بالخوف والتخاذل .. ما لبث أن طرده عنه بشدة .. وتنحنح بصوت عال .. كما يفعل الخفير فى بهمة الليل ووحشته .. ليطرد عنه أشباح الظلام .

وبصق بصقة كبيرة .. ومد يده .. إلى كوم من روايات الجيب على المنضدة وأزاحها جانبا .. وأخرج من أسفلها مصحفا صغيرا .. متآكل الغلاف .. ورفعه إلى شفتيه .. ثم دسه فى جيبه ..

وأحس بشيء من الراحة .. وذهب عنه إحساس الخوف .. ونظر إلى سقف الكوخ .. كأنما يحاول التأكد من الله .. أن مصيره لم يحن بعد .. وأن حياته لم يزل بها بقية .. وبقية طويلة ..

وانحنى ليفتح حقيبة من الصاج بجوار الفراش .. وأخذ يعبث فيها .. فأخرج الطبنجة وكيس الذخيرة .. وأخرج شنطة جراية قديمة بها علبة جبن .. وعلبة فول مدمس .. وعلبة سردين .. ووضعها على الفراش ..

ثم جذب الزمزمية المعلقة على مسمار فى حائط الكوخ .. ورجها ثم فتحها وأفرغ ما بها من ماء .. ونقل إليها ما تبقى من زجاجة الويسكى وأغلقها ووضعها فى طمأنينة على المنضدة قائلا لنفسه :

ـــ تنفع وقت العوزة ..

و لم يكد يضع الزمزمية حتى سمع وقع أقدام تقترب من الكوخ .. ثم أبصر عبد الرحيم .. الملازم الأقدم والذى يتولى مركز قائد ثانى الكتيبة بعد موت جلال ..

وحياه عبد الرحيم وصاح فى لهجة عسكرية :

ـــ الكتيبة تمام يا فندم ..

وسأله مراد :

ـــ البطاريات ركبت ؟

ـــ كلها يا فندم ..

ـــ فتشت عليها ..؟

ـــ كل ضابط فتش على سريته وأعطى تماما ..

ـــ وقاذفات اللهب ..؟

ـــ فتش عليها الباشجاويش بقرى ..

ـــ وأين الضباط ؟

ـــ سيأتون حالا ..

ـــ أمستعدون للتحرك ؟

ـــ فى أية لحظة ..

وسمع وقع أقدام .. وما لبث أن دخل الملازم عسران يتبعه الملازم عبيد ، وحياه كل منهما بيده قائلا :

ـــ تمام يا فندم ..

ونظر مراد إلى عسران نظرة فاحصة .. كانت بين الاثنين صداقة وطيدة .. فقد قرب كلا منهما إلى نفس الآخر تشابه شديد فى الخلق .. نفس الجرأة .. والاستهتار والإباحية .. وخفة الدم والتواكل .. وإن تناقضا فى الشكل .. فقد كان عسران صعيديا من سوهاج أسمر الوجه .. مديد القامة طويل الساقين .. يقذف بقدميه إذا ما سار ..

وكان عبيد .. يمثل فى الكتيبة الحذر والوسوسة .. وفرط الدقة .. وكاد أكثر ما يهمه فى كل عمله المحافظة على العهدة .. والتتميم على مهمات العساكر والدبابات .. وكان مراد يطلق عليه « الباشمخزنجى » ..

وقبل أن ينطق مراد بكلمة اقترب من عسران يشمه .. وأغلق عسران فمه حتى لا يستطيع مراد شمه ..

وسأله مراد ليجبره على فتح شفتيه :

ـــ أفتشت على البطاريات ؟

وهز عسران رأسه دون أن يفتح شفتيه ..

وصاح به مراد :

ـــ انطق ..

وعاد عسران يهز رأسه دون أن ينبس ببنت شفة ..

وجذب مراد زجاجة الويسكى .. وقبل أن يوجه أى سؤال صاح عسران فى جزع :

ـــ هل شربت الباقى كله ؟

ـــ إذن فأنت الذى شربت الزجاجة ..؟

ـــ بق واحد والله العظيم ..

ـــ سأخرب بيتك عندما نعود .. سأضعك فى الإيقاف الشديد .. عندما تنتهى المعركة .. وسأ ..

وتدخل عبيد قائلا :

ـــ الفقرة خمسة الخاصة بالإيقاف الشديد .. فى قانون الجيش تحتم ..

وقاطعه مراد قائلا :

ـــ اتلهى أنت والفقرة خمسة .. اجلسوا ..

وجلس الضباط الثلاثة حول مراد .. على حرف الأسرة .. وعلى صندوق خشبى فارغ ..

وقال مراد وهو يفرد الخريطة أمامه :

ـــ سأوجز فى الحديث .. فليس لدينا وقت نضيعه فى الدردشة .. اليهود احتلوا التبة ٨٦ .. وقطعوا الطريق إلى غزة .. والمفهوم أنهم هجموا بمجموعة لواء .. والمفهوم أيضا أنهم استولوا عليها اليوم العصر .. و لم يكن لديهم وقت

كاف للتعزيز .. والمطلوب أن نقوم بهجوم سريع لطردهم .. وقد كُلف الآلاى بعملية الهجوم .. وأعطيت كتيبتنا واجب الهجوم بالمواجهة على محور الطريق .. والمفروض أن هجومنا تثبيتى ليثبت العدو فى مراكزه .. لنعطى الفرصة للكتيبة الثانية لتطويقه .. ولكن الذى فهمته أن المطلوب منا أن نهجم هجوما تاما بأقصى ما نستطيع من قوة .. وبدون أن ندخل فى حسابنا أن هناك عملية تطويق ستقضى عليه ..

وهز عبيد رأسه فى حيرة وتساءل :

ـــ هل سيكون هجومنا مجرد تثبيت لكى تقوم الكتيبة الأخرى بالهجوم الفعلى ..؟

وصاح فيه مراد :

ـــ إنى أتكلم عربى .. إن عملنا سيكون هجوما منفصلا .. أساسيا .. سننسى أن هناك تطويقا .. ولا بد أن نأخذ الموقع قبل ظهر غد ..

وصمت برهة ثم صاح بهم :

ـــ هل نستطيع أم لا ؟

وأجاب عسران فى حماس :

ـــ نأخذه ونأخذ أبوه ..

وبدا التشكك فى وجه عبيد .. و لم يعبر وجه عبد الرحيم عن شيء وأردف مراد يقول :

ـــ ستعاوننا المدفعية فى ضرب مواقع العدو طول الليل .. إنى لا أستطيع أن أحدد لكم الآن تفاصيل الخطة .. لأنه ليس لدى أى معلومات من مواقع العدو .. وأعتقد أن كل ما علينا الآن هو أن نتحرك بسرعة لكى نصل قبل الفجر إلى المواقع التى نستطيع منها أن نقوم بالهجوم ..

وأشار إلى الخريطة بطرف قلمه :

ـــ إننا سنقف فى هذه المنطقة .. هناك جرف نستطيع أن نوزع الدبابات خلفه .. وسنقوم منه باستكشاف سريع .. ونستطيع أن نضع خطة الهجوم بعده .. وإن كنت أعتقد أن المسألة .. لن يكون فيها تعقيد كثير .. فهى لا تحتاج لأكثر من قوة وتصميم وإرادة .. سنضرب العدو بكل ما نملك من نيران .. وسنتقدم لنهرس أجساده تحت دباباتنا .. مفهوم يا ولاد ؟

وأجاب الضباط الثلاثة :

ـــ مفهوم يا فندم ..

ـــ توكلوا على الله .. اذهبوا إلى سراياكم .. وسأقوم بإجراء تفتيش سريع .. المهم عندى أن تتأكدوا من البنزين والذخيرة .. والبطاريات .. لا أريد أن تقف دبابة وسط المعركة لأن المارش لا يدور .. هل يريد أحد منكم أن يسأل أى سؤال ؟

وسأل عبيد :

ـــ لم تذكر حضرتكم شيئا عن الشئون الإدارية ..

ـــ ماذا تريد أن تعرف عن الشئون الإدارية .. الدبابات تملأ بالبنزين والذخيرة .. وتعيين الطوارىء مع العساكر ..

ـــ هل سنأخذ معنا احتياطى فى اللوريات ..

ـــ لن نأخذ معنا لوريات .. لا داعى للخمة .. سيبقى كل شىء هنا .. إن المسافة ليست بعيدة .. وأرجو أن تنتهى العملية كلها قبل الظهر ..

ـــ إن شاء الله ..

ـــ تفضلوا ..

ونهض الضباط ثم حيوا .. وقبل أن يغادر عسران الكشك مد يده خلسة إلى الزمزمية وهم برفعها إلى شفتيه ..

وخطف منه مراد الزمزمية .. فرجاه عسران فى استعطاف ..

— أريد بق واحد .. بق ماء ..

— ماء فى عينك .. وعين أبوك .. ألا يكفى ما شربته ..؟

— بق واحد فقط ..

— خد .. خسارة فى حبة عينك ..

وانطلق الضباط من الكشك يتبادلون النكت .. وقبل أن يغادره مراد صاح بالعسكرى الحارس :

— كما كنت حجز القشلاق .. خذ بالك من ممتلكات قائد الكتيبة .. ومن زجاجاته .. مفهوم ..

وأجاب العسكرى وهو يبتسم :

— مفهوم يا فندم .. مع السلامة .. ربنا ينصركم ..

الفصل الثالث عشر

عودة مريرة

علا ضجيج الدبابات وثار غبارها .. وهى تتخذ طريقها فى جوف الليل .. إلى أرض المعركة ..

وأحس مراد بالمسئولية الضخمة الملقاة على عاتقه .. وهو يتخذ مكانه فى دبابته وقد لف عنقه ووجهه بكوفية من الصوف الكاكى .. وأخذ يحملق فى الظلمات المتكاثفة أمامه ..

وتذكر الفراش الخالى .. وتذكر جلال ..

وبرغمه .. انزلقت فكرة الموت إلى ذهنه .. وحاول طردها عبثا وعجز عن مقاومتها .. فسلم نفسه إليها .. وتركها تعبث به .. وتقلبه تقليب الشواء على النار ..

ليس بمستبعد أن يلقى حتفه فى هذه المعركة .. برصاصة تندفع فى الهواء .. لا تجد مكانا تستقر فيه سوى رأسه أو صدره .. وتخيل نفسه يتلمس موضعها ويحس سخونة الدماء ولزوجتها .. وتخور قواه ويخر صريعا ..

وتصور جثته ملقاة فى العراء نهبا للطيور .. أو محمولة على نقالة الميدان .. وتصور وقع موته على الناس .. سيسمونه بالطبع الشهيد مراد .. وسيلصقون به مختلف الفضائل وينسبون إليه كل أنواع البطولات .. وسينشرون صورته فى الصحف .. ترى هل سيجدون له صورة وجيهة .. أو سيأخذون صورته الموجودة فى الدوسيه الخاص به بإدارة كاتم أسرار .. إنها ستكون مقلبا فيه .. فهو يبدو بها أشبه بالبلطجية أو الجزارين .. ليته ترك لهم صورة وجيهة .. إن

لديه صورة أخذها فى ستوديو شبرا .. ببدلة الجيش وهو يبتسم كأنه نجم من نجوم السينما .. لا بد أن يراعى هذا الأمر عند عودته .. إذا عاد هذه المرة .. فلا بد أن يدبر أمر استشهاده تدبيرا جيدا ..

وستبكيه أمه .. إنها طيبة وغلبانة .. وستبكيه زوجته .. تلبس من أجله السواد .. وتصبح أرملة .. وسيبكيه ضباطه .. وبعد مدة .. سينساه الجميع ..

أجل .. لن يكون فى نظرهم .. أكثر من فراش خال .. بين الضباط .. أو معاش لزوجته ..

وضاق بأفكاره .. وهز رأسه كأنما ينفضها عنه .. وساعد فى طردها .. دوى سمع من بعيد .. أخذ يتوالى .. حتى بدا له أن المدفعية قد بدأت فى عملها ضد مواقع العدو ..

وأحس مراد بدبابته تتباطأ .. وبدا له أن الماكينة تقطّع فى سيرها .. فصاح بالسائق :

ــ ما الحكاية ؟..

وأتاه صوت السائق من داخل الدبابة :

ــ الدبابة تقطّع ..

ــ بنزين والا كهرباء ..

ــ الظاهر .. أنها وساخة فى البنزين ..

ــ لماذا لم تدع الأسطى مرسى يفتش عليها ؟..

ــ لقد قضينا اليوم طوله فى تنظيفها وتشحيمها ..

ــ لماذا إذن تتحجج بوساخة البنزين .. هل جربت البطارية جيدا .. وهل فتشت على الكهرباء ؟

ــ أجل ..

وصاح مراد فى عصبية :

ـــ إذن لماذا تقطع ؟..

وهبط مراد إلى الداخل مقتربا من مقعد السائق .. ومد عنقه فاحصا تابلوه الدبابة صائحا :

ـــ دوس بنزين ..

وأحس السائق بالارتباك من صيحة مراد وعصبيته .. وبدا مضطربا فى عمله .. ولكن الدبابة عادت إلى الانتظام فى السير .. فأنقذته من غضب مراد .. وتمتم يقول معتذرا :

ـــ إنها وساخة بنزين .. إن الدبابة على خير حال ..

وقال مراد محذرا :

ـــ خذ بالك جيدا .. وضع عقلك فى رأسه .. نحن فى معركة ولسنا فى طابور سير .. احذر أن تتوقف بك الدبابة .. وإلا أضعت حياتنا ..

واستمرت الدبابات فى السير .. يبدد ضجيجها سكون الليل .. وبين آونة وأخرى يسمع دوى المدفعية .. من بعيد .. واستغرق ركابها فى تفكير متقطع مضطرب يتنقل بين البيت النائى والأهل الغائبين .. وبين العدو الرابض .. والمعركة المنتظرة ..

أخيرا أعطيت الإشارة بالتوقف .. وأخذت السرايا تتفرق وانتشرت الدبابات تحاول أن تتخذ ساترا من ثنايا الأرض ..

وساد السكون .. إلا من الهسهسة والوسوسة .. وفرقعة هنا .. وخبط هناك ..

ومرة أخرى جمع مراد ضباطه وراء دبابته .. وأحس بالاضطراب يتملكه وهو يفكر فى خطة الهجوم .. ويوشك أن يصدر أوامره بها دون أن يكون فى ذهنه شيء محدد واضح .. وأحس بالسخط على قائده الذى ألقى به فى خضم

المعركة .. بلا معلومات مفصلة أو أوامر محددة .. كل ما هو مطلوب منه أن يهجم ليستعيد التبة ٨٦ ويطرد العدو ..

واقترب الضباط الثلاثة وقد تدثر كل منهم بمعطفه ولف رأسه بالكوفية .. ووقف الأربعة ينظر كل منهم إلى الآخر فى صمت وقد خيم عليهم سكون رهيب ..

وكان عسران أول من تحدث .. قال وهو يفرك يديه ويخفى رأسه بين كتفيه .. ويبتسم فى خبث منشدا :

ـــ عطشان يا صبايا .. دلونى على السبيل ..

و لم يتمالك مراد نفسه من الضحك فأجابه فى سخرية ..

ـــ أشرب من البحر ..

ـــ أشرب من البحر وزمزميتك موجودة ؟ عيب ..

ـــ الزمزمية فضيت ..

ـــ أنا فى عرض بق .. بق واحد يا عمى .. وأطردلك اليهود من التبة ٨٦ و ٨٧ .. إلى مائة ..

وحاول مراد أن يتخذ سيماء الجد فقال ناهرا :

ـــ عسران أفندى .. نحن فى ميدان قتال .. فى أرض المعركة ..

ـــ بق واحد .. يا حضرة القائد أنا أطرافى ثلجت ..

ومد مراد يده فأخرج الزمزمية ودفع بها إليه ورفعها عسران إلى فمه وتناول جرعة ثم مصمص بشفتيه فى استمتاع .. وأعاد الزمزمية قائلا وقد رفع رأسه وشد صدره :

ـــ أوامر سعادتك ..

وبدت الحيرة على وجه مراد .. وبعد برهة صمت رفع رأسه قائلا :

ـــ اسمعوا يا ولاد .. إنى لا أستطيع أن أضع خطة معينة حتى الآن .. ولكننى

أعتقد أننا نستطيع أن نهجم بسريتين .. ونضع سرية فى الاحتياط تستر هجومنا ..

وقال عسران بلا تفكير :

ـــ سأكون أحد سريتى الهجوم ..

وقال عبد الرحيم :

ـــ وأنا سأكون السرية الأخرى ..

وقال مراد :

ـــ إذن عليك يا عبيد أن تبقى فى مواقعك وتستر هجومنا ..

وقال عبيد فى دهشة وتشكك :

ـــ أهذه هى كل خطة الهجوم .. أليس هناك أوامر عمليات .. أو أوامر إدارية ..

ونظر إليه عسران وأجابه فى سخرية :

ـــ اتنيل .. بلا أوامر إدارية بلا عمليات .. اترزى فى مواقعك .. وسلط مدافعك على مواقع العدو .. هذا هو كل ما هو مطلوب منك .

وأجابه عبيد فى غضب :

ـــ تأدب يا عسران أفندى .. أنا لا آخذ أوامرى منك .. أنا آخذ أوامرى من قائد الكتيبة .

وتدخل مراد قائلا فى هدوء :

ـــ وبعدين .. أهذا وقته ؟..

وأجاب عبيد :

ـــ أريد أن أعرف أوامرى بالضبط ..

ـــ قلت لك اثبت فى مواقعك واستر الهجوم .. ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

ـــ وأين مواقع العدو ؟؟..

— ألا تعرف أين مواقع العدو ؟..

وقبل أن يجيب عبيد .. سمع صوت دوى .. وأعقبه انفجار ثم تبعه طلقات متتالية من مدفع ماكينة ..

وأنصت الجميع ، وأرهفوا آذانهم إلى مصدر الطلقات وقال عسران هامسا لعبيد :

— أعرفت يا شاطر .. أين العدو ؟

وقال مراد :

— اسمعوا يا جماعة .. لا نريد أى ضوء أو صوت أو حركة .. اذهبوا إلى سراياكم .. وأمروا العساكر بأن تصمت تماما .. لا نريد أن يعرف العدو مواقعنا قبل أن نبدأ الهجوم .. نحن لا نريد أن نموت فطيس ..

وحملق مراد فى اتجاه الطلقات .. وأرهف سمعه .. ولكن الصوت كف عن الانطلاق ..

ونظر عبد الرحيم إلى الساعة .. ثم رفع بصره إلى الأفق الشرقى وتمتم قائلا :

— لا أظن أمامنا وقتا طويلا ..

وقال مراد :

— اذهبوا إلى سراياكم ودعوا العساكر تستريح فى أماكنها .. وعندما تطمئنون على كل شىء عودوا إلى ..

وعاد الضباط إلى سراياهم .. وأخذ الوقت يمر بطيئا رهيبا .. وبين آونة وأخرى يسمع صوت دوى .. أو دفعة طلقات متتالية ..

ورويدا رويدا .. بدأ ضوء النجوم يخفت .. وسواد الكون يستحيل إلى رمادية باهتة ..

والتف الضباط مرة أخرى حول مراد وقد رقدوا على بطونهم فوق حافة تبة مرتفعة وأخذوا يحدقون فى الفراغ الذى تبددت منه الظلمة وتسرب إليه

الضوء باهتا شاحبا .. وأخذت تلوح لأعينهم تفاصيل التبات وبدت عليها أشباح وهياكل لا تستطيع العين أن تفسرها ..

ووضع الضباط الراقدون منظارات الميدان على أعينهم فلم يستطيعوا أن يميزوا بها شيئا ..

وقال مراد :

ـــ اسمعوا يا جماعة .. لا نريد أن نضيع وقتا فى الاستكشاف ، إننا فى أشد الحاجة إلى الثوانى والدقائق .. ويبدو لنا أن ما نكسبه من المفاجأة لو هجمنا الآن خير بكثير من أى معلومات يمكن أن نحصل عليها لو انتظرنا .. ما رأيكم ؟..

وأجاب عسران ..

ـــ معك حق .. إنى على استعداد للهجوم ..

ـــ إذن خذ سريتك .. واهجم فى اتجاه اليمين .. إنى أستطيع أن أجزم بأن العدو قد احتل هذه التبة التى على يمين الكودية .. فمن هذا الاتجاه صدرت طلقات المدفع الذى سمعناه بالليل .. هل تريد تفاصيل أو أسئلة ؟

وقال عسران وهو يسحب جسده للخلف :

ـــ لا أريد شيئا ..

ولكن قبل أن يستدير لينطلق إلى سريته عاد يقول :

ـــ أريد شيئا واحدا ..

ـــ ما هو ..؟

ـــ بق من الزمزمية ..

وألقى إليه مراد بالزمزمية .. وهو يضحك قائلا :

ـــ خذها كلها يابو عسران .. وإذا طردنا العدو وعدنا سالمين .. لك عندى زجاجة جون هيج ..

— يا نهار أسود .. زجاجة جون هيج برأس بن جوريون بعد لحظات .. سلام عليكم ..

وانطلق عسران يعدو إلى دبابته ..

واستمر مراد يتحدث إلى عبيد وعبد الرحيم .. وما لبث الثلاثة أن عادوا أدراجهم إلى دباباتهم ..

وبعد لحظات بدأت السرايا فى التحرك .. علا الضجيج .. وثار الغبار .. وخرجت الدبابات من مكمنها ..

وفى نفس اللحظة .. بدأ الدوى من الجانب الآخر ..

بدأ خفيفا متقطعا .. واستمرت الدبابات فى الزحف .. واستمر الدوى فى التزايد والشدة ..

وأخذ مراد يرقب تقدم الدبابات وقد جلس فى دبابته مع سرية الاحتياط التى اتخذت مواقعها وراء الجرف .. وأخذت تطلق مدافعها صوب مواقع العدو ..

وبدأت القنابل تتساقط هنا وهناك .. والدبابات مستمرة فى زحفها ، ومراد يرقبها وقد شدت أعصابه .. وزاد قلقه وهو يحس كأنما قد ألقى بحزمة القش فى جحيم من النيران .. أو بكوم من السمك فى أفواه الحيتان ..

وسمع مراد دويا أشد من كل ما سمع منذ بدء المعركة .. وأبصر انفجارا شديدا فى الناحية التى تقدمت منها سرية عسران .. وبدا فى الجو خليط من الغبار والدخان .. ثم أبصر عمودا من النيران يتصاعد من إحدى الدبابات .. وتبين من مكانها فى المقدمة .. إنها دبابة عسران .. و لم يتمالك نفسه من الصراخ فى جزع .. وصاح قائلا :

— يا نهار أسود .. دبابة عسران تحترق ..

وأحس كأنما قد طعن فى صميمه طعنة نجلاء .. وأصابه ذهول مفاجىء

أعجزه عن النطق والتفكير .. وظل يحملق من مكانه فى الدبابة المحترقة .. وبدا له أن السرية كلها قد توقفت عندما أبصرت دبابة قائدها تحترق وتتوقف ..

وفجأة صاح مراد بسائق دبابته :

— تقدم وراء السرية الأولى ..

ثم تلفت إلى عبيد صائحا :

— يا عبيد .. لقد احترقت دبابة عسران وتوقفت سريته .. سأتقدم لقيادتها بدله .. وتقدم أنت بسريتك بين السريتين واستمر فى الهجوم ..

ودارت دبابة مراد .. واندفعت إلى أرض المعركة .. لتلحق بسرية عسران .. بين وابل من القنابل والرصاص ..

ووصل مراد إلى دبابة عسران .. فإذا بها فحمة سوداء .. لا أثر فيها لكائن حى ..

وأحس بشىء يعتصر قلبه ويدمى جوفه .. ولكن جحيم المعركة المشتعل حوله لم يترك له فرصة للتفكير أو الحزن .. واستمر فى السير مشيرا لبقية الدبابات أن تعاود التقدم ..

وسارت الدبابات عدا واحدة .. لم تكد تتقدم حتى انفجر فى أسفلها لغم أطار جنزيرها .. فتوقفت عن الحركة .. واستمر مدفعها يصوب نيرانه فجأة تجاه العدو دون أن تستطيع الدبابة التقدم ..

ومضت برهة والدبابات مستمرة فى سيرها .. وسيل من النيران يندفع من فوهات مدافعها ليجيب على الجحيم الصادر من الجانب الآخر ..

وبعد لحظة توقفت دبابة أخرى بعد أن أصيبت فى مقدمها أصابة مباشرة .. ولحظة أخرى .. وتوقفت دبابة ثالثة بعد أن طار برجها ..

وكلما ازداد تقدم الدبابات .. ازداد تساقطها ..

وتلفت مراد حوله .. فإذا بكل الدبابات تقريبا قد توقفت .. ولم يعد

يتقدم منها إلا بضع دبابات ..

وأحس باليأس وهو يتلفت حوله .. وما زالت مدافع العدو تصلى أرض المعركة وابلا من النيران ..

و لم يجد بدا من الانسحاب .. فقد كان التقدم أبعد من هذا ضربا من الجنون .. لا سيما وقد أخذت الألغام تتكاثف من حوله كلما تقدم ..

وأصدر أوامره بالانسحاب .. وأمر سائق الدبابة بالدوران للعودة ..

وسحب السائق أحد عصى الدوران .. وضغط على البنزين ودارت الدبابة نصف دورة .. ثم توقفت ..

وداس السائق على المارش .. فلم يدر ..

وصاح مراد فى حنق وقد انهالت القنابل من حوله :

ـــ مالك .. ماذا حدث ؟..

ـــ المارش توقف ..

ـــ لماذا ..؟

ـــ الكهرباء هربت ..

ـــ هربت ؟..

ـــ أجل ..

ـــ كيف ؟

ـــ لست أدرى .. لا يوجد كهرباء ..

ـــ اضغط على المارش ..

ـــ لا يوجد كهرباء أصلا ..

وأحس مراد أنه يوشك أن يجن .. ووجد أن المدفعجى قد توقف عن الضرب .. والتفت إلى السائق فصاح به :

ـــ استمر فى الضرب .. أيها الغبى ..

وعاود المدفعجى الضرب .. وأطلق بضع طلقات ثم توقف ثانية فصاح به مراد :

ـــ لماذا عدت إلى التوقف .. استمر ..

ـــ لقد نفدت الذخيرة ..

ـــ ما شاء الله .. مدفع بلا ذخيرة .. ودبابة بلا كهرباء !

وأحس مراد بالمأزق الذى وضع فيه .. لقد أضحى سجينا فى دبابة لا تستطيع الحراك ولا تستطيع الضرب ..

ولم يطل به التفكير .. فقفز من البرج وصاح ببقية الطقم أن يغادر الدبابة ..

لقد كان عليهم أن ينجو بجلدهم .. قبل أن يقضى عليهم العدو أو يأخذهم أسرى إذا فكر فى هجوم مضاد ..

ونظر مراد إلى دبابته وقد وقفت عاجزة فى أرض المعركة .. إنها عزيزة عليه .. ولكنه لا يستطيع أن يأخذها معه .. ولا يستطيع كذلك أن يتركها سليمة ليستعملها العدو ..

وفى الموقف اليائس المميت .. أمر مراد الطاقم بالانسحاب على قدميه بعد إحراق الدبابة ..

وبعد برهة انفجرت الدبابة وعلا منها عمود من النيران والدخان ..

وبدأ الطاقم ينسحب زحفا بين الرصاص المنهال حولهم ..

واستمر مراد يزحف .. فى إعياء .. وقد تملكه إحساس بالمرارة وباليأس والذل ..

وكان أكثر ما سبب له المرارة .. هو عودته وحده .. بلا كتيبة .. ولا جنود ولا ضباط .. ولا حتى دبابة ..

الفصل الرابع عشر

انتصـار الحطـام

قطع مراد المسافة إلى رفح سيرا على قدميه .. يتبعه طاقم دباباته عدا واحدا أصابته شظية صرعته خلال الانسحاب زحفا من أرض المعركة .

وأحس مراد بقدميه لا تكادان تقويان على حمله .. كان السهر والمشقة والجهد وطول السير قد أخذت منه كل مأخذ .. وكانت الأهوال التى لاقاها ومرارة الهزيمة التى ذاقها قد هدت قواه وحطمت أعصابه .. حتى بات يخيل إليه وكأن ما مر به .. لم يكن سوى كابوس مزعج .. لن يلبث حتى يفيق منه ..

لم يصدق أن دباباته قد دمرت .. وأن كتيبته بأكملها قد رقدت فى أرض المعركة حطاما وركاما .. وإنه لم يعد من كل قواته المسلحة .. من دباباته ومدافعه وضباطه وجنوده .. إلا وهو .. يسعى أعزل منهارا محطمـا .. كشحاذى الجوامع .. أو أسرى الحرب ..

كان خيرا له ألا يعود .. أن يصرع بشظية من العدو .. أو رصاصة من مسدسه هو ..

ألا يبقى ربان السفينة .. على ظهرها حتى يغرق معها ؟.. لماذا لم يفعل هو ذلك ؟.. لماذا لم يبق مع كتيبته حتى يلقى حتفه ..

ولكن أية كتيبة تلك التى يبقى معها .. إنه لم يكن يرى منها سوى ألسنة نيران وأعمدة دخان .. وأشلاء مهشمة وبقايا محطمة ..

كان جنونا منه أن يلقى بقواته فى هذا الأتون المستعر .. وأن يهجم فى تلك

الأرض المكشوفة ليواجه العدو المستعد بكل ما لديه من أسلحة دفاع ..

ولكن كان عليه أن ينفذ الأوامر ..

لقد كان يعلم من قبل أنها عملية انتحارية ..

ولكن لماذا يقدم على الانتحار ؟.. ولماذا يسوق كل هؤلاء الذين تبعوه ووثقوا به إلى الانتحار ؟..

ــ لقد كان يتوقع الهزيمة .. ولكنه لم يتوقع الفناء ..

كان يمكن أن تحل به الهزيمة .. فيفشل فى الاستيلاء على موقع العدو .. ولكنه يعود بكتيبته بعد أن يفقد بضع دبابات .. ومعها بضعة جنود .. أما أن يفقد الكتيبة بأكملها .. حتى السرية الاحتياط .. التى دفعها بحمق إلى الهجوم بين السريتين ..

كان مندفعا .. إذا تخيل أنه لو ألقى بكل قوته فى عنف وجرأة .. فقد يزعزع دفاع العدو .. ويفقد ثقته بأسلحته .. ويوهمه بأن وراء تلك القوات المهاجمة .. قوات أخرى ..

لقد كانت خطته مبنية على الاندفاع الجنونى ..

وكان يعتقد أن هذا هو المطلوب منه ..

ولكن النتيجة .. كانت بشعة ..

وتصور دبابة عسران .. تأكلها النيران .. ويلفها كوم من الدخان الأسود .. ثم ينحسر كل هذا عن هيكل أسود .. لا أثر فيه لكائن حى ..

وأحس بقواه تخور .. وبدا له أن يرتمى على الأرض .. عندما سمع صوت عربة .. ثم بدت له إحدى عربات المدفعية .. وفتح مراد باب العربة وارتمى بجوار السائق وأشار للجنديين اللذين يتبعانه أن يركبا فى الخلف ..

وقال مراد للسائق فى إعياء :

ــ اذهب بنا إلى رئاسة الدبابات ..

ونظر السائق إلى مراد فى إعجاب .. وقال وهو يدير العربة :

ــ مبروك يا فندم ..

ورمق مراد السائق فى دهشة .. وخيل إليه أنه يسخر به فأجابه متسائلا فى تهكم ومرارة :

ــ على إيه .. يا روح أمك ..

وخذل السائق من لهجة مراد المتهكمة .. وقال فى لهجة أقل أعجابا وأكثر حذرا :

ــ سمعنا أن اليهود طردوا ..

ــ طردوا من أين ؟

ــ من التبة ٨٦ ..

وازداد غيظ مراد .. وعاد يسأل السائق فى حنق :

ــ من طردهم ؟

ــ الدبابات ..

ــ الدبابات ؟ من قال لك هذا ؟..

ــ كل العساكر ..

ولم يجب مراد .. بل أغمض عينيه وازداد إحساسا بالمرارة .. لقد أشاعوا أن الموقع سقط .. والمفروض أن يعود إليهم .. ليتلقى تهنئتهم ..

أى سخرية أشد من هذا .. وأكثر مرارة ..

ليقولوا .. ما يقولون .. لعن الله أباهم .. أجمعين ..

إنه لا يريد أن يرى أحدا .. مطلقا ..

سيأخذ إجازة .. ويذهب إلى الإسماعيلية .. إنه محطم الأعصاب .. ولو مكث لحظة أخرى .. فى هذا الجو .. لأصابه الجنون ..

ووصلت العربة إلى رئاسة الآلاى .. ونزل مراد .. يجر ساقيه .. وهو

يوشك أن يسقط من الإعياء .. و لم يكد يقترب من باب الخيمة .. حتى أبصر اليوزباشى عبد المنعم أركان حرب الآلاى يندفع منها ليحتضنه فى لهفة ويهتف به :

— مبروك يا مراد ..

و لم يحتمل مراد .. فقد كان مفروضا فى أركان حرب الآلاى أن يكون أكثر تحفظا فى تصديق الشائعات .. وأن يكون على بينة أصدق بما فعلته وحداته ..

وكان مفروضا فيه أن يكون أعقل من هذا .. فينتظر حتى يعرف منه المعلومات الصادقة .. بدل أن يندفع هكذا ليعانقه ويهنئه بمجرد شائعات أشاعتها العساكر ..

وضاق مراد بتهنئة عبد المنعم فدفعه عنه فى عنف وصاح به :

— مبروك علام ؟

— على طرد اليهود .. وسقوط الموقع ..

— سقوط الموقع .. ما هذا الهذيان !..

— هذيان ؟

— طبعا هذيان .. وممن ؟ من أركان حرب الآلاى .. المفروض فيه أن يكون على علم بكل شىء .. وأن يكون أول من عرف بالكارثة التى وقعت .. وأن يعد الإمدادات لإنقاذ الكتيبة التى فنيت عن آخرها .. بدل أن يقف هكذا كالمهابيل .. ليقول مبروك .. الموقع سقط .. من قال لك هذا يا حضرة الأركان حرب .. من أين استقيت معلوماتك .. من أى بوليس أدبخانة ؟

ونظر عبد المنعم فى ذهول إلى ثورة مراد وقال دهشا :

— مراد .. ما هذا الذى تقوله .. هدىء أعصابك إن الموقع قد سقط فعلا ..

وازداد مراد حدة وغضبا وصرخ فيه :

ــ كيف سقط ؟.. سقط بالسرايا المحطمة المتناثرة أمام مواقعه .. سقط بالمدافع الصامتة التى نفدت ذخيرتها .. سقط بالدبابات العاطلة .. الفارغة البطاريات .. قل لى كيف سقط .. بالجنود الجرحى التى لا تجد من يضمد جراحها .. بعسران المحترق داخل دبابته .. والذى لا يجد من يعيد إلينا جثته .. قل !.. انطق ؟

وكانت ثورة مراد قد بلغت أشدها .. وعلا صوته وخرج الزبد من شفتيه ..

واندفع قائد الآلاى من داخل الخيمة .. على صوت صياحه .. وأمسك بذراعه يسوقه داخل الخيمة قائلا :

ــ ماذا حدث ؟

ونظر إليه مراد وهو يضغط على ضروسه .. ثم انفجر صائحا :

ــ ألا تعرفون ماذا حدث ؟.. الكتيبة فنيت عن آخرها .. معظمها احترق وتدمر .. والبقية .. لا بد أن تكون الآن فى أيدى العدو .. وأنتم تجلسون هنا لتقولوا .. مبروك .. الموقع سقط .. ألف مبروك .. نحن نفنى .. وأنتم هنا تتبادلون التهانى .. وطبعا أرسلتم للقيادة بالأنباء السارة .. والقيادة .. أرسلت إلى الباشوات الذين يجلسون فى كوبرى القبة .. وغدا يقرأ الناس أنباء انتصاراتنا .. وبعد هذا تسألنى ماذا حدث ؟

ونظر إليه قائد الآلاى فى هدوء وربت على كتفيه قائلا :

ــ اجلس .. أنت متعب ..

وصاح مراد :

ــ لن أجلس .. لا أريد أن أشتغل معكم .. اخرجوا أنتم لتعرفوا ما حدث .. اخرجوا .. لتفعلوا شيئا .. لتنقذوا بقية الدبابات من براثن العدو .. لتنقذوا

جرحانا .. لتسحبوا جثثنا .. بدل أن تجلسوا لتصدقوا شائعات العساكر .. وتقولوا أن الموقع قد سقط ..

واستمر قائد الآلاى ينظر إلى مراد نظرته الهادئة .. الصابرة .. ثم عاد يربت على كتفيه قائلا فى منتهى الهدوء :

ـــ اجلس يا مراد .. استرح .. هدىء نفسك .. إن الموقع قد سقط فعلا ..

ونظر إليه مراد وقد جحظت عيناه وبلغ غيظه أشده وصاح به :

ـــ من قال هذا ؟

ـــ أنا .. أنا أقوله ..

ـــ من أبلغك ؟

ـــ أبلغتنى عيناى .. وليس بوليس الأدبخانة كما تقول .. إن الموقع قد سقط .. انسحب منه اليهود .. واحتلته أورطة مرسى .. ودباباتنا ترابط الآن فيه فعلا .. حتى تتسلمه المشاة .. أتأكدت أنه سقط .. اجلس .. اجلس واسترح .. أنك متعب ..

وارتمى مراد على أقرب كرسى وأسند رأسه بكفه وأخذ يضغط عليه بعنف وعصبية .. كأنه يحاول أن يوقظ نفسه من كابوس ثقيل .. ثم رفع عينيه إلى القائد وتساءل فى دهشة :

ـــ غير معقول .. إنى لا أصدق .. كيف حدث هذا ؟ .. لقد تركت الكتيبة محطمة أمام مواقعه ..

ـــ لقد حطمت بعد أن دمرت معظم أسلحتهم .. وبعد أن هزت دفاعاتهم .. وضربتهم ضربة قاسية وتركتهم منهوكى القوى .. وعندما قامت كتيبة مرسى بالالتفاف من الجنوب والشرق وأشرفت على مواقعهم .. أصابهم الفزع .. بعد أن ظنوا أنهم قضوا على هجومنا الأصلى وأنهوا المعركة .. و لم

يحاولوا الدخول معنا فى معركة أخرى .. احتللنا التبة بكتيبة مرسى دون أن يطلقَ طلقة واحدة ..

وفغر مراد فاه .. وبدا عليه الذهول وهو يستمع إلى قائد الآلاى .. وعاد يردد قوله .. وكأنما يحدث نفسه :

ـــ احتللتم التبة .. دون أن تطلقوا طلقة واحدة .. وفقدت أنا كتيبتى .. وعدت ماشيا كالمتسول .. دون أن أحتل شيئا ..

وقال عبد المنعم وهو يربت على كتفه فى رفق :

ـــ لا تقل هذا .. إننا لم ننتصر إلا بفضلك ..

وبدا كأن مراد لم يسمع شيئا من حديثه .. واستمر يردد بلهجته الشاردة :

ـــ لقد تركت دباباتى محطمة .. وجنودى أشلاء .. وعسران محترقا .. وعدت كالشريد .. الهائم .. الضائع ..

وقال البكباشى منصور فى لهجة حازمة :

ـــ قد أرسلت إليهم الإسعاف والمؤونة من غزة .. وضباطك بخير وعسران سيوضع فى سجل الشهداء الخالدين .. ونحن قد انتصرنا ..

وأجاب مراد فى عصبية وحدة :

ـــ نحن ؟ .. من نحن ؟ .. الذين ركبوا الدبابات وساروا كأنهم فى نزهة ..

وحاول قائد الآلاى أن يخفى انفعاله وأجابه فى هدوء :

ـــ نحن جميعا .. آلاى الدبابات .. الذى نعمل فيه كلنا .. من أقل عسكرى إلى أكبر ضابط .. إن انتصار أحدنا .. انتصار للآخرين .. لقد انتصر الآلاى .. وعندما ينتصر الآلاى نكون كلنا قد انتصرنا .. وتكون أنت قد انتصرت ..

ـــ أنا لم أنتصر .. لقد كنت كبش الفداء .. لقد دفعت كتيبتى إلى الفناء

.. ودفعتنا إلى الانتحار ..

ـــ أنت الآن متعب .. ويجب أن تستريح وتريح أعصابك .. وعندما تهدأ ستعرف أنك انتصرت .. وسيذكر الناس أنك أديت واجبك ..

ـــ لن يذكر الناس إلا أنني عدت هائما على وجهي بعد أن أحرقت دبابتي .. وحطمت كتيبتي .. سيذكر الناس أن قائد كتيبة الدبابات الأولى عاد سائرا على قدميه .. بعد أن مزق العدو كتيبته إربا .. وسيذكر الناس أنك ومرسي قد طردتما اليهود .. هذا هو ما سيذكرونه .. لقد كنت تعرف النتيجة سلفا .. ولذلك ذهبت مع مرسي .. و لم تذهب معي .. ولو كنت شجاعا لذهبت معي .. ولكنك كنت تريد قتلي .. لأنك تكرهني ..

وتدخل عبد المنعم مقاطعا :

ـــ مراد .. ما هذا الذي تقوله .. لا تدع أعصابك تخونك .. وتندفع في الخطأ ..

ونظر إليه قائد الآلاي مليا وقد بدا عليه غضب مكتوم وقال :

ـــ أنت تتحدث وأنت في غير وعيك .. ولن أؤاخذك على شيء مما تقول .. تفضل الآن .. وعد إليّ عندما تكون أهدأ حالا ..

ـــ لن أعود إليك .. سأطلب نقلي ..

ـــ سأمنحك إجازة تستريح فيها .. وأنا واثق أنك ستعود إلى صوابك ..

ومد عبد المنعم يده فسحب مرادا من ذراعه قائلا :

ـــ هيا يا مراد .. يجب عليك أن تستريح ..

ـــ لن أستريح حتى أنقل من هذا الآلاي ..

ـــ ليس هذا وقت نقل .. إن كتيبتك في حاجة إليك ..

ـــ لم تعد لي كتيبة ..

ـــ بل ستعود كما كانت .. وخيرا مما كانت ... كل خسائرك ستسد ..

وسيعوض لك كل النقص فى الدبابات والعربات .. هيا بنا .. لا تستسلم للغضب واليأس ..

وخرج مراد من الخيمة مع عبد المنعم وركب الاثنان إحدى عربات الجيب وقال عبد المنعم :

— أتريد أن تذهب إلى العريش ..؟

ولم يجب مراد .. وبدا عليه الشرود .. وعاد عبد المنعم يقول :

— يجب أن تستريح فترة من الوقت .. وأؤكد لك أن كل شىء سيعود كما كان .. سأذهب معك الآن إلى العريش .. ما رأيك ؟

وقبل أن يسمع إجابته قال للسائق :

— اذهب بنا إلى العريش ..

وأدار السائق العربة .. وقبل أن يتحرك قال مراد :

— مر بنا على الكتيبة أولا .. حتى أحضر ملابسى ..

ووقفت العربة أمام الكشك الصاج .. وهبط مراد منها ودلف إلى الداخل ..

وألقى على الكوخ نظرة سريعة شاملة .. ثم استقر بصره على فراش عسران ..

وتذكر صاحب الفراش .. تذكر جرأته .. ومجونه ومرحه .. تذكر قوامه الطويل ووجهه الأسمر .. وتذكره وهو ينشد (عطشان يا صبايا) ثم تذكر آخر ما رآه منه وهو يخطف الزمزمية .. ويندفع إلى دبابته صائحا « جون هيج برأس بن جوريون » ..

لن يراه .. بعد الآن ..

ما أسرع ما ينتهى الإنسان ..

فى لحظة يكون .. وفى اللحظة التالية يختفى ..

الفاصل بين أن يكون .. وألا يكون .. لحظة واحدة ..

كان يمكن أن تأخذ نهاية الإنسان وقتا أطول ..

هذا الكائن الضاحك الصاخب المتحرك المفكر .. الذى يفعل أشياء كثيرة .. كان يجب ألا ينتهى بهذه الطريقة الخاطفة .. كان مفروضا أن يكف عن كل أفعاله الكثيرة شيئا فشيئا ..

ومد مراد يده ليتناول بدلة الميدان من فوق المشجب فوجد تحتها بدلة عسران .. لقد سبق أن نبهه دائما ألا يستعمل مشجبه .. وتحسس مراد البدلة .. وأحس بكل مشاعره الجامدة تذوب .. وبأعصابه المتوترة تتحلل .. وبدموعه تنحدر من مآقيه .. وإذا به يندفع فى نوبة بكاء .. كأنه طفل ..

ودخل عبد المنعم وأمسك به يخرجه من الكوخ .. وقبل أن يصل إلى بابه تلفت خلفه .. وقال فى صوت يخنقه البكاء وهو يشير إلى فراش عسران :

ـــ لقد زادت الفراشات الخالية واحدا ..

الفصل الخامس عشر

ومض البـرق

وصل مراد إلى بيت العريش .. منهكا .. محطما ..

و لم تكن غيبته قد طالت أكثر من سواد الليل ونصف النهار .. ومع ذلك بدا له وهو يقبل على البيت كأن دهرا قد مضى ما بين تركه للدار ليلة أمس وعودته إليها ظهيرة اليوم ..

وكأنما قد ساءه بعد الليلة الليلاء الحمراء ــ حمراء فعلا لا مجازا ــ وبعد الدمار الذى أمضى فيه ليلته .. أن يجد البيت على حالة من السكينة والهدوء .. وعدم الإحساس بالأهوال التى مر بها .. فتملكه نحو أهله نفس الشعور العدائى الذى تملكه لقائده .. والذى أحس به لكل من حوله من الأحياء المنعمين أو شبه المنعمين .. وداخله إحساس بأن لا شىء يستحق التضحية .. وإن الاستشهاد سخافة .. والفداء حماقة .. والبطولة خبل ..

وكان أول من لقيه من أهل البيت .. نهى .. بجسدها النحيل وعينيها الواسعتين ووجهها الشاحب وضفائرها المجدولة المدلاة على كتفيها .

كانت تجلس على حجر فى مدخل البيت .. ونهضت لتحيته حين مر بها .. وبدا لها من مظاهر الإعياء البادية عليه والغبار الذى علا جسده إنه لم ينم ليلته .. وإنه أتى عملا شاقا مرهقا ..

وودت لو سألته عما فعل .. ولكنها كانت تخشاه وترهب الحديث إليه ..

لو أن إبراهيم هو الذى ذهب .. وخاض غمار معركة .. وعاد مرهقا متعبا .. لأقبلت عليه فى لهفة .. وسألته عما فعل .. وكيف قاتل اليهود .. وكيف

مهد لها طريق العودة ..

ولكن إبراهيم لا يذهب للقتال .. ولا يخوض غمار معركة .. ولا يفعل شيئا غير التطلع إلى وجه ليلى .. والحديث معها ..

ومر بها مراد .. ورمقها بنظرة خاطفة ثم تساءل :

ــ من بالداخل ؟

ــ السيدات .. إنهن ينتظرنك على الغداء ..

ــ ينتظرنني أنا ؟ كأنما قد ذهبت فى نزهة .. لقد كان مفروضا ألا أعود ..

ــ حمدا لله على السلامة ..

ــ أى سلامة ؟.. لقد عدمنا ..

ــ ولماذا لم تعدموهم أنتم ؟..

ــ لماذا ؟.. والله لا أعرف .. لا أعرف لماذا لا نقتل هؤلاء الكلاب ونفنيهم عن آخرهم .. بل لا أعرف لماذا تركتموهم يطردونكم من دياركم .. لماذا لم تطردوهم أنتم .. وتريحونا ..

ــ لم يكن معنا سلاح ..

ــ كان يجب ألا تتركوا بيوتكم أو تموتوا فيها .. لو أنكم كلكم بقيتم هناك .. لعرفتم كيف توجدون بينهم طابورا خامسا .. أو مقاومة شعبية تسهل عمل من بالخارج .. ولما تركتمونا نعمل الآن كأننا نحاول أن نغزو دولة معادية .. بدل أن نستعيد وطنا مغزوا ..

وطأطأت نهى رأسها وهى تسير بجواره .. وأحست بشىء من الضيق والألم .. لم تفهم الطابور الخامس أو المقاومة الشعبية .. ولكنها فهمت ما يقصد .. وأحست أنه على حق .. ولو كان الأمر بيدها لما هربت .. بل لفضلت الموت فى ربوتها وعلى دربها وتحت كرمها ..

ولكن ماله يتحدث بقسوة هكذا .. كأنما هو خصم للناس كلهم ..

وكأنه يود أن يقاتل الجميع ..

إن إبراهيم لا يفعل هذا أبدا .. إنه يعطف عليها بلا لوم .. ويحنو عليها بلا تأنيب وتقريع .. ولو خرج ليقاتل .. لعاد مرحا بشوشا ..

ولكنه للأسف .. لا يقاتل .. بل يجلس للحملقة فى ليلى ..

ومرة أخرى أحست بنفور من ليلى .. إنها رغم كل ما بها من فضائل ومزايا .. لا تحبها ..

ومهما حاولت أن تستر هذا الشعور .. الذى لا يغلب عليه الحب .. فهى تضيق بها .. وباستحواذها على اهتمام إبراهيم ..

وعبر مراد الباب إلى الداخل .. ووراءه نهى ..

وجد السيدتين قد جلست إحداهما قبالة الأخرى .. مديحة كعادتها منهمكة فى عمل التريكو .. وليلى تلاعب الصغيرة نادية ..

ولم ينهض لاستقباله أحد .. لقد قوبل كما يقابل كل يوم .. لقد رجع فى نفس الموعد .. وغياب الليل لم يكن أمرا غير طبيعى .. فقد تعودته منه فى بعض الأحيان ..

لم يبد على أحد أنه شعر بما لاقاه .. بالمعركة التى خاضها .. وبالمشقة التى عاناها .. وبالموت الذى واجهه ..

رفعت ليلى إليه بصرها .. ودون أن يبدو على وجهها أى تعبير .. قالت :

ـــ أهلا ..

ولم تكلف مديحة نفسها مشقة رفع عينيها .. لفحصه .. فقد ميزته بخطواته .. وكفتها أذناها مشقة التطلع .. وقالت :

ـــ كيف الحال ..

ونظر إليها مراد فى حنق مكبوت وقال فى سخرية :

ـــ رضا .. كانت سهرة رائعة ..

وقبل أن يستمر فى سخريته .. أحس من ورائه وقع أقدام إبراهيم وسمع صوته .. وهو يدلف من الباب ويرحب به فى حماس :

— أهلا مراد .. حمدا لله على السلامة ..

— الله يسلمك ..

— مبروك ..

— الله يبارك فيك ..

— سمعنا أنكم استرددتم التبة ٨٦ .

— أنا أيضا سمعت هذا ..

— سمعت ؟ المفروض أنك فعلت .. لا سمعت .

— المفروض ..

— لست أفهم ما تقصد .. لقد قالوا أنكم استرددتموها .

— جائز ..

— جائز ؟! ألست متأكدا .. إن الدبابات هى التى استردتها ..

— جائز أيضا ..

— كيف ؟.. ألم تخرج بكتيبتك لاستردادها ..

— خرجت ..

— وماذا فعلت ..؟

— لم أستردها ..

— هل التبة فى أيدى اليهود حتى الآن .. لقد طلبوا منى إرسال فصيلة لإصلاح الطريق هناك .. فكيف أرسلها إذا كنتم لم تستردوها ..

— لقد قلت إنى لم أستردها أنا ..

— من الذين إستردها إذن ..

— الكتيبة الأخرى .. لقد كنت مخلب قط .. احترقت أنا .. وأكلتها

هى ..

— هى أو أنت واحد .. المهم أن التبة استردت .. وإنكم أنتصرتم ..

وبدت لهجة الحدة فى صوت مراد .. وبدأت ثورته المكبوتة تنفجر :

— لم أنتصر .. لم أشعر بالانتصار .. لقد حطم الكلاب دباباتى ودمروا كتيبتى .. وقتلوا جنودى وضباطى وعدت سائرا على قدمى كالشريد .. فكيف أشعر بالانتصار .. الانتصار هو أن تشعر أنك اقتصصت لنفسك .. ورأيت مصرع عدوك أمام عينيك .. أن تمزق جلده .. وتمص دمه .. أن تمزقه إربا .. وتحس أنك فعلت به أضعاف ما فعل بك .. هذا هو الانتصار ..

وضحك إبراهيم وأجابه قائلا :

— أنت تريد انتصارا فى قتال الغاب .. تريد انتصارا خاصا .. لا انتصارا للمجموعة التى تحارب فيها .. إن هزيمتك قد تكون جزءا من الانتصار العام .. فلا تكن أنانيا ..

وصمت إبراهيم برهة ثم أردف فى مرح ..

— هيا بنا نأكل .. لا بد أنك جائع .. إن أكلة دسمة .. وحماما ساخنا .. ونومة مريحة .. ستعيد إليك الطمأنينة والثقة ..

سأمنحك كأسا من الويسكى يهدىء أعصابك .. وبعد الغداء ادخل الفراش وأغمض عينيك ولا تستيقظ إلا غدا .. هيا ..

وارتمى مراد على المقعد فى إعياء قائلا :

— لن أستحم ولن أنام .. سأتناول لقمة ثم أذهب ..

وتساءلت ليلى فى شىء من الدهشة :

— إلى أين ؟

— إلى الإسماعيلية ..

— ولمه ..؟

ـــ عندى مأمورية لا بد أن أؤديها ..

ـــ مأمورية وأنت فى هذه الحال ..

ـــ ماذا بى .. ما زلت حيا أرزق .. لم أنقص يدا ولا ساقا ..

وتدخلت مديحة لأول مرة فى المناقشة قائلة :

ـــ ولكنك فى حاجة قصوى إلى الراحة ..

ـــ سأستريح فى الإسماعيلية ..

ـــ ولماذا لا تستريح الليلة وتذهب فى الغد ..؟

ـــ لأن المهمة عاجلة ..

وعلق إبراهيم فى سخرية ..

ـــ عاجلة جدا ؟

وأجاب مراد فى اصرار ..

ـــ جدا .. جدا .. وإذا لم تكفوا عن تدخلكم فسأذهب بلا طعام ..

وقالت ليلى فى استخفاف :

ـــ كأنك ستأكل لنا .. افعل كل ما يحلو لك .. لن يتدخل أحد فى أمرك .. فأنت أدرى به ..

ورد مراد فى حدة وكأنه يوشك على الدخول فى معركة :

ـــ ومن طلب منك أن تتدخلى فى أمرى .. ومنذ متى كان أمرى يعنيك .. أنت ..؟

وقاطعه إبراهيم :

ـــ انتهينا .. لا داعى للمناقشة غير المجدية .. هيا نأكل وبعدها افعل ما يحلو لك ..

وانتهوا من الطعام.. وغادر المائدة فى صمت.. ولم يمكث مراد أكثر من بضع دقائق غسل فيها وجهه وأبدل ملابسه ، ثم انطلق بالعربة الجيب إلى

الإسماعيلية ..

وعادت السكينة إلى الدار مرة أخرى ..

وعادت مديحة إلى جلستها أمام المدفأة وأصابعها تعمل بالإبرتين الطويلتين .. وجلست ليلى أمامها تتشاغل بتصفح كتاب . وعيناها ترمقان باب حجرة إبراهيم بين آونة وأخرى ..

وأخيرا ظهر إبراهيم وقد ارتدى جاكتة قصيرة من الجلد وتساءل :

ــ ألا يريد أحد منكما السير على الشاطئ ..؟

أجابت ليلى مرحبة بالفكرة :

ــ و لم لا .. هيا يا مديحة ..

وردت مديحة فى استنكار :

ــ الآن .. وفى هذا البرد ؟

وأجاب إبراهيم :

ــ الجو فى الخارج أدفأ من هنا .. وجلسة العجائز هذه ..تجمد الأطراف .. هيا بنا ..

و لم تتحرك مديحة .. ونهضت ليلى موافقة وهى تقول :

ــ هيا يا مديحة ..

ــ إذهبى أنت معه ..

ــ ونتركك وحيدة ..

ــ سأجلس مع نادية ونهى ..

ــ بل سأجلس أنا معكم ..

ــ لا داعى لأن تضايقى نفسك ..

وأردف إبراهيم :

ــ لن نغيب كثيرا .. هيا يا ليلى .. إن مديحة متعودة على الجلوس

البيت ..

وبدا التردد على ليلى ولكن إبراهيم جذبها من ذراعها . وخرج الاثنان إلى الشاطىء .. ولم يبد على ملامح مديحة الجامدة أى علامات للضيق ..

وكانت مديحة قد آلت على نفسها ألا تضيق بشىء .. كانت كبرياؤها تمنعها من أن تحس بأن هناك مبعثا للضيق .. كانت تحاول أن ترى فى كل ما بين ليلى وإبراهيم من مظاهر انسجام ومودة .. أمرا طبيعيا يجب أن يكون بين مضيف وزوجة ضيفه ..

وإبراهيم مخلوق مهذب .. وليلى إنسانة مهذبة .. والمفروض أن يكون بين الناس المهذبين مودة ورقة .. واستلطاف ..

وحتى إذا زاد ما بينهما درجة .. عما يجب أن يكون ما بين الضيف ومضيفته .. فماذا يمكن أن يؤدى إليه ذلك ..

ما أقصى ما تخشى أن يحدث فى بضعة أيام .. ستمر بالطول أو بالعرض .. وبعدها يفترق كل منهما إلى حيث لا لقاء ..

المسألة تحتاج إلى بعض الصبر .. والبرود والأعصاب .. وهى والحمد لله لا تفتقر إلى شىء منها .

لقد أوشك الأسبوعان المفروض أن تمكثهما ليلى على الانتهاء .. وكانت تتوقع أن يعود بها مراد عند عودته هذه المرة .. ولكنه ذهب إلى الإسماعيلية دون أن يذكر شيئا عن سفرها إلى مصر .. ولم يكن من المعقول أن تسأله مديحة لماذا لا يأخذها معه .. والمسافة بين الإسماعيلية والقاهرة غير بعيدة .. على أى حال .. لابد لها من الصبر والهدوء .. والحذر من أن تبدر منها بادرة ضيق .. فهى أدرى بإبراهيم وبمركب العناد فى نفسه .. إذا ما أحس أن شخصا يحاول أن يمنعه من شىء .. أو يجذب منه شيئا ..

إن خير ما يعالج به المسألة هو الاستخفاف والتجاهل ..

والمسألة بعد كل هذا .. ليست مسألة .. إنها مجرد دردشة ورغى بين الاثنين .. واشتراك فى التفاهة .. والخفة .. سينتهى برحيلها ..

المهم أن ترحل ليلى .. قبل أن تضطر مديحة للرحيل .. فليس من اللياقة والأصول .. أن تبقى ليلى فى منزل رجل وزوجته غير موجودة .. وموعد مدرسة نادية قد حل .. وفات وهى متجاهلة .. حتى تسافر ليلى ..

وهى قد تستطيع الرحيل .. لو أن مراد موجود .. ولكن ذهابه إلى الإسماعيلية .. قطع عليها كل تفكير فى العودة إلى القاهرة .. فليس من المعقول أن تسافر وتترك ضيفتها وحيدة مع زوجها .. إن هذا ليس من الذوق .. ولا من العقل ..

لا بأس .. قليل من الصبر يحل الموقف ..

يوم أو يومان ويعود مراد .. ويرحل بها إلى القاهرة .. وإذا لم يرحل .. فهو على الأقل سيبقى .. مع زوجته ..

وهو قبل كل شيء .. زوج ومسئول عن زوجته ..

ولكن .. لماذا تقول .. كل هذا ؟

ماذا حدث ..؟

إن مأخذا واحدا .. لا تستطيع أن تأخذه على إبراهيم أو ليلى .. ليس بينهما كلمة واحدة .. يجب ألا تقال .. أو تصرفا واحدا يجب ألا يفعل ..

كل ما بينهما ليس إلا مظهرا من مظاهر الذوق والرقة .. وبينها وبين نفسها .. هذا ما يغيظها ..

لو أن بينهما شيئا يؤخذ .. أو مغمزا يلام عليه .. لاستطاعت أن توقفه .. لاستطاعت أن تلوم وأن تغضب ..

وبمثل هذه الأفكار استمرت أصابعها تروح وتجيء بالإبرتين الكبيرتين .. وعلى مقربة منها بجوار النافذة الكبيرة كانت تجلس الفتاة النحيلة .. ترمقها

بعينيها الواسعتين ..

والتقت النظرتان ثم افترقتا .. وأحست مديحة بضيق من عينى الفتاة .. لقد خيل إليها أنها تستشف ما فى ذهنها ..

هذه الفتاة الصامتة .. تعرف ما يدور برأسها .. وما يدور برؤوس الآخرين .. إنها تعرف كل ما تحويه نفوس أهل هذا البيت ..

وهى لا تحبها .. ولا تعرف ماذا ستفعل بها بعد رحيلها .. لقد قال إبراهيم إنه سيبقيها .. وهو يدللها كثيرا .. تدليلا لا مبرر له .. وهو فى غير حاجة إليها .. وهى ليست صغيرة لكى تبقى مع رجل متزوج يعيش وحده ..

إن إبراهيم عاقل .. ولكن الناس ألسنتهم طويلة ..

لماذا لا يعيدها إلى المعسكر ؟..

ومرة أخرى عادت مديحة ترمق نهى ..

وكانت نهى تسبح ببصرها فى الخارج .. لترقب شبحين يسيران الهوينا على شاطىء البحر .. وراء النخيل ..

كانا يبدوان .. متلائمين منسجمين ..

عجيبة هذه الدنيا ..

لماذا تخطىء فى التوفيق بين الأشخاص .. أهى وسيلة من القدر لإثارة الخطايا .. وخلق الذنوب ..

ما ضره لو ألقى بالاثنين فى طريق واحد قبل ..

إنهما متجانسان .. متشابهان .. متقاربان فى كل شيء .. وبنفس كل منهما للآخر شيء .. مهما حاولا إخفائه أو تحويره .. ومهما حاولا أن يسمياه .. فهو أولا وآخرا .. حب ..

وتلك الجالسة فى صمت وهدوء .. ترقب كالصقر .. إنها تفهم كل شيء ..

كل إنسان فى هذا البيت يفهم .. ولكنه يتجاهل .. لأن الفهم يخيفه ..

مخلوق واحد لا يفهم .. لأنه لا يحاول أن يفهم .. هو هذا المقاتل .. الصاخب العربيد .. المخاصم لكل إنسان .. الثائر على كل شىء .. الذى لا يرى فى الحياة إلا لقمة تؤكل .. وكأسا تشرب .. وجسدا يحتضن ..

وعادت نهى تتبع ببصرها الشبحين السارين على الشاطىء ..

وانحدر الشبحان ليختفيا وراء الربوة ..

ومست أصابعه أصابعها .. فتوقفت الذراعان المهتزتان وتشابكت الأصابع .. وسرت فى الجسدين هزة .. وأطبق الكف على الكف ..

وهمست ليلى وهى ترقب مغرب الشمس وسط السحب الحمراء :

ـــ غروب الشمس جميل ..

ـــ والشروق جميل ..

ـــ والبحر جميل ..

ـــ والسماء جميلة ..

ـــ وأى شىء حولنا ليس جميلا !

ـــ وددت لو داومنا المسير ..

ـــ بلا عودة !!

ـــ وددت أشياء كثيرة .. لا أستطيع نطقها ..

ـــ وأنا وددتها مثلك ..

ـــ وأحسست بالذنب .. لمجرد الرغبة فيها ..

ـــ ولكنى لم أحسه .. ألا يكفى أن نحرم من الإفصاح حتى تود حرماننا من التفكير ؟ دعنا نحلم .. ونحلم .. فليس أمام المحروم إلا أحلام اليقظة .. إنها هنيهات مضيئة أشبه بومض البرق .. فلماذا تريد أن نغمض أعيننا عنها ..؟

ـــ أخشى أن يخطف الومض بصرنا ويتركنا بعدها فى ظلمة مخيفة .. لا نستطيع أن نبصر حتى الأشباح التى كنا نعيش فيها ..

الفصل السادس عشر

ثـورة مظـلوم

وقف مراد أمام مصعد العمارة التى تقطنها ريتا فى الإسماعيلية وقبل أن يجتاز الباب قال للبواب محذرا :

ــ اسمع يا عم محمد .. لقد مضى على ٤٨ ساعة لم أذق خلالها النوم .. فإذا كنت تنوى أن تؤذن الفجر .. فأذنه الآن .. الله لا يسيئك .

ــ نحن الآن فى منصف الليل ..

ــ ولو .. أذنه مقدما .. وإلا فقسما بالله العظيم ثلاثا .. لن ينقذ عنقك من أصابعى أحد .. إذا كنت تصر على الأذان فصل ركعتين على روحك قبل أن تؤذن .. لأنى سأقتلك .. مفهوم ؟

وضحك عم محمد قائلا :

ــ مفهوم يا سعادة البيه .. لن أؤذن وذنبى فى رقبتك ..

ــ فى رقبتى .. فى رقبتى .. دع حسابه لى .. سأضيفه إلى بقية ذنوبى .. يحلها ربنا يوم القيامة .. المهم أن تدعنى أنام الليلة ..

ودخل مراد المصعد .. واتكأ على بابه منهكا .. ثم ضغط الزر الرابع ..

وأخذت الأبوات تتوالى أمام عينيه حتى توقف المصعد .. واتجه مراد إلى باب فى مواجهته مباشرة .. وكان تعبه قد بلغ أقصاه .. ووقف أمام الباب يدق الجرس .. وانتظر برهة فلم يسمع وقع خطوات ولا إجابة .. وعاد يرن الجرس بطريقة أكثر عنفا وأشد إلحاحا .. ولكن الصمت استمر مخيما .. وبدأ مراد يحس بالضيق والغضب .. ومد قبضته يدق بها الباب فى حدة .. حتى

كلت قبضته ..

وتلفت حوله فى يأس وهو يهز الباب فى عنف .. أين ذهبت هذه الحيوانة ؟ غير معقول أن تكون نائمة مع كل هذا الدق .. لعلها لم تعد بعد .. ولكن لماذا لا تفتح الخادمة ..

لعنة الله عليها .. إنه يريد فقط أن ينام .. يريد فراشا دافئا .. وهز الباب هزة أخيرة .. ثم اتجه إلى المصعد وكان ما زال معلقا .. فهبط به وهو يكاد يسقط إعياء ..

لماذا يأبى النحس أن يفارقه ؟..

ألا يكفى ما حدث له فى الميدان ؟..

لقد كان يمنى نفسه .. بحضن لين دافىء .. وعشاء دسم .. ولكنه بات الآن لا يكاد يحصل على مستقر لجسده .. حتى لكأن القدر يصر على أن يتركه يقظا ..

والعربة قد صرفها وأمر سائقها بالذهاب إلى المنطقة ..

ووقف فى فناء العمارة ينظر حوله فى يأس .. واتجه إلى حجرة عم محمد .. وطرق بابها .. وخرج إليه الرجل يتساءل فى دهشة :

ــ أى خدمة يا سعادة البيه ..

ــ أين مدام ريتا ؟..

وبمنتهى البساطة أجابه الرجل :

ــ سافرت ..

ــ إلى أين ؟..

ــ إلى بلدها ..

ــ ولماذا لم تخبرنى ؟..

ــ لأنك لم تسألنى ..

ــ غبي .. أهذا أمر يحتاج إلى سؤالك .. ألا تعرف أنى .. صاعد إليها ..

ــ أعرف أنك صاعد إلى مدام ريتا .. أى ريتا .. أتظن أن لدينا فى العمارة ريتا واحدة !..

ــ أتمزح يا عم محمد ..

ــ لا والله يا سعادة البيه .. العمارة كلها هكذا .. إنى أؤذن .. فى مالطة ..

ــ وما العمل الآن .. إنى أريد أن أنام ؟..

ــ لو كانت حجرتى قدر المقام لأخليتها لك ..

ــ ألا تستطيع أى ريتا أخرى أن تستضيفنى ؟..

ــ فى مثل هذا الوقت يا سعادة البيه ..؟

ــ ولم لا .. سواد الليل فقط ..

وصمت عم محمد برهة .. ثم رفع رأسه قائلا :

ــ تعال .. سنطرق شقة مدام فيكى .. إن لديها حجرة تريد أن تؤجرها ..

ومرة أخرى عاد مراد إلى المصعد فى رفقة البواب .. وضغط الرجل على الزر السادس واتكأ مراد على جدار المصعد وأغمض عينيه ونام ..

وتوقف المصعد .. وفتح الرجل الباب .. وانتظر أن يخرج مراد .. ولكنه لم يتحرك .. ونظر إليه فوجده قد أغمض عينيه فهتف به :

ــ اتفضل يا سعادة البية ..

ونفض مراد رأسه ثم سار وراء البواب حتى توقف أمام أحد الأبواب .. وقبل أن يدق الجرس التفت إليه فجأة قائلا :

ــ مدام فيكى عمرها سبعين سنة يا سعادة البيه ..

ــ سبعين .. ثمانين .. أليس عندها فراش ؟..

ــ إنى أحذرك فقط .. الشرط نور ..

ــ إنى أريد أن أنام .. يا عم محمد .. لقد مضى علىّ يومان بلا نوم

.. فاهم ؟..

ودون أن يرد الرجل مد يده فدق الجرس .. ومضت برهة قبل أن يسمع وقع أقدام متثاقلة توقفت وراء الباب .. ثم علا صوت رفيع يتساءل فى حذر :

ـــ مين ؟

ـــ أنا يا مدام فيكى ..

ـــ أنت مين ؟

ـــ عم محمد ..

ـــ ماذا تريد فى هذه الساعة ؟

ـــ لدى مستأجر للحجرة ..

ـــ فى منتصف الليل ؟.. دعه يأتى فى الصباح ..

ـــ إنه لا يجد مكانا ينام فيه .. ويريد أن يستأجرها من الليلة ..

وساد الصمت برهة .. ثم سمع صوت دوران المفتاح وفتح الباب فى حذر .. وأطل وجه نحيل ملىء بالتجاعيد .. وعندما وقع بصرها على مراد بملابسه الرسمية فتحت الباب فى اطمئنان وقالت مرحبة :

ـــ أهلا وسهلا .. تفضل ..

ودخل مراد مترنحا .. وعيناه شبه مغمضتين .. واستمرت العجوز فى ترحيبها :

ـــ أهلا وسهلا .. اتفضل يا كابتن .. الحجرة ستعجبك جدا .. إن بها نافذة تطل ..

وقاطعها مراد بقوله :

ـــ أين الفراش يا مدام .. إنى لا أريد أن أطل على شىء .. أريد فقط أن أنام ..

واجتاز مراد باب الحجرة .. ووقعت عيناه على الفراش .. وبعد دقيقة

واحدة .. كان ملقى عليه يغط فى نومه .. تاركا العجوز تحدث نفسها ..

وعندما فتح عينيه .. كانت الشمس تملأ الحجرة .. وظل برهة يحملق فيما حوله .. دون أن يدرى أين هو .. حتى استطاع أن يذكر مدام فيكى ..

ونظر إلى الساعة فى معصمه فإذا بها العاشرة ..

وتمطى .. وفرك عينيه .. وأخذ يفكر فيما يمكن أن يفعله فى الإسماعيلية .. وأى مغامرات يستطيع أن يضيع فيها بضعة أيام .. دون ريتا .. وقبل أن يستقر على رأى .. سمع وقع خطوات تسير خارج الحجرة ..

لم تكن خطوات متثاقلة .. كخطوات مدام فيكى .. بل كانت خطوات أسرع وأخف .. جعلته يستبشرا خيرا .. ودفعته إلى أن يقفز من الفراش ويفتح الباب ليرى صاحب الخطوات .. أو صاحبتها .. كما كان يأمل ..

فتح الباب .. وبدل أن يبصر جسدا أهيف غضا .. أبصر جسدا ضخما .. ورأسا أصلع .. استطاع أن يميز منه .. من ظهره .. الصاغ عبد العاطى .. زميله فى الفرسان والقائد السابق لكتيبته .. والمنتدب بإدارة كاتم أسرار .. وهتف مراد بلا إرادة :

— عبد العاطى .. يخرب بيتك .. ماذا أحضرك هنا ؟

وتلفت عبد العاطى فى ذهول .. و لم يكد يقع بصره على مراد حتى صاح به فى دهشة أشد :

— مراد ؟.. ماذا أحضرك أنت .. فقد ظننتك فى أرض المعركة ..

— لقد انتهينا من المعركة ..

— مبروك .. لقد كانت عملية رائعة ..

— الله يبارك فيك .. كانت عملية مروعة ..

— احك لى .. تعالى نجلس .. وقص علىّ بالضبط ماذا حدث ..

ودخل الاثنان حجرة مراد .. وأغلق عبد العاطى الباب وجلس على مقعد

كبير .. وجلس مراد أمامه على طرف الفراش ..

وابتسم عبد العاطى وهو يفرك يديه قائلا :

ـــ لا يمكنك أن تتصور فرحتى عندما علمت بانتصاركم وطردكم اليهود .. لقد أصابنى الحنين إلى الكتيبة وتمنيت لو كنت معكم .. أخوض المعركة إلى جواركم .. كيف حال الكتيبة .. وكيف حال نفيسة ؟..

وأطرق مراد وأجاب فى اقتضاب :

ـــ حرقت ..

ـــ حرقت ؟!.. كيف ..؟

ـــ أحرقتها أنا ..

ـــ غير معقول .. لماذا ؟

ـــ حتى لا تقع فى أيدى اليهود .. وعدت وحدى سائرا على قدمى .. تماما كالعائدين من « مولز » الذين كنا نراهم فى الأفلام التى كانوا يعرضونها علينا فى الكلية الحربية عن حرب ١٩١٤ ..

ـــ وبقية الكتيبة ؟

ـــ دمر معظمها ..

ـــ ولكننا سمعنا أنكم انتصرتم .. لقد أبلغونا رسميا أنكم كسبتم المعركة وطردتم اليهود من التبة ٨٦ بعد أن أحدثتم بهم خسائر فادحة ..

ـــ أنا أيضا أبلغت هذا .. لقد أوقعت بقوات اليهود .. شرا مما أوقعوا بى .. لقد أفنى كل منا الآخر .. ولكن الذى جنى ثمرة المعركة .. والذى فرت بقايا اليهود أمامه .. دون أن يطلق طلقة واحدة .. هو مرسى .. لقد خسرت أنا كتيبتى .. ولكن الآلاى كسب المعركة .. هل فهمت ..؟

وأطرق عبد العاطى برأسه .. قائلا :

ـــ فهمت ..

وصمت عبد العاطى برهة .. ثم هز رأسه وأردف ضاحكا ..

ــ المهم هو أننا طردناهم وكسبنا المعركة .. والفضل على أية حال يرجع إليك .. وإلى كتيبتنا .. كتيبة الأسود ..

ولم يجاوبه مراد فى مرحه .. بل بدا مستغرقا فى شرود حزين .. وحاول عبد العاطى أن يخرجه من وجومه .. وأن يدخل عليه السرور ببعض ذكرياتهما المرحة .. فسأله ضاحكا :

ــ أتذكر عندما ذهبنا سويا فى الإسكندرية .. إلى أم قرنى ..

ولم يبد على مراد أنه يتبع حديثه .. أو أنه يريد أن يذكر شيئا مما يذكره به .. وقاطعه متسائلا :

ــ لم تقل لى ماذا أحضرك إلى هنا ؟

ــ لقد كنت فى طريقى إليكم .. ومررت بقائد منطقة القناة .. وقلت أبيت ليلتى عند مدام فيكى .. لأنها معرفة قديمة .. عندما كنت أخدم بالإسماعيلية .. وسأعاود السفر اليوم إلى العريش ..

ــ وماذا ستفعل فى العريش ؟

ــ سأقابل قائد الفرقة .. للتفاهم معه على حركة التنقلات التى يود إجراءها ..

ــ هل هناك ضباط سينقلون الآن ؟

ــ بعض الذين لا يريدهم قائد الفرقة ..

ــ ليتنى أنقل فى الحركة القادمة !

ــ أمجنون أنت !

ــ لماذا ؟

ــ تنقل فى هذه الظروف ..؟

ــ لقد قرفت ..

ــ ولكنهم لن يستغنوا عنك ..

ــ ومتى ستصدر النشرة ؟

ــ بعد بضعة أيام ..

ــ تنقلات فقط ؟

ــ وبعض إنعامات بنياشين وترقيات استثنائية ..

ــ ترقيات استثنائية ؟

ــ أجل .. ترقيات ميدان .. للذين أدوا خدمات جليلة فى المعركة ..

ــ ألديك فكرة عنهم ؟

ــ ليس بالضبط ..

ــ مَن مِن الفرسان ؟

وتردد عبد العاطى برهة .. ثم هز كتفيه قائلا :

ــ والله لا أعرف ..

ــ لا تكن خبيثا .. ولا تعمل علىّ كاتم أسرار .. قل ..

ــ سأقول .. على أن تعدنى بألا تخبر أحدا ..

ــ أعدك ..

ــ سيرقى منصور إلى قائمقام .. وسينعم على مرسى بنيشان النيل ..

وأحس مراد كأنما قد لسعته عقرب .. وتساءل كالمأخوذ :

ــ منصور .. ومرسى ؟.. لماذا ..؟

ــ بناء على طلب قائد الفرقة لما أبدياه فى معركة التبة ٨٦ ..

وعاد مراد يسأل مشدوها :

ــ وأنا ؟

وصمت عبد العاطى وهو يحس حرجا شديدا .. وتردد برهة .. وبدا له أن ينقذ الموقف بالتراجع أو الكذب فقال :

ـــ ربما .. أنا فى الواقع لا أعرف بالضبط ..

ـــ لا تكذب .. أنت تعرف كل شىء .. قل الحق .. فسأعرفه غدا .. إن لم أعرفه اليوم ..

ـــ الحقيقة .. إنه لم يطلب لك شىء .. لست أدرى لم .. لقد ظننتك لم تشترك فى المعركة ..

ـــ لم أشترك فى المعركة ؟.. لقد كنت أنا المعركة .. لقد حطمت أعصابى .. وفقدت قواى .. لقد رأيت الموت .. فى لحظة .. لقد خضت الألغام .. واصطليت من القنابل .. أصم أذنى دوى المدافع .. ثم تقول إننى لم أشترك فى المعركة ..

ـــ أنا لم أقل هذا يا مراد .. لقد قلت إنى ظننت عندما رأيت أنه لم يطلب لك شىء ..

واستمر مراد فى هديره .. وهو يكاد ينفجر :

ـــ الذين لم يطلقوا طلقة واحدة .. باعترافهم .. يأخذون الرتب والنياشين .. وأنا الضحية الوحيدة .. كبش الفداء .. مخلب القط .. أخرج من المولد بلا حمص ..

ـــ ربما ستأخذ فى النشرة القادمة ..

ـــ لن آخذ شيئا .. أنا أعرف السبب .. ما دام منصور قائد الآلاى فلن أحصل على شىء .. إنه يكرهنى .. لقد دفعنى إلى الموت .. وسار هو مع مرسى .. فى نزهتهم التى انتهت به إلى التبة ٨٦ .. فأكلوها باردة .. ونسبوا الفضل إلى أنفسهم .. لقد قلت له هذا .. إنى لم أسكت .. لقد شتمته فى وجهه .. ولكنى لم أعرف أن النذالة ستصل به إلى الحد الذى يحرمنى من حقى .. بعد كل ما فعلت يأخذ هو الترقية ويعطى مرسى النيشان ..

ـــ هدئ نفسك يا مراد .. كل شىء يمكن إصلاحه .. إنك تستطيع

التظلم ..

— لن أتظلم .. أنا لست امرأة .. إنى سأذهب إلى هناك وأضربه ..

— لا تكن أحمق .. إنك ستضيع مستقبلك ..

— فى ستين داهية .. ماذا سيفعلون بى أكثر من هذا .. سيطردوننى من الخدمة .. ليكن .. لقد زهقت ..

ونهض مراد من مكانه .. وبدأ يرتدى ثيابه وهو مستمر فى ثورته وعبد العاطى يحاول تهدئته ..

وعندما أتم ارتداء ثيابه هم بالخروج .. فسأله عبد العاطى :

— إلى أين ؟

— سأعود إلى العريش .. سأريهم كيف يفعلون بى هذا .. وأنا لست هفية ..

— انتظرنى .. سآتى معك .. سنأخذ أول قطار ..

— إن معى عربة جيب سأذهب بها ..

— إذن آتى معك فيها .. انتظرنى حتى أدفع الحساب ..

وبعد لحظات كانت العربة الجيب تنهب الطريق بالاثنين عائـدة إلى العريش ..

الفصل السابع عشر

مـزيد من الصـبر

دق جرس التليفون فى بيت العريش .. وكان النهار قد انتصف وأسرعت مديحة إلى السماعة مجيبة :

ـــ أفندم ..

وسمعت صوت عامل التليفون يقول :

ـــ معاك البيت يا فندم ..

وتلاه صوت إبراهيم يتساءل :

ـــ مديحة ..

ـــ أجل ..

ـــ ماما تتحدث من مصر وهى تتعجل نزولك ..

ـــ دعنى أتحدث إليها ..

ودق إبراهيم التليفون بضع دقات ثم قال للعامل :

ـــ حول الخط على البيت ..

وبعد لحظة وصل إلى مديحة صوت أمها من بعيد يقول :

ـــ صباح الخير يا مديحة ..

ـــ صباح الخير يا ماما ..

ـــ كيف حالكم وكيف حال نادية .. لماذا تأخرت فى الحضور .. لقد فات موعد دخول نادية للمدرسة ..

ـــ سنحضر قريبا إن شاء الله ..

ـــ ومدرسة نادية ؟

ـــ لنتأخر قليلا يا ماما لا يهم أن تفوتها بضعة أسابيع ..إن الجو هنا لطيف .. والبحر ممتع ..

ـــ ولكن .. لا بد من الحضور ..

ـــ لماذا ..؟

ـــ لأن بابا .. مريض ..

ـــ كيف .. ومتى ..؟

ـــ لقد مضى عليه أسبوع وهو راقد فى فراشه .. والدكتور محسن قال إن كبده متعبة .. والدكتور محمود ابن عمك قال إنها الكلى .. والحالة ملخبطة ..

ـــ ولماذا لم تقولى لى ذلك من أول الأمر ؟

ـــ لقد توقعت أن تجيئى من نفسك لأجل مدرسة نادية .. ولم أرد أن أزعجك ..

ـــ كان يجب أن تخبرينى فى الحال ..

ـــ إن الحالة لا تستدعى مثل هذا الانزعاج ..

ـــ سأحضر فى أول قطار ..

ووضعت مديحة السماعة .. ثم تلفتت حولها فى حيرة واضطراب ..

كان يجب أن تسافر من قبل لأجل نادية .. ولكنها ظلت تؤجل السفر يوما بعد يوم ..

دفعها إلى ذلك إحساسها الداخلى الذى يحيط بزوجها .. خطر ليلى .. لا خطر الميدان ..

الخطر الخفى الذى تأبى أن تعترف ـــ حتى بينها وبين نفسها ـــ بمجرد وجوده .. ولكنها بغريزتها كأنثى كانت تقف متحفزة لصده ..

وكانت تحس أن وجودها بجوار إبراهيم .. يمنحها نوعا من السيطرة على

الموقف .. وحفظ زمامه فى يديها .. وجذبه إذا ما أوشك أن يفلت ..

من أجل ذلك .. حاولت التسويف فى الرحيل مدعية أنها تريد المزيد من الاستجمام للطفلة .. حتى يرحل مصدر الخطر .. وتأمن على إبراهيم منه ..

ولكن نبأ مرض أبيها المفاجىء .. قد أوقعها فى مأزق .. ووضعها بين شقى الرحى ..

وهى امرأة واجب .. لا تستطيع أن تهمل واجبها نحو أبيها لمجرد رغبتها فى الاستجمام .. يأبى عليها ذلك سلامة منطقها .. ودقة تصرفها .. ويأباه عليها أمام نفسها شعورها نحو أبيها .. شعور ملىء بالحب والعرفان بالجميل .. يوجب عليها أن تكون بجواره فى مرضه .. بدلا من أن تلزم جوار زوجها لمجرد الإحساس بخطر .. خفى موهوم ..

و لم تتردد لحظة واحدة فى تقرير السفر بدليل تأكيدها لأمها بأنها ستسافر حالا .. دون أن تفكر فى حالة الخطر المحيطة بزوجها ..

ولكنها لم تكد تضع السماعة .. حتى عادت تفكر فى ليلى ..

ومرة أخرى بدأت مطارق الغيرة تدق ..

لقد طالت إقامتها من غير ما مبرر .. المفروض أنها حضرت للإقامة بضعة أيام .. وقد أتت لأنها هى موجودة .. ولأن هناك ربة بيت تستضيفها وتتحدث معها ..

أما الآن .. فعلام مقامها وربة البيت توشك أن ترحل . أليس من الواجب أن تسافر معها ؟

وملأها الخاطر إحساسا بالراحة ..

أجل .. هذا هو الشىء الطبيعى ..

ولو عرضت هى عليها .. لما بدا ذلك منافيا للذوق .. ولما ترددت فى قبوله ..

ستخبرها بمرض أبيها وعزمها على الرحيل .. وتسألها عما إذا كانت تود أن تسافرا سويا .. بحجة الائتناس وقطع وحشة السفر وطول الطريق ..

ولا تظنها ستقول .. لا ..

فمن غير المعقول أن تبقى وحدها ، لم يبلغ بها سوء النية والتبجح هذا الحد ..

قد تحتاج إلى إذن من زوجها .. أو على الأقل قد تدعى هذا ..

لا بأس من الانتظار حتى يأتى مراد .. وهى لا تظن غيبته ستطول .. ولا تظنه كذلك سيصر على إبقائها ..

وملأتها النتيجة التى أوصلها إليها تفكيرها بالطمأنينة .. وكان عليها أن تبدأ بتنفيذ فكرتها .. وعرض السفر على ليلى ..

و لم تكد تخطو بضع خطوات .. حتى طرقت أذنيها صرخة حادة جعلتها تقف في مكانها مشدوهة .. ثم تندفع بعد لحظة إلى مصدر الصرخة فى فزع وذهول ..

كانت الصرخة .. صرخة نادية .

واندفعت مديحة تصيح فى لهفة :

ـــ نادية .. حبيبتى ..

و لم تكد تصل إلى باب الصالة المؤدى إلى الحديقة حتى أبصرت نادية معلقة على حافة التكعيبة .. وقد انزلق السلم الخشبى من تحت قدميها .. وهى تحاول أن تمسك بعش عصفور ..

وقبل أن تتحرك مديحة لإنقاذها أبصرت ليلى تعدو من الحديقة حتى وصلت إلى التكعيبة ووضعت السلم الخشبى مكانه واندفعت تصعد لالتقاط نادية وهى تحاول طمأنتها :

ـــ لا تخافى يا حبيبتى .. أمسكى فىّ ..

واحتضنتها نادية .. ولكنها لم تكد تبدأ الهبوط حتى انزلق السلم مرة أخرى .. ووجدت ليلى نفسها تندفع إلى أسفل لترتطم بالأرض فى عنف وهى تضم الطفلة إلى صدرها ..

ولم تستغرق الحادثة أكثر من ثوان .. اندفعت الأم بعدها كالمأخوذة إلى حيث سقطت ابنتها بين ذراعى ليلى ..

ومدت مديحة ذراعيها لتلتقط الطفلة وتتحسسها فى جزع .. ورفعت ليلى بصرها وهى راقدة على الأرض لتسأل فى لهفة وألم :

ـــ أبها شىء ؟..

واستمرت الأم تضم ابنتها وتتحسسها فى خوف ثم قالت لاهثة :

ـــ لا أظن .. وأنت ؟

وكانت ليلى ترقد فوق السلم وقد التوت ساقها اليمنى تحته ، وبدت على وجهها مظاهر ألم شديد . ولم تستطع أن تكتم أنينا انطلق من شفتيها ..

وعادت مديحة تسأل :

ـــ ما بك يا ليلى ؟

ـــ لا شىء .. إنها سقطة بسيطة ..

ـــ ولكنك تتألمين ..

وعادت ليلى تئن وهى تحاول جهدها أن تتجلد وأن تنهض من سقطتها .. واستمرت مديحة تسأل وهى تحمل طفلتها ..

ـــ ماذا يوجعك ؟

ـــ قدمى .. لقد التوت أسفل السلم ..

ـــ ألا تستطيعين الوقوف ؟

وهمت ليلى بالوقوف .. ولكنها أحست بوخز شديد فى قدمها .. فصرخت ثم عادت إلى الأرض ..

ووضعت مديحة نادية على الأرض ثم انحنت على ليلى تحاول مساعدتها على النهوض قائلة :

ـــ امسكى ذراعى واتكئى على ..

ـــ لا أستطيع .. أنى أحس فى قدمى بألم شديد ..

وفى تلك اللحظة بدت نهى من باب الحديقة .. فصاحت بها مديحة :

ـــ نهى ..

وتلفتت الصبية التى بدت كأنها مقبلة من جولة شرود مما تعودت أن تهيم خلالها على الشاطىء ووسط الرمال ..

ولم تكد نهى تبصر ليلى راقدة حتى اندفعت تجاهها متسائلة فى جزع :

ـــ ماذا حدث ؟

وأجابتها نادية وقد جلست بجوار ليلى :

ـــ لقد تسببت فى سقوطها .. حاولت أن أحضر عش العصافير الذى رفضت أن تحضريه لى فانزلق بى السلم .. وصرخت .. فأتت لإنقاذى ولكن السلم سقط بنا سويا ..

وانحنت نهى فى جزع على ليلى وقد ترقرقت الدموع فى عينيها :

ـــ أحدث لك شىء ؟

وصاحت بها مديحة :

ـــ اذهبى بسرعة وإطلبى إبراهيم فى التليفون .. وقولى له أن يحضر طبيبا معه لأن ست ليلى سقطت على قدمها .. وأرسلى إلى عبد الرازق من المطبخ ليعاوننى على نقل ليلى إلى الداخل .. أسرعى ..

ـــ حاضر ..

وانطلقت نهى تعدو إلى الداخل .. وقد بدا عليها الجزع والقلق .. وبعد لحظة أقبل الطباخ مندفعا من الداخل .. وتعاون مع مديحة فى حمل ليلى .. وهى

تئن أنينا متقطعا .. وقد بدا على وجهها أشد أمارات الألم ..

وعندما رقدت ليلى فى فراشها .. بدا ذهن مديحة يفيق من صدمة الحادثة .. ليفكر فى نتائجها ..

هذه مشكلة جديدة لم تكن فى الحسبان ..

بل يبدو أنها معضلة لا تحل .. وإنه ليس هناك من سبيل أمامها إلا التسليم ..

أهذا وقته !!

أهذا وقت تسقط فيه وتكسر ساقها ..

ولكنها لم تكسر .. إن ما بها مجرد جزع .. أو التواء سرعان ما ستشفى منه ..

ولكن وقته غير مناسب .. كان المفروض أن تعرض عليها السفر الآن معها .. وأن تبدأ فى حزم حقائبهما .. للسفر فى أول قطار كما وعدت أمها ..

ولكن يبدو أن الظروف تصر على بقائها .. حتى لكأن القدر يدبر أمرا .. ويعد له خطة ..

لو لم ترها تسقط أمامها .. لظنتها مدعية ..

ولو لم تسقط لإنقاذ ابنتها لقالت مسألة مدبرة ..

ولكنها رأتها بعينيها .. ولولاها للقيت نادية نفس مصيرها .. بل من يدرى .. ربما أشد .. لقد افتدت بنفسها ابنتها ..

مع ذلك .. تحاول هى لومها ..

يا للسخافة .. لماذا تنحرف أذهاننا .. فى تفكيرنا .. مثل هذا الانحراف المزرى ..

— لماذا تعيدنا أذهاننا .. إلى ذاتنا ؟.. لماذا تكرهنا على ألا نفكر إلا فى مصلحتنا ؟..

ألأن تفكيرنا .. لا يطلع عليه الغير .. فنحن نتحرر فيه من كل مظاهر الخير

المتكلف المفتعل ..

على أية حال .. إن المسألة من كل وجوهها مزعجة ..

ورقدتها هذه مؤلمة .. من كل وجهات النظر ..

من وجهة النظر العامة والخاصة ..

فهي تكره لها أن تصاب .. لأنها تكره للناس الأذى ..

وهى تكره أن تصاب فى هذا الظرف .. لأن المفروض أنها كانت ستسافر معها .. فتخلصها من وضع شاذ .. مقلق .. لا تعرف إلى أى مدى يمكن أن تصل نتائجه ..

وجهة نظر .. واحدة .. قد تجد المسألة .. ليست بالإيلام الذى تتصوره ..

وهى وجهة نظرها هى .. المصابة نفسها ..

أجل .. من يدرى .. قد يسرها أن تبقى فى الفراش مريضة ضعيفه .. لتلهب المشاعر .. ويهيأ الجو وتكمل القصة ..

ووجهة نظره هو ..

ولكن .. لماذا كل هذا السخف فى التفكير .. لماذا كل هذا الإمعان فى سوء الظن ..؟

وعلام تلوم ليلى ..؟

وأحست مديحة بشىء من تأنيب الضمير .. إنها تتألم .. ومع ذلك لا ترحمها مديحة فى انطلاقة ذهنها المتهم .. الوسواس ..

وسمعت صوت عربة تقف فى الخارج ..

واقتربت الخطوات من الباب ..

كان هناك أكثر من شخص .. لا شك أنه إبراهيم ومعه الطبيب ..

ما أسرع ما قدم .. لكأنه قد هبط بالبراشوت .. أكل هذا .. لأن ليلى

سقطت ..

ترى ماذا سيفعل عندما يراها راقدة .. تئن ..

هل يستطيع أن يسيطر على مشاعره أمام الناس .. أم تراه سيفقد أعصابه ..

ولكن لماذا تتوقع هى أن يفعل شيئا غير عادى ..

لماذا تحس شيئا ..

و لم لا ؟

أليس هناك شيء ؟.. ألم تعترف هى بذلك بينها وبين نفسها .. لماذا تحاول أن تهرب منه .. لماذا تحاول أن تخفى رأسها فى الرمال .. لماذا تتهرب ..

واقترب وقع الأقدام .. وتمنت لو تركت الحجرة ..

ولكن قبل أن تغادرها .. فتح الباب ..

و لم يكن الداخل إبراهيم .. بل كان مراد ..

ونظر مراد إلى الحجرة فى دهشة .. وتنقل بصره بين وجه مديحة الجزع .. ووجه ليلى الشاحب من فرط الألم .. ثم تساءل فى دهشة :

— ما الحكاية ؟..

وأحست مديحة بالراحة .. من وجود مراد .. لقد كان مجيئه حلا سعيدا للموقف .. إن عليه أن يتولى أمر زوجته .. وأجابته مديحة فى إعياء :

— لقد سقطت ليلى على ساقها ..

— كيف ؟..

— كانت تحاول أنزال نادية من فوق التكعيبة .. فسقطت والتوت ساقها تحت السلم ..

و لم يبد على مراد .. جزع شديد .. وهز رأسه فى يأس قائلا :

— بجملة .. المصائب لا تأتى فرادى ..

واقترب من ليلى ونظر إليها وهو يهز رأسه قائلا :

ـــ تصورى .. بعد كل ما حدث .. رقى منصور إلى قائمقام .. وأخذ مرسى نيشان النيل .. وخرجت أنا من المولد بلا حمص .. لقد قررت أن أستقيل .. ولكن بعد أن أضربهم جميعا .. لا بد أن أقتلهم .. أنا يفعلون بى هذا ..؟!

ولم تجبه ليلى .. وبدا كأنها توشك أن تروح فى إغماءة بعد أن خفت أنينها ..

ونظرت مديحة إلى مراد فى دهشة .. إنه لم يأبه كثيرا لما أصاب ليلى ..

لعله لم يقدر حقيقة ألمها ..

أو لعل النيشان والترقية .. أهم كثيرا من ليلى .. لماذا لا يفكر إبراهيم مثله .. فى ترقية أو نيشان ..

ترى ماذا سيصنع عندما يرى ليلى فى مرقدها ..

وقطع مراد عليها تفكيرها متسائلا :

ـــ اتغديتم ؟..

وزادها سؤاله دهشة .. ولكنها لم تملك سوى الإجابة فقالت :

ـــ لم نتغد بعد ..

ـــ إن معى الصاغ عبد العاطى .. ونريد الذهاب إلى رفح بسرعة .. هل نستطيع أن نتناول لقمة ؟

ونظرت إليه مديحة فى حيرة .. ثم نظرت إلى ليلى الملقاة فى شبه إغماء .. ثم قالت فى تردد :

ـــ حالا .. بمجرد أن يصل إبراهيم مع الدكتور ..

ـــ دكتور .. أتحتاج المسألة إلى دكتور ..؟

ـــ ألا ترى ما بها ؟

ـــ لقد تعودت منها السلبطة ..

وقبل أن تجيب مديحة .. وقفت عربة أخرى .. وبعد لحظة دخل إبراهيم مندفعا .. وقد بدت على وجهه أمارات الجزع .. وصاح كالمشدوه :

ـــ أين ليلى .. ماذا بها ؟

ثم أندفع إلى فراشها .. وأمسك بيدها هاتفا :

ـــ ليلى .. ليلى .. ماذا بك ؟..

وأحست مديحة بما يشبه اللطمة .. أو الطعنة .. و لم تستطع أن تقول شيئا ..

لم يكن هناك مجال للوم .. أو للغضب .. ماذا كانت تستطيع أن تقول له ؟..

أتقول له لا تجزع .. لا تخف ..

أتقول له إن زوجها .. تحدث عن النياشين والترقية .. وطلب الغداء .. غير معقول .. هذه أشياء لا تقال ..

إذا فقد هو أعصابه .. فيجب أن تتمالك هى أعصابها ..

وتقدمت لاستقبال الطبيب قائلة فى هدوء :

ـــ تفضل يا دكتور ..

لقد كان عليها أن تتمسك بمزيد من الصبر .

الفصل الثامن عشر

شــر التجـربة

انتهى الضابط الطبيب من تشخيص ليلى .. وحاولت ليلى أن تكتم آلامها .. وكانت عيناها تلتقيان بين آونة وأخرى بعينى إبراهيم .. فكانت تجد بهما شيئا ممتعا ملطفا لآلامها ..

كانت تجد جوابا لإحساسها .. وردا صريحا قاطعا .. جازما من اللهفة والجزع .. و .. الحب .

كانت بعينيه .. بدل النظرة .. ضمة .. وبدل اللمحة مسة ..

كانت تحس كأنه يتحسسها فى رفق ويربتها فى إشفاق .. ويضمها فى حنان ..

ومن حولها .. كانت نظرات لهفة أخرى ..

كان مراد .. يتلهف على أن ينتهى الطبيب من فحصه .. حتى يستطيع هو الذهاب إلى رئاسة الآلاى .. ليفرغ ثورته ويصب جام غضبه .. ويطالب بحقه فى الترقية والنياشين .. ويلعن أباهم .. واحدا .. واحدا ..

وكانت مديحة .. تتلهف على معرفة النتيجة ..

ما مدى إصابتها .. هل تستطيع السفر ؟

هل تحتم إصابتها رقدة .. طويلة ؟

وتحدث الطبيب .. مجيبا على لهفة الثلاثة .. قائلا فى تردد :

ــ أعتقد أن هناك شرخا .. أو كسرا .. لا أستطيع أن أجزم ..

وكانت لهفة إبراهيم أقوى اللهفات الثلاث .. فلم يستطع أن يترك الطبيب

يتم حديثه .. وقاطعه متسائلا :

— والعمل .. ماذا ستفعل ؟

— المفروض أن نعمل للإصابة صورة بالأشعة .. ويستلزم هذا أن تنزل إلى القاهرة ..

وأحست مديحة .. بأن الأزمة قد انفرجت .. وقالت فى حماس :

— أجل .. لا بد من هذا .. إنى سأنزل فى أول قطار .. ويمكننى أن أرافقها حتى المستشفى ..

ونظر إبراهيم إلى ليلى فى جزع .. ثم حول بصره إلى الطبيب متسائلا :

— هل تستطيع السفر وهى على هذه الحالة ؟

وأجابت مديحة بسرعة :

— إنى سأتولى العناية بها .. وأعتقد أننا نستطيع أن نحملها حتى المحطة وفى القطار ..

ولم يتركها الطبيب تتم حديثها .. بل قاطعها قائلا :

— لست أنصح بسفرها .. فلست أظن الأشعة ضرورية .. إنها ستؤكد لنا حقيقة الإصابة .. ولكن علينا أن نوازن بين المتاعب التى يمكن أن تتعرض لها بالسفر .. وبين مزية التأكد من حقيقة الإصابة .. أنا شخصيا أفضل ألا تسافر ..

وتساءل إبراهيم فى لهفة :

— وكيف نعالجها ؟

— سأضع لها ساقها فى الجبس .. وسواء كانت مشروخة أم مكسورة .. عليها أن تظل راقدة فى فراشها .. حتى يلتئم الشرخ أو الكسر .. ثم تفك من الجبس ..

وقال إبراهيم فى حماس :

— انتهينا .. لا ضرورة إذن لمتاعب السفر وهى فى هذه الحالة ..

ثم وجه القول إلى مراد :

— ما رأيك يا مراد .. أليس من الأفضل أن تبقى ..

وهز مراد كتفيه قائلا :

— كما يريد الدكتور ..

ثم وجه القول إلى ليلى محاولا الضحك :

— عسى أن تكفى بعد ذلك عن الشعلقة فى التكعيبات .. ستكون ساقك فى الجبس جميلة .. لن أستطيع البقاء الآن حتى أتمتع برؤيتها .. فلا بد أن أذهب إلى رفح مع الصاغ عبد العاطى .. عن إذنكم ..

وقبل أن يترك الحجرة نظر إلى الطبيب قائلا :

— لا تتعجل بالرحيل بعد أن تضع ساقها فى الجبس .. إنى قد أحتاج إليك .. لأنى سأخوض معركة جديدة ..

— مع اليهود ..

— بل مع رئاستنا .. لقد أخذت أنا العلقة .. وأخذوا هم النياشين .. سأخرب بيتهم إن شاء الله .. السلام عليكم ..

واتجه إلى باب الحجرة وهو يقول فى لهجته المستخفة :

— لن أغيب عليك يا ليلى .. بضع ساعات فقط لأقصف رقبة قائد الآلاى .. وأشق بطن قائد الفرقة .. ثم أعود إليك .. سأجلس معك على طول .. وعلام التعب .. ما دامت النياشين تؤخذ من منازلهم ..

وأحست مديحة من الجملة الأخيرة التى أطلقها مستخفا بشىء من الطمأنينة ..

إن مراد ينوى — على الأقل — أن يكون بجوارها ..

إنه رغم استهتاره واستخفافه بكل شىء زوجها .. ووجوده يمنح المسألة

منظرا لائقا .. ولن تبدو بها تلك الصورة الشاذة التى كان يمكن أن تبدو بها .. لو اقتصر الأمر على الاثنين معا ..

زوج .. بلا زوجة .. وزوجة طريحة الفراش بلا زوج .. يضمهما بيت واحد .. فى هذه الوحدة والخلاء .. لا يمكن أن يبدو منظرهما للناس طبيعيا ..

هذا من ناحية الشكل .. والمنظر ..

أما من ناحية الموضوع .. فهى أدرى الناس بتعقيده .. وهى أدرى الناس بأن لا مراد ولا غير مراد .. يستطيع تسويته ورد أخطاره ..

وإبراهيم ما زال يقف لينظر فى جزع ولهفة إلى ليلى .. وفى صدره .. خافق .. هتّاف .. يهمس به :

« ويحك .. ألا تملك لأعز الناس عندك أكثر من نظرتك العاجزة الحيرى .. افعل شيئا .. ضمها إليك .. مس كسرها بشفتيك ، ولو عرف الخافق الهتّاف شعرا لردد بيت المجنون :

بربك هل ضممت إليك ليلى   قبيل الصبح أو قبلت فاها

ويحس إبراهيم .. أن الخافق فى صدره .. أحمق مجنون ، وأنه لا يملك حتى مجرد اللهفة والجزع .. بله الضم واللمس .. وإن هذه الراقدة أمامه .. من حق رجل آخر ، قد تكون أهون لديه من نيشان أو رتبة .. ولكنها مع ذلك ألصق به من عابر سبيل .. لم يلقها إلا وهو مشدود إلى قاطرة أخرى .. مثقل بحمل شرعى .. عليه أن يحمله حتى آخر عمره راضيا .. قريرا .. مبتهجا ..

وأخرجته مديحة من صخب أفكاره بقولها :

— كنت أود أن أبقى مع ليلى .. ولكنى سأضطر إلى السفر فى قطار الغد ..

— ولِمَ هذه العجلة ؟

— ماما أنبأتنى أن بابا مريض منذ أسبوع .. وأنها كتمت عنى النبأ لتوقعها

أن أحضر من تلقاء نفسي لأجل مدرسة نادية .. وقد وعدتها بالسفر فى أول قطار .. ولهذا اقترحت أن تسافر ليلى معى ، لأنى أكره أن أتركها وحدها بلا أحد يقوم بخدمتها ..

وانبعث صوت سمع فى الحجرة لأول مرة .. هو صوت نهى يقول فى إخلاص :

ــ لن أتركها لحظة واحدة .. إنى سأرعاها بعينى ..

وأردف إبراهيم قائلا وكأنه يجامل ليلى :

ــ وأنا أيضا سأكون بجوارها ..

وأجابت مديحة :

ــ طبعا .. ومراد سيكون أيضا بجوارها ، إن البركة فيهم جميعا ، ولهذا سأسافر وأنا مطمئنة عليها ..

وقال الطبيب ضاحكا :

ــ ما هذا كله .. إن المسألة لا تستحق كل هذا .. إنى سأضع ساقها فى الجبس .. وآمرها بالرقاد .. وآمركم جميعا أن تتركوها فى حالها .. وإن شاء الله بعد أسبوع سأفكه لها .. إنى أرجح أن ما بها لن يكون أكثر من شرخ ..

وقالت مديحة وكأنها وجدت بابا تنفذ منه :

ــ ولهذا اقترحت أن تسافر .. لأنى لا أعتقد أن السفر سيتعبها .. وهى ستكون فى القاهرة أكثر راحة ..

ــ لا داعى لإرهاقها بالسفر .. إن الراحة والرقاد خير علاج لها .. إنى لن أحاول إزعاجها حتى بنقلها إلى المستشفى .. سأحضر لها أدوات التجبيس هنا .. عن إذنكم ..

وخرج الطبيب ووراءه إبراهيم .. وأقبلت الصغيرة نادية هاتفة :

ــ تنت ليلى .. كيف أنت ؟

وأجابتها ليلى فى رقة :

ـــ بخير .. ليس بى شىء ..

وقالت مديحة مؤنبة نادية :

ـــ لقد تسببت فى كسر ساقها .. مبسوطة .. كل هذا من شقاوتك .. كان يجب أن تكسر ساقك أنت ..

وقالت ليلى :

ـــ بعد الشر عنها ..

ولكن الصغيرة تساءلت :

ـــ تكسر ساق .. وتوضع فى الجبس ؟

وأجابت الأم :

ـــ أجل ..

ـــ وأضحى كالعروس الجبس ؟

وأزاحتها الأم ناهرة :

ـــ بل كالعفريت الجبس .

وغادرت مديحة الغرفة .. لتجد إبراهيم عائدا بعد أن أوصل الطبيب إلى العربة .. وتجد مرادا عائدا خلفه وقد بدت عليه العجلة .. وانتحى بإبراهيم جانبا وهمس به :

ـــ أمعك خمسة جنيهات ؟

ـــ أجل ..

ـــ هاتها ..

والتفت إبراهيم بدوره إلى مديحة وقال لها :

ـــ أمعك خمسة جنيهات ؟

واختفت مديحة لحظة فى حجرتها ثم عادت ومعها الجنيهات الخمسة ..

واختطفها مراد قائلا :

ـــ متشكر .. سأردها لك أول الشهر .. وسأعطيك الأرباح .. كأسا من كل زجاجة ..

ـــ زجاجة ماذا ؟

ـــ ويسكى يا حضرة ..

ـــ أأخذت الخمسة جنيهات لتحضر بها ويسكى ؟

ـــ طبعا .. أكنت تظنني سأحضر بها تين شوكى ؟

ـــ سأحضر بها معى ويسكى .. وزبيب زحلاوى .. وعرق .. سأفتحها لكم خمارة .. لن أرى المواقع بعد ذلك بعيني .. كله محصل بعضه ..

وأحست مديحة مرة أخرى بمزيد من الطمأنينة .. ولم تضق أبدا بالقرض الذى منحته .. ما دام سيضمن لها بقاء مراد بجوار زوجته على الأقل .. حتى تشفى .. وترحل بالسلامة .. أو تعود هى ..

وقبل أن يغادر مراد البيت سألته :

ـــ متى ستعود ؟

ـــ الليلة .

ـــ لا تتأخر .. إن ليلى يجب ألا تبقى وحدها ..

ـــ طبعا .. طبعا .. لن أتأخر أكثر من مسافة الطريق ، وزمن المعركة .. سأريهم أنى لست هفية .. وأن ليس كل الطير يؤكل لحمه .. وإذا كنت لم آخذ النيشان فى معركة التبة ٨٦ سآخذه فى معركة رئاسة الآلاى .. كان منصور أفندى يريد قتلى .. فى المعركة .. ولكنى سأقتله .. بلا معركة .. سآتى إليكم الليلة ومعى ثلاثة ويسكى واثنين زبيب ونيشان النيل .. خذى بالك من ساق ليلى .. حذرى الدكتور من أن يتلفها الجبس .. إن ساقيها خير ما فيها .. حقيقة إنها باردة ، ولكن ساقيها جميلتان ..

وأحس إبراهيم بأن دمه يفور من وقاحة مراد .. وكأنما كان هو الزوج .. ومراد .. الـ .. الـ .. ماذا يسمى نفسه ؟ أهو عشيق .. حاشا لله .. أهو حبيب ؟.. حتى هذا لا يستطيع أن يصارح نفسه به . ماله إذن يغضب .. وهو لا يستطيع أن يحدد صفته بالنسبة إليها .. إنه مجرد وهم .. لا يستطيع حتى أن يسمى .. باسمه ..

إنه يحب ويخشى أن يقول إنه يحب ..

لأنه لا يملك هذا .. وهو الإنسان العاقل المتزن .. ذو الأخلاق المثالية ..

لو أنه كان كمراد .. لأراح .. واستراح ..

ولكنه يعترف بالمثل العليا .. والقيم الأخلاقية .. ويكره الانحلال .. والانحراف .. والزلل ..

ثم .. يحس فى جوفه .. بشىء يدفعه إلى كل هذا ..

يحس بأنه يملك نوعا من المشاعر .. لو أطلقها أو سماها .. لما كانت .. إلا انحرافا وانحلالا .. وخطيئة .. ولما سميت بأكثر من خيانة .. واعتداء .. وقلة شرف ..

أف له .. وأف للتقاليد .. وللعرف ولكل هذه المسميات القاسية ..

ومرة أخرى .. أخرجته مديحة .. عن معركة ذهنه .. ومشاعره .. وسألته فى هدوء .. السؤال الذى لم يكن يخطر له ببال :

ـــ هل ستسافر معنا ؟

ـــ أنا ؟

ـــ أجل ..

ـــ أسافر معكم متى ؟

ـــ غدا ..

ـــ كيف أسافر معكم ؟

ــ ألا تستطيع أن تحصل على إجازة ..

وكانت مديحة تعرف الرد .. وكانت واثقة .. إنه لا يستطيع السفر .. من الناحيتين .. ناحية القدرة .. وناحية الرغبة .. ومع ذلك فقد حلا لها أن تسأل علّها تصيب رمية من غير رام .. أو لعلها من مناقشتها له تستطيع أن تسوق إليه تحذيرا خفيا .. مستورا ..

وأجاب إبراهيم فى شىء من الحدة :

ــ كيف أحصل على إجازة .. فى هذه الظروف ؟

ــ أى ظروف تعنى ؟

ــ ظروف العمل ..

ــ لست أجد هناك ما يمنع ..

ــ وهذه المناوشات التى يقوم بها اليهود كل ساعة ؟!..

ــ مالك ومالها ؟..

ــ والعمل الذى أقوم به بدل الضابط الذى فى إجازة ؟

ــ يقوم غيرك به ...

وصمت إبراهيم برهة ونظر إليها نظرة فيها شىء من التحدى والعنف ثم قال :

ــ والضيفة المكسورة الراقدة ؟

ــ لديها زوجها .. هل أنت مكلف باستضافة الناس وتمريضهم ؟..

ــ وهل من الذوق .. أن نستضيف الناس ثم نتركهم .. طريحى الفراش ..

وأحست مديحة أنها لو ازدادت فى ضغطها المتسائل .. لأحدثت به انفجارا .. وهى تعرف انفجاراته .. ولم تجد بدا من التراجع لا سيما وقد أحست أنها قد بلغت جزءا من أهدافها .. وهو التحذير الخفى ..

ونظرت إليه نظرة أكثر لينا .. وقالت :

— معك حق .. ليس هذا من الذوق ..
وأحست أنها قد تنحت عن الطريق وتركته يمر ..
إنها تحس بثقة فيه ..
والمسألة كلها تجربة .. يجب أن تعينه على أن يجتاز شرها ..

الفصل التاسع عشر

دخـان المدفـاة

كانت الساعة قد بلغت التاسعة مساء عندما عاد مراد يطرق باب البيت ثانية بعد رحيله إلى رفح ..

وكان البيت قد شمله سكون تام .. واستغرق سكانه فى صمت عميق .. وبدت مديحة وقد جلست فى حجرتها على حافة الفراش .. ووضعت أمامها الحقائب فارغة ترص فيها الثياب .. ويداها تتحركان حركة آلية وذهنها قد انطلق هائما فى شروده .

لم يكن بذهنها شىء جديد .. نفس القلق ، ونفس الوساوس .. ونفس الصراع الذى لا ينتهى .. بين الجزع والصبر .. والخوف والشجاعة .. واتهام الغير ولوم النفس ..

كان ذهنها كعادته يخوض فى رحلته بين دخان الشكوك وسحب الريب .. لا يستقر على شىء .. ولا يصطدم بشىء .. ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن ينكر أن هناك شيئا .. أن هناك غيما يحيط به .. ويطبق عليه .. ويضيق عليه الخناق .. وهو لا يستطيع صده .. لأنه لا يصد ..

أجل .. إنها تجابه أزمة دخان .. ومشكلة غيوم ..

كائنة .. ومتطايرة ..

موجودة .. وغير ملموسة ..

ويداها ترصان الثياب .. فى هدوء .. وذهنها منطلق خلالها .. فى عنف .. لا يهدأ .. ولا يكل ..

وفى الصالة جلست نهى .. بجسدها الأعجف .. ووجهها الضامر النحيل .. قابعة فى مجلسها المعتاد وراء النافذة الزجاجية العريضة .. التى تبدى لها الصورة العريضة البراقة .. كل فجر .. صورة الشمس المشرقة المتصاعدة من وراء الربوة بين النخيل .. وتحمل لعينيها النور والإشراق .. وتحمل لذهنها الآمال الحلوة .. وترسم لها طريق العودة .. وتعيد الوطن الضائع .. والأهل المشردين ..

وتتصاعد الشمس .. متباعدة إلى كبد السماء .. مضيعة لها الأمانى مبددة الأحلام .. لا تجسر العين على التحديق فيها .. ولا يجسر الذهن على التعلق بما منحته فى شروقها من آمال ..

ثم تختفى وراء المغرب .. وتسود الظلمة المعتمة ..

المعتمة فى العين وفى الذهن ..

وتجلس نهى لترقب حلكة أوهامها .. ويأس حقائقها .. وتحملق فى النجوم الشاحبة .. تتوارى وراء أكداس السحب .. وتنصت للبحر الهادر الجياش .. يحمل فى هديره .. ما يشبه الصراع والنواح .. ليدفع فى نفسها مزيدا من يأس . ومزيدا من ضياع ..

كانت نهى تجلس وقتذاك .. وينتابها يأس الليل المخيف وهى تنقل بصرها بين الظلمات المكدسة وراء النافذة .. وبين إبراهيم الجالس فى صمت أمام المدفأة .. وقد مد ساقيه وألقى برأسه على ظهر المقعد .. وحملق بعينيه فى اللهب المتراقص .. وبين آونة وأخرى يسترق البصر إلى الباب المقابل حيث بدت ليلى راقدة على فراشها وقد غطت البطاطين ساقها الموضوعة فى الجبس .. وألقت رأسها على الوسادة فى هدوء واستسلام ..

وبدا وجهها الدقيق شاحبا .. وقد فكت جدائل شعرها فتناثرت حوله على الوسادة ..

وأمامها قد وقفت نادية .. تعبث بخصلات شعرها .. وتستدعى ذهنها الشارد .. من متابعة بقية الأذهان الشاردة فى الدار .. بأسئلتها الساذجة المضحكة التى تتطلب ردا .. وتستدعى بصرها من رحلته القصيرة الخاطفة من خلال الباب إلى الجالس أمام المدفأة ..

قالت نادية متسائلة :

ـــ لماذا لا تسافرين معنا ؟

ـــ لأن الطبيب أمرنى بالرقاد ..

ـــ متى سيأمرك بالنهوض ؟

ـــ عندما تخف ساقى ..

ـــ ومتى تخف ساقك ؟

ـــ بعد أسبوع أو أسبوعين ..

ـــ ولماذا لا أبقى معك حتى تشفى ساقك .. إنى أحبك ..

ـــ وأنا أيضا أحبك .. ولكن يجب أن تسافرى ..

ـــ لماذا ؟

ـــ لأجل المدرسة ..

ـــ المدرسة أستطيع الذهاب إليها بعد أن تشفى ..

ـــ ولأن جدك مريض ..

ـــ وماذا سأفعل لجدى وهو مريض ؟

ـــ ماما لا بد أن تراه .. وأنت لا بد أن تكونى مع ماما .. وكذلك يجب أن تزورى جدك فى مرضه ..

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن المرضى يحتاجون إلى رعاية ..

ـــ وأنت ألا تحتاجين إلى الرعاية .. لماذا لا نبقى معك .. من سيرعاك ؟

— إن معى أنكل مراد ..

— إنه لا يراعى أحدا .. إنه مشغول دائما .. وهو غير موجود ..

— سيأتى الليلة ..

— وسيذهب غدا .. لا بد أن يرعاك أحد غيره .. سأخبر بابا ألا يفارقك لأنى أحبك .. ولأن ساقك كسرت من أجلى ..

واندفعت الطفلة تعدو إلى أبيها صائحة :

— بابا .. أليس المرضى فى حاجة إلى الرعاية ؟

— طبعا ..

— ألسنا مسافرين لرعاية جدى لأنه مريض ؟

— طبعا ..

— أليست تنت ليلى مريضة ؟

وانحنى إبراهيم على ابنته وأجابها فى حيرة .. وهو لا يدرى ماذا يمكن أن تتمخض عنه أسئلتها :

— أجل .. إنها مريضة ..

— من سيرعاها إذن ؟

— سنرعاها كلنا .. أنكل مراد .. وأنا .. ونهى ..

— بل ترعاها أنت وحدك .. لأن أنكل مراد لا يبقى هنا أبدا .. ونهى سارحة .. فإياك أن تفارقها .. ابق معها دائما .. لقد قلت لها هذا ..

وقبل أن يمد يده ليربت على ظهرها ويجيبها :

— حاضر يا حبيبتى ..

انطلق صوت مديحة يصيح فى حدة :

— نادية ..

وأجابت نادية :

— نعم يا ماما ..

— لماذا لم تذهبى إلى فراشك ؟

— لقد كنت أتحدث مع تنت ليلى ..

— كان يجب أن تكونى نائمة الآن .. إننا سنستيقظ مبكرين غدا ..

— سأذهب لأنام الآن ..

— هل تعشيت ؟

— لا ..

وصاحت مديحة بصوت أكثر حدة :

— نهى ..

ونهضت نهى من مجلسها وأسرعت إلى باب الحجرة مجيبة :

— نعم ..

— عشى نادية واذهبى بها إلى الفراش .. كان يجب أن تفعلى هذا دون أن أنبهك .. ألا تكفين عن هذا السرحان ؟

طأطأت نهى رأسها وأجابت :

— سأعشيها حالا .. تعالى يا نادية ..

وسارت بالطفلة إلى حجرة المائدة والطفلة مستمرة فى سيل أسئلتها قائلة :

— لماذا لا تسافرين معنا ؟.. لو أتيت معنا لأريتك فى مصر أشياء كثيرة ..

— مثل ؟

— القرود فى حديقة الحيوان .. إنها تفلى بعضها ..

— أهذا كل ما عندكم فى مصر ؟

— وسأريك الفيل أبو زلومة ..

— فقط ..

— وسأذهب بك إلى السينما لأريك ميكى ماوس ..

— وماذا أيضا ؟

— وسأشترى لك جلاس .. وسندوتش ..

وضحكت نهى ورفعتها بين ذراعيها وقبلتها فى لهفة :

— ستوحشينى يا نادية ..

— وأنت أيضا ..

وأحست نادية بشيء يبلل خدها ورفعت بصرها إلى نهى متسائلة :

— لماذا تبكين ؟

— لا شيء ..

— بل تبكين .. إنى أحس دموعك على خدى ..

— لأنى سأفتقدك .. لقد حملت إلىّ جزءا من أهلى الضائعين .. لقد رأيت فيك إخوتى الصغار .. لقد أحسست منك بأجمل ما فى الإنسان .. لقد قصد أبوك أن يمنحنى الحنان والحب .. ومنحته أنت لى بلا قصد ..

واحتارت الصغيرة كيف تجيب .. وأنقذها من حيرتها الجرس الذى دق ..

ووضعت نادية .. وأسرعت إلى الباب لتفتح ..

ودخل مراد بغباره .. وضجيجه .. وزجاجات الويسكى التى يحملها ..

ودفع إليها بحمله صائحا :

— هذا كل ما جنيناه من المشوار ..

وألقى التحية إلى إبراهيم المسترخى أمام المدفأة ..

— مساء الخير يابو خليل ..

— مساء الخير ..

— تصور بعد كل هذا المشوار .. لم أجد أحدا فى رئاسة الآلاى .. لقد نزل القائد إلى القاهرة .. نزل سعادة البيه القائمقام بعد أن لهف الرتبة .. على

حسابى .. على حساب مرمطتى وتشريدى .. ورجوعى سائرا على قدمى بلا جنود ولا دبابات .. لقد لهفها على حساب سمعتى الضائعة وكان يمكن أن تكون حياتى هى الضائعة ..

وتململ إبراهيم فى مكانه وقال فى ضيق :

ـــ يا مراد .. الرجل لم يقصد شيئا من هذا .. إنها معركة ..

ـــ بل قصد .. لقد قصد قتلى .. إنه يكرهنى .. لماذا لم يضع مرسى بدلا منى .. لماذا تركه يأكلها باردة وذهب هو معه ..

ـــ ربما لثقته بك ..

ـــ لثقته بى .. ولماذا لطش هو الرتبة .. ولطش الحيوان الآخر النيشان .. أهذه هى الثقة ؟

ـــ يا أخى ربما .. طلب لك .. ولم تصدق الرئاسة ..

ـــ ملعون أبو الرياسة .. ماذا تعلم هى عما فعلت ؟

ـــ قد يكون فى ملفك ما يمنع من ..

ـــ يمنع من ماذا .. لقد كدت أقتل .. ألا يكفى هذا ؟.. هل تعرفون ما حدث لى ؟

ونفد صبر إبراهيم فصاح به :

ـــ أرجوك كفى .. لقد هوستنا .. نحن نعرف كل ما حدث لك .. ولكن لا تملك شيئا .. فلماذا لا توفر صياحك ؟ لماذا لا تحمد الله على بقائك حيا .. فى ستين داهية .. الرتبة والنيشان ..

ونظر إليه مراد وصمت برهة .. ثم أطلق ضحكة ساخرة وقال وهو يهز رأسه :

ـــ معك حق .. فى ستين داهية الرتبة والنيشان .. فى ستين داهية .. الآلاى بأكمله .. فى ستين داهية أنتم جميعا .. الدنيا كلها على جزمتى ..

وصاح ينادى بأعلى صوته :

ـــ نهى .. هات الزجاجات .. أعدوا لى الحمام .. وجهزوا العشاء .. دين الآلاى لدين الجيش .. لدين الدنيا ..

ثم أردف منشدا بصوت نشاز :

ـــ أنا من ضيع فى الأوهام عمره .. نسى القتال فى ٨٦ أو أنسى ذكره ..

واتجه إلى حجرته وصاح بليلى الراقدة :

ـــ يعيش الويسكى .. ويسقط الحمير ..

ونظرت إليه ليلى نظرة استنكار ودهشة .. فأجابها بسؤاله :

ـــ إزيك يا وليه .. كيف حال ساقك الحلوة ؟

فأجابته فى ضيق وألم :

ـــ الحمد لله ..

ـــ المهم .. هل ستمنعك من أداء واجباتك الزوجية ؟..

وسمع كل من بالبيت سؤاله .. وأحس إبراهيم أنه يود لو قام ليصفعه .. ولكنه لم يملك إلا أن يخفض رأسه ويحملق فى اللهب المتراقص فى جوف المدفأة ..

أشياء كثيرة يجب أن يكتمها فى باطنه .. وأن يتركها تحرك جوفه ولا يسمح حتى لدخانها بالتصاعد أمام الناس .. بل يبتلعه .. كما تبتلع المدخنة .. دخان المدفأة .. حتى لا يؤذى أنوف الغير .. ويضايق أنفاسهم ..

وعاد مراد يكرر سؤاله وهو يخلع ملابسه ويقذف بها على طول ذراعه ..

ـــ لماذا لا تجيبين يا حلوه .. أنا لم أجرب النوم مع ساق مجبسة .. لماذا لا تدعينى أجرب الليلة ..

وأجابته ليلى فى مرارة وألم :

ـــ بطل سخافتك .. وكف عن قلة الأدب .. كفى فضائح أمام الناس ..

وخفض مراد صوته وقال ضاحكا :

ـــ أهذا كل ما يزعجك .. الفضائح أمام الغير .. سأعيد سؤالى بصوت واط .. وأجيبى عليه ..

وقاطعته ليلى هامسة فى مرارة :

ـــ أنت لست آدميا .. أنت حيوان ..

ـــ ومن أنكر ذلك .. ولماذا أكون آدميا .. والناس يجعلوننى كبش فداء ومخلب قط .. لماذا أكون آدميا .. وقد زجوا بى إلى مذبحة .. وحرمونى من جزائها .. لقد ضاعت الرتبة والنيشان .. هل تريدين أنت أيضا أن تضيعى الليلة لساقك المجبسة .. لا لا .. لن أحرم حقوق الحيوان بعد أن فقدت حقوق الآدميين .. استعدى لى .. إياك أن تنامى .. سأستحم .. وأتعشى .. وألهف زجاجة الويسكى ثم أعود إليك ..

وانحنى فوقها فقبلها فى غلظة وعنف .. ثم اندفع إلى الخارج عاريا إلا من السروال .. وهو يغنى بأعلى صوته :

ـــ مسكين وحالى عدم من كتر هجرانك ..

وكانت مديحة قد تركت الحجرة على صوت ضوضائه .. ووقفت أمام إبراهيم .. تنقل البصر بينه وبين المدفأة وحجرة ليلى ..

ورفع إليها إبراهيم بصره .. وجوفه يغلى .. وملامحه يكسوها هدوء مفتعل ..

والتقى البصران .. ولم يدر كل منهما مدى .. ما يعرف الآخر .. من محتويات ذهنه ..

ولم يطل بهما الصمت .. وفى لهجة مقتضبة .. قال إبراهيم فى لهجة الآمر :

ـــ اذهبى إلى ليلى .. ونامى معها .. وسأدع مراد ينام معى .. إنها لا شك ستكون فى حاجة إلى من يرعاها .. غير هذا الحيوان ؟

ولم تستطع مديحة أن تقول لا ..

فقد بلغ بها النفور من حديث مراد .. والضيق بوحشيته والخوف من حيوانيته على الراقدة العاجزة .. ما دفعها إلى قبول الرجاء بلا مناقشة ..

وسارت إلى حجرة ليلى .. راضخة .. راضية ..

شيء واحد كان يطن فى رأسها .. من قول إبراهيم ..

« إنها ستكون فى حاجة إلى من يرعاها .. غير هذا الحيوان » ..

وهى سترعاها الليلة .. فمن يرعاها .. فى الليالى القادمة ..

هل سيتركها للحيوان .. أم سيرعاها هو ؟..

كيف ينوى أن يحل مشكلتها ؟

ولكن ماله هو ومالها ؟

لماذا لا يتركهما وشأنهما ؟

عندما كانا فى بيتهما .. هل كانا فى حاجة إلى تدخله .. وهل كانت فى حاجة إلى رعاية أحد غير زوجها الحيوان ؟

ولكنهما ليسا فى بيتهما ..

وساقها قد كسرت من أجل ابنتها ..

ومن الوحشية .. أن تتركها وحدها .. لهذا الحيوان .. لا سيما إذا سكر ..

ثم إن إبراهيم .. قد أمرها ..

ودلفت إلى حجرة ليلى .. واقتربت منها .. وأمسكت بيدها تشد عليها .. وبيدها الأخرى تتحسس جسدها ثم قالت فى رفق :

— أتسمحين لى أن أشاركك فى حجرتك الليلة .. إنك قد تكونين فى حاجة إلى من يخدمك ومراد متعب الليلة .. ولا أظن أنه يستطيع أن يقوم بخدمتك ؟..

وأجابت ليلى فى صوت متعب :

ــ لست أريد أن أزعج أحدا .. إنى سأنام .. ولا أظننى سأحتاج لشيء .. كل ما أريده أن تغلقى علىّ الباب بالمفتاح ولا تدعى أحدا يدخل الحجرة ..

ــ بل سأبقى معك .. إن مراد سينام مع إبراهيم .. سأعود إليك بعد أن أضع نادية فى فراشها ..

وخرجت مديحة لتضع نادية فى فراشها .. وعلا صوت مراد فى الحمام منشدا بصوته النشاز ولهجته العابثة المستهترة ..

ــ حجبوك عنى العواذل ليه يا نور العين ..

الفصل العشرون

اللهب والوقود

جلس مراد على البار وقد وضع الكأس أمامه .. ورص صحاف العشاء بجواره ..

وكان إبراهيم لم يزل فى جلسته ممددا ساقيه محدقا فى لهب المدفأة ومديحة قد آوت إلى غرفة ليلى وأغلقت الباب ..

وأفرغ مراد الكأس فى جوفه .. ثم مصمص بشفتيه قائلا :

ـــ ولا تسقنى سرا .. إذا أمكن الجهر ..

ولم يجب إبراهيم .. كان يحس بجوفه أكداسا من الهم والحزن تثقل تفكيره وتشل لسانه .. وكان كل ما يوده هو أن يظل مسترخيا فى مكانه لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد ..

كان يحس برغبة فى البكاء ..

وعاد مراد ينغص عليه صمته .. صائحا فى شبه قهقهة :

ـــ هاى .. ما بالك .. كأنك خسرت معركة وعدت سائرا على قدميك ..

ولم يجب إبراهيم .. واستمر مراد فى ثرثرته قائلا :

ـــ أتريد كأسا ؟..

ومد يده بكأس مترعة ..

وهز إبراهيم رأسه رافضا .. فأفرغها مراد فى جوفه وعاد يتساءل :

ـــ أتريد رتبة ؟

ولم يجب إبراهيم .. وازداد تحديقا فى نيران المدفأة .. ولم يكف مراد عن تساؤله :

ــ نيشان ؟

وأطلق إبراهيم زفرة .. ورفع عينيه إلى مراد .. فبدا له مخلوقا غريبا .. قد لف جسده فى برنس بدت منه ساقان مكتنزتا السمانتين كثتا الشعر .. وقد اعتلى مقعد البار فى جلسة عجيبة تشبه القرفصاء .. عارى القدمين معصوب الرأس ..

ولم يكد يسمع زفرة إبراهيم ويلمح نظرته .. حتى أطلق قهقهة عالية وصاح كأنما عثر على إجابة لما حيره :

ــ أتحب ؟..

واستمر إبراهيم يرقبه بنظراته الصامتة .. وقد أحس بشىء من القلق .

وصاح مراد :

ــ إبراهيم أفندى قيس .. أين العامرية ؟

وبدأ إبراهيم يحس بسخرية الموقف ومرارته ..

ولم ينتظر مراد إجابة .. واستمر فى لهجته العربيدة الصاخبة :

ــ لست أجد حولك شيئا يستحق .. لا تقل لى إنها اللاجئة العجفاء .. إنى أستطيع أن أضع عشرة منها فى سندوتش مع المزة .. إنها لا تسمن ولا تغنى من جوع .. قل من تكون المعشوقة التعسة .. وأنا أحضرها لك من شوشتها ؟

ولم يستطع إبراهيم أن يكبح جماح زفرة أخرى انطلقت من صدره .

من يصدق هذا ؟

هل يمكن أن يخطر ببال صاحبه .. حقيقة الرد على سؤاله ؟

مستحيل ..

إنه لا يشك فيه قيد أنملة ..

ومعه حق .. فالمفروض فى إبراهيم أنه على خلق .. وأنه — على الأقل — بالنسبة لمخلوق كمراد إنسان نموذجى .. لا يمكن أن يستغل ظروف الصداقة .. والضيافة .. ويعشق زوجة صديقه .. وضيفه ..

أجل .. إن مراد نفسه — على انحلاله — لا يستطيع أن يتصور أن علاقة ما يمكن أن تنشأ بين إبراهيم وزوجته ..

ولكن هل نشأت هذه « العلاقة ما » ؟

هل هناك شيء ؟

هل يكفى لكى توجد العلاقة .. أن يحس بها .. أم لا بد لها من مظاهر مادية .. ملموسة .. تخرجها من حيز التفكير والحس .. إلى حيز الوجود ؟

هل العلاقة الحسية الكائنة بينهما .. يمكن أن تدخل فى باب الخيانة والغدر .. وأن تعتبر « علاقة ما » ؟

وإذا كان الرد بالإيجاب .. فما ذنبه هو .. وهل كان يملك منعها أو وقفها .. وهى مجرد إحساس اضطرارى لا سلطان لقدرة مادية .. مهما كانت .. من السيطرة عليه أو توجيهه أو وقفه ..

ترى ماذا يمكن أن يكون رد هذا المخلوق العابث المهذار .. إذا ما أجابه إبراهيم على سؤاله ؟

ماذا يقول إذا أنبأه أن ليلاه .. هى ليلى .. زوجته ؟

بم يجيب إذا أنبأه بمنتهى البساطة .. بأنه يعبدها .. وأنه يحس بأنها المخلوقة التى ظلمه القدر بأن أخر لقاءه بها .. فلم يدفعها إليه — وهى جزء من كيانه ، ونصف نفسه كما يقول الشعراء — إلا بعد أن سد الطريق إليها ووضع الحوائل وأقام العقبات ؟

ماذا يمكن أن يكون حال مراد .. إذا ما كشف الغطاء عن الخافق فى صدره .. وفك قيده وأطلق سراحه .. وتركه يهتف بأحب الأسماء إليه ..

بليلى .. وأنبأه أن زاده فى عينيها وأن أحب ساعات العمر إليه .. ساعات جوارها ؟

سيظنه — لا شك — مازحا ..

إن هذا مجرد هزل ..

وهو — حقيقة — هزل ..

هزل يقض المضجع .. ويؤرق الجفن ..

هزل .. لا بد له من نهاية ..

إنها مجرد تجربة من القدر .. ولعله خارج منها عن قريب .. بمجرد أن تشفى ساق ليلى .. وتعود إلى مصر ..

ترى هل أفاد من التجربة ؟

لا يدرى ..

لا يستطيع أن يقدر الآن مدى خسارته وربحه ..

لقد كسب كثيرا ..

كسب ذلك الإحساس الممتع .. بالحب .. والذى لا نستطيع أن نمنحه لأنفسنا فى أى وقت نشاء .. ولا بأى مخلوق نشاء ..

كسب الإحساس بالحب ..

الإحساس الذى يصبغ تفكيرنا بلون وردى .. فيجعل تفكيرنا مريحا .. ممتعا .. وكأننا راقدون من حياتنا على فراش هزاز فى حديقة ناضرة عاطرة .. لا نرى سوى الشفق الأحمر .. ولا نشم سوى الرياحين .. ولا نسمع سوى غناء الورق وهديل الحمائم ..

لقد كسب الإحساس بالحب ..

الإحساس الذى يقرب إلى أذهاننا صورة الجنة .. فيجعل منها مراحا ننطلق فيه مع أحبائنا .. ومرتعا نرتع وإياهم فيه .. بالإحساس والوهم ..

لقد كسب الإحساس بالحب ..

الإحساس الذى يجعلنا نتوهم فى شفتى إنسان .. ينبوعا لا ينضب من الهناء معينه .. مذيبا للهموم .. مفتتا للأحزان ..

الإحساس الذى يجعلنا نتخيل .. فى طاقتى أنف إنسان مهبا لعبير منعش ونسيم عطر ..

لقد كسب شيئا ضخما ..

كسب « حالة » .. جعلته أكثر إحساسا بحياته وتعلقا بها ..

باختصار .. لقد كسب شيئا .. جعل لحياته قيمة ..

أو باختصار أشد .. لقد كسب حياته .. ولو إلى حين ..

وهل يمكن أن يكون أكثر من هذا ربحا ؟

والخسارة ؟!

ما هو حسابها ؟

خسارته .. هى — ببساطة — ضياع ذلك الربح ..

هى زوال هذه الحالة .. لأنها لم تكن من حقه ..

لقد كانت عملية اختلاس .. كانت سرقة .. ولا بد أن يردها ..

ولمن ؟.. للذى لا يشعر بها .. الذى لا تكون عنده حالة .. ولا أحاسيس .. ولا شىء أبدا .. إنها عنده مجرد مادة ..

مجرد سلك لا يجد طرفه الآخر .. ليكون معه شررا .. أو ينتج طاقة من الإحساس والمتعة .. والضياء ..

عجبا لحياتنا .. تلقى بنا فى لخبطة عابثة .. بلا توليف .. ولا ترتيب .. فتضيع طاقتنا .. وتتركنا مجرد خردة ..

وهبط مراد بكأسه على الرخامة .. فى قرعة كادت تحطمه .. ثم صاح فى قهقهة أخرجت إبراهيم من دوامة أفكاره :

— هاى .. الظاهر إنك تحب بجد .. مسكين .. أبعد هذه السن تنطلى عليك هذه الخدع ؟

ولأول مرة رد إبراهيم .. وتساءل فى صوت خافت :

— أية خدع ؟

— خدع الحب .. هذا شغل حواء .. كان ينطلى علىّ وأنا فى الرابعة عشرة .. لقد أحببت مرة .. وخيل إلىّ أنى أهيم فى السماء .. وأذوب فى بحر من العسل .. ثم أفقت بعدها .. وفهمت الفولة .. فلم تعد تنطلى علىّ أبدا ..

— ما هذا الذى لم يعد ينطلى عليك أبدا ؟

— الحب يا أستاذ .. كلهن امرأة .. كلهن جسد مفروض أن يحمل ويلد .. ومن الأداة ؟ نحن .. نتخيل فى كل واحدة شيئا جديدا .. سحرا فى عينيها .. وعسلا فى شفتيها .. و .. و .. إلى آخر كل هذه الأوهام .. ونضعها فى مصاف الملائكة نلمسها كما نلمس أضرحة الأولياء .. ونشمها كأوراق الورد ثم .. رويدا رويدا .. نشد عليها ونقربها .. وفجأة نعبطها بين أحضاننا .. مجرد جسد .. والنتيجة ؟.. انتفاخ وذرية .. والكاسب هو الحياة التى أضيف إليها نتاج جديد .. والخاسر هو نحن .. مزيد من المسئولية والشقاء والتعب .. لا .. لا .. لقد فهمت الفولة .. لم أعد أصدق خدع الحب وأباطيله .. امرأة يعنى امرأة تتساوى فى الفراش مع غيرها من النساء .. لا فرق بينها وبين امرأة أخرى .. لا تزيد أنملة عن زوجتى أو زوجتك .. إياك أن تخدعك إحداهن فتظن بها جديدا ..

وأحس إبراهيم كأن أحدا يدور به كما ندوخ الصغير .. ثم نتركه فجأة ليرتطم رأسه فى الأرض ..

هذا العربيد الثائر .. يقول كلاما مخيفا .. إنه يتحدث عن البشر .. وعن المشاعر الطيبة .. وعن القيم الجميلة التى نتعلق بها فى حياتنا .. بطريقة مهينة ..

مفجعة .. تبعث فينا اليأس من كل شيء ..

ولكن ما مدى الحق فى آرائه ؟

لا حق فيها بالطبع ..

لا يمكن لنا أن ننكر مشاعرنا ..

لا يمكن أن نجرد حياتنا .. ونتركها عارية إلا من الواقع لأن المشاعر شيء كائن .. ولأن حياتنا مشاعر أكثر منها أى شيء آخر .. إن الواقع لا وجود له إلا بالطريقة التى تعكسه لنا بها المشاعر ..

هذا الأنف أو الفم .. أو الصدر .. وهذه الشجرة .. وهذه الثمرة .. لا وجود لها إلا بالطريقة التى نحسها بها ..

والمرأة جميلة لأنى أهيم بها .. لأن بى شيئا يرينى إياها كذلك .. وجسدها مثير لأن بى إحساسا يغرينى بها .. ولو ضاع هذا الإحساس لتساوت مع الحجر ..

فحديث هذا العربيد المجرد من الإحساس .. لا يمكن أن يضع للواقع قيمته الحقيقية ..

والمرأة التى يراها مجرد جسد .. ليست كذلك إلا لأنه هو نفسه مجرد جسد بلا إحساس ..

ليس فى الأمر .. إذن .. خدع ولا أباطيل ..

ومع ذلك .. فقد أحس بمرارة من حديث هذا العربيد .. الصاخب وبدا له كأن كلماته رشاش من الطين أصاب مشاعره البيضاء .. النقية ..

وخيل إليه أن فراشه الهزاز الذى يرقد به بين الأزاهر والبلابل .. قد هبطت به يد عنيفة .. لكى تشعره بأن كل شيء فى حياتنا قائم على هذه الأرض .. الصلبة السوداء .. وإنه ما من شيء يمكن فى دنيانا أن يعلق فى الهواء .. بلا سند من الأرض وقاعدة من الطين ..

وعلت دقات الساعة المعلقة فوق المدفأة .. وعد إبراهيم فى سكون الليل اثنتى عشرة دقة .. ونظر إلى مراد .. وكان ضجيجه قد خفت .. والتعب والسُكر قد تركاه أشبه بالذبالة المترنحة فى مهب الريح ..

وقال مراد وهو يطوح ببقية الزجاجة فى جوفه :

— كم الساعة ؟

— اثنتا عشرة ..

— متى سننام .. إنى أكاد أخر صريعا ..

— قم بنا ..

وكان إبراهيم يخشى أن يحاول مراد دخول حجرته .. ويتوقع أن يلقى جهدا لإقناعه بالمبيت معه ..

ولكن حالة السُكر والإعياء التى بلغها .. جعلته أشبه بالخرقة البالية .. وكان لا يكاد يقف على قدميه .. فساقه إبراهيم إلى حجرته .. ولم يكد يبلغ الفراش حتى ألقى بنفسه فوقه كجثة هامدة .. وبعد ثوان كان شخيره قد علا ..

وفى الصباح كانت مديحة أول من استيقظ .. وفى عجلة ارتدت ثيابها وساعدها إبراهيم فى رص الحقائب وراء الباب استعدادا لنقلها إلى القطار ..

وقبل الرحيل .. وقفت تودع ليلى .. بقدر ما استطاعت من ثبات ورقة .. شدت على يدها قائلة فى شبه اعتذار :

— أنا متأسفة لأنى لا أستطيع البقاء للعناية بك .. أنا أعرف أنها قلة ذوق منى أن أتركك .. ولكنى أعرف كذلك أنك تقدرين موقفى ..

وأجابت ليلى فى صوتها الرقيق بلا افتعال :

— أشكرك جدا .. أنا مقدرة جميلك ولطفك ..

— أؤكد لك .. لولا شدة مرض أبى لبقيت معك .

وكانت مديحة مخلصة فى قولها كل الإخلاص ..

وأجابت ليلى :

— ربنا يشفيه ..

— ويشفيك .. وإن شاء الله نراك فى مصر قريبا ..

— إن شاء الله بمجرد أن أستطيع النهوض .. سأذهب إلى مصر .. وسأزوركم ..

ودخلت نادية هاتفة :

— سأنتظرك يا تنت ليلى .. إياك أن تتأخرى .. هيا بنا يا ماما .. مع السلامة يا تنت ..

— مع السلامة يا حبيبتى ..

وتحرك الركب إلى الخارج .. وكان إبراهيم قد ارتدى ملابسه ووقف فى الصالة ينتظر وداع مديحة لليلى .. وقبل أن تغادر مديحة البيت ألقت بنظرة على الحجرة المغلقة التى رقد فيها مراد وتساءلت :

— ألم يستيقظ مراد ؟

— لا ..

— بلغه سلامى .. وأوصه خيرا بليلى .. هل ينوى أن يقيم فى البيت كما قال ؟

— أعتقد هذا .. لقد شرب أمس بطريقة تجعله لا يستطيع أن يغادر البيت عاما بأكمله ..

وبعد لحظة كانت العربة تحمل الثلاثة إلى المحطة .. وفى الطريق صاحت نادية كأنما قد تذكرت أمرا :

— أين نهى .. إنى لم أرها ؟

وأجابت مديحة :

— لقد استيقظت من الفجر .. وقامت بما طلبت منها أن تعمله . ثم اختفت بعد ذلك ..

وعلق إبراهيم على قولها :

— لعلها انطلقت فى طريق العودة .. الطريق الذى ترقبه من النافذة كل صباح .. مسكينة هذه البنت ..

وردت مديحة :

— لا تخش عليها .. ستجدها فى البيت عندما تعود .. الظاهر أن طريق العودة ذهاب وإياب ..

وقالت نادية :

— لماذا لم ننتظر حتى أراها ؟.. إنى أحبها ..

وقبل أن يجيبها أحد .. وقبل أن تقف العربة أمام المحطة .. صاحت نادية :

— ها هى .. نهى ..

واندفعت نهى تعدو إلى رصيف المحطة .. ورفعت نادية بين يديها وضمتها إلى صدرها .. وصاحت نادية :

— يا خائنة .. ظننتك خرجت دون أن ترينى ..

— حاولت .. ولكنى لم أستطع .. إنى أكره وداعك .. ولكن لم أطق أن أتركك ترحلين دون أن أراك ..

وأحست نادية مرة أخرى بسخونة دموع نهى على خدها .. وسمعت صوت أمها تناديها :

— ياللا يا نادية ..

وأحست نهى بذراعى الصغيرة تضمانها .. وبدموع تمتزج بدموعها !

وهبطت بها إلى الأرض .. ومسحت دموعها بطرف كمها وحاولت التضاحك قائلة :

— لا تبكى .. سآت إليك قريبا ..

— ولكنك قلت إنك لن تأتى .. وأن بلدك هنا ..

— بل سآتى .. إن بلدنا واحد .. وطنى أوسع من هذه الرقعة الصغيرة التى احتلتها الأفاعى .. إن وطنى عربى .. أنت وأبوك ملأتمانى إحساسا بوطنى الرحب المتسع ..

وعادت مديحة تصيح بنادية ..

وبعد لحظة تحرك القطار .. ونادية تشير لنهى ولأبيها .. ومديحة تلوح بيدها فى الهواء .. وذهنها معلق فى جولته الحائرة بين الشكوك والأوهام .. وهى تتساءل عما إذا كانت قد وضعت اللهب بجوار الوقود .. ثم تطمئن نفسها بأن مراد سيبقى فى البيت ليحول بين اللهب والوقود ..

واختفى القطار .. وعاد إبراهيم إلى البيت وهو يحس — برغمه — نوعا من الراحة .. وكأنما أزاح عنه عبئا .. أو أزال حاجزا ..

ولم يستطع ضميره المؤنب أن يمنع هذا الإحساس الممتع من التسرب إلى نفسه ..

ولم يدر سبب هذا الشعور بالراحة ..

— إنه لا يعرف ماذا يريد .. ولا ماذا ينوى ؟.. وهو لا يعرف بالتالى .. لماذا كان وجود زوجته يحرمه منه .. ولا ماذا أباحه رحيلها ..

لقد استراح .. وكفى ..

وأقبل على البيت .. ولم يكد يفتح الباب حتى قوبل بضجة من مراد ..

وسأله إبراهيم عما به .. فأجاب :

— هذا عبث .. هذه مسخرة .. تصور أن التليفونجى قد أبلغنى إشارة الآن بأن كل الضباط تبقى فى مواقعها .. وأنه ممنوع على كافة الرتب مغادرة المواقع .. لن أذهب .. سأستقيل ..

وبعد لحظة كان مراد قد ارتدى ملابسه .. وكانت العربة تنهب به الأرض نهبا إلى موقعه ..

وكان إبراهيم يقف أمام الباب .. وهو يحس — برغمه أيضا — أنه أزاح بقية العبء .. وأزال الحاجز الآخر ..

الفصل الحادى والعشرون

الحقيقـة الثالثـة

دلف إبراهيم إلى الصالة وبنفسه مزيج من أحاسيس عجيبة متناقضة .. تركته فى شبه ذهول ممتع .. أو غيبوبة لذيذة .. أشبه بأحلام الغفوة .. أو نشوة الخدر ..

كان فى حيرة من أمره .. ومن مشاعره ..

لقد وجد نفسه فجأة .. وأمانيه الحلوة ملء يديه ..

لقد أحس وكأن الضجيج من حوله قد خفت .. والضباب قد تبدد .. والموج قد انحسر ..

وإذا به .. وإياها .. وحيدان .. بلا شريك ولا رقيب ..

هذا البيت النائى .. الساكن .. بين الأمواج والرمال .. بيت الأحلام .. قد خلا إلا منهما ..

فى ساعات الشرود والهيام .. كان يتصور نفسه وإياها .. فى معزل عن العالم .. فى بقعة حالمة .. ينصت إلى حديثها الحلو .. ويفسح لها من صدره مسندا لرأسها الجميل .. ويتناول وإياها الشاى المحلى بأربع قطع .. وتلفحهما موجة برد فيضمها إلى صدره أكثر وأكثر .

أشياء كثيرة كان يحلم بها .. إذا ما ضمهما بيت الأحلام فى البقعة النائية .. بعيدا عن الناس .. هو بلا زوجة .. وهى بلا زوج .. والحياة ممتدة أمامهما كالمرعى الخصيب .. أو البحر الهادئ بلا أنواء ولا رياح هوج ..

كانت مجرد أحلام .. لا طائل منها إلا متعة التفكير فيها .. أو أمانى .. لا

تصل إلى مرتبة التحقيق .. وإنما يعيش المرء بأوهامها زمنا رغدا .

ومرة واحدة .. وبمنتهى البساطة .. وجد نفسه فيها ..

لقد رحلت مديحة .. ورحل مراد ..

وأضحى هو وهى .. والأمانى ملء يده والأحلام طوع بنانه ..

إلى متى ؟!.. وإلى أى مدى يمكن أن يحقق أحلامه ؟!

لا يدرى ..

إنه لا يستطيع أن يفكر فى شيء .. المهم .. إنه وجد نفسه فى الحالة التى كان يتلهف عليها .. حالة الوحدة معها ..

أما إلى متى .. وماذا سيفعل ؟!.. فمسألة لا يجب التفكير فيها .. لأنه — إلى حد ما — يخشاها .. ولأنها تسبب له هذا القلق الخفى .. والخوف المبهم .. اللذين يشوبان متعته ..

وظل إبراهيم يتنقل برهة بين الصالة وحجرته .. وهو حائر قلق .. يبدو كأنه يفعل شيئا .. وهو يتحرك ويقوم ويجلس بلا هدف .. وأخيرا اتجه إلى باب الحجرة التى رقدت بها ليلى وطرقه بخفة ..

وسمع صوتها الرقيق يهتف :

— ادخل ..

ودفع الباب .. واقترب من الفراش ..

والتقت عيناه بعينيها . وأحس من نظراتها عناق الوحشة وضمة الشوق .. ولم يغب عن إحساسه لمحة الراحة والاستقرار التى بدت فى نظراتها ..

ومد يديه .. فضم كفها .. وأغمضت عينيها وقد تملكتها نشوة لذيذة وهى تترك كفها فى يديه ..

ونظر هو برهة إلى عينيها المغمضتين .. وبلا وعى رفع كفها ودفن شفتيه فى راحتها ..

وبلا وعى منها هى الأخرى .. والعينان مغمضتان .. والروح هائمة .. والفؤاد ذائب .. والقلب خافق .. أخذت يدها تتحسس وجهه فى رفق وتؤدة .. كما تتحسس الأم الضريرة ملامح ولدها بعد طول غيبة ..

مست شفتيه .. وطرف أنفه .. وذقنه .. وعينيه .. ثم استقرت على شفتيه مرة أخرى .. لتضغطهما برفق حنون ملؤه الشوق والوجد والحب ..

وفتحت عينيها ورمقته فى رضاء وطمأنينة .. وفتحت شفتيها ثم أغلقتهما ولم تقل شيئا .. وإن بدا كأنها تود أن تقول ..

« وأخيرا » ..

وقبل أن تقول شيئا طرق الباب .. وبدت نهى بوجهها النحيل تتساءل :

— أأحضر الشاى ؟

وأجابت ليلى :

— أجل يا نهى ..

وأحس إبراهيم بأن صوت الفتاة قد أعاده إلى وعيه .. وكأنه نذير يذكره بالحقائق الواقعة التى لا تستطيع القلوب الخافقة .. أو الأحاسيس المرهفة .. أن تتجنب وجودها .. أو تبدل حقيقتها ..

لقد ذكره الصوت .. بأنه ليس بمعزل عن العالم .. وبأنه ليس بمنأى عن الناس .. وأن بيت الأحلام الذى رسمه فى أوهامه لم يتحقق بعد .. وأن البيت الذى يعيش فيه هو بيت زوج .. وما زال عليه أن يراعى تصرفاته أمام الغير ..

لقد جذبه الصوت من لحظة الهيمان .. التى مست فيها الكف الناعمة شفتيه .. ووضعه أمام نفسه كطفل مذنب .. لم تكد تغفل عين الرقيب عنه حتى أسرع باللهو والعبث ..

ولام نفسه ..

كان يجب أن يكون أرجح عقلا .. وأكثر اتزانا .. وأشد صبرا ..

ولكنه لم يكن كذلك لأنه يحبها ..

أجل .. إن حبه لها حقيقة واقعة .. تتساوى مع بقية الحقائق الواقعة .. تتساوى مع حقيقة ارتباطها بزوج .. وارتباطه بزوجة .. وهو إذا كان لا يملك إنكار هاتين الحقيقتين .. فهو أيضا لا يملك إنكار الحقيقة الثالثة ..

الحقائق الثلاث .. موجودة مؤكدة ..

والحقيقة الثالثة .. وهى حبه .. أشد تأكيدا .. وأكثر وضوحا .. رغم انطوائها فى باطنه .. وإنكارها عن الغير ..

وتلك هى العقدة ..

إن حبه حقيقة .. لا وهم ..

وقد حاول أن يحوله إلى أحلام .. وأوهام .. ولكنه أبدا يأبى التحول ..

وقد حاول أن يجعل منه ذنبا .. وخطيئة .. وقد نجح إلى حد ما .. ولكن ذلك لم يمح وجوده كحقيقة ثابتة لا تتحول ..

حقيقة .. كل خطيئتها أنها وجدت إلى جوار حقيقة أخرى .. مضادة .. متنافرة .. تأبى أن يكون لها كيان بجوارها ..

إن حقيقة حبه ليست خطيئة فى حد ذاتها .. ولكنها خطيئة لأنها وجدت بين حقيقتين تأبيان أن يكون لها وجود إلى جوارهما .. وهما حقيقة زواجها .. وحقيقة زواجه ..

وحقيقه حبه شعور عميق .. والحقيقتان الأخريان مجرد شىء ناتج عن تنظيم وتقنين ..

وأحس فى وقفته أن رأسه مثقل ..

وأحس أن تجربة بيت الأحلام .. والخلوة النائية .. تجربة شاقة عسيرة .. إذا استمرت الحقائق الثلاث تتصارع فى نفسه ..

وأفلتت يد ليلى .. وهمست هى .. وقد بدا لها كأنه يتسرب من أصابعها

ليذهب بعيدا .. بعيدا :

ــ فيم سرحت ؟

وابتسم ابتسامة باهتة .. وأجاب :

ــ أبدا ..

ــ لقد بعدت عنى ..

ــ أنا لا أبعد عنك أبدا .. إنى بجوارك دائما ..

ــ أقصد ذهنك .. فيم شرد .. قل لى ..

ــ فى الحقائق الثلاث ..

ــ أى حقائق تعنى ؟

وطرقت نهى الباب ثم أقبلت بصينية الشاى .. وعليها فنجانان ووضعتهما على منضدة صغيرة بجوار الفراش .. ثم انصرفت فى هدوء ..

ونظر إبراهيم إلى الساعة فى معصمه .. ثم قال وهو يهم بالانصراف :

ــ سأتركك الآن ..

ــ لم تقل لى بعد ما هى الحقائق الثلاث ..

ــ بعدين ..

ــ بل قل الآن ..

ــ أيهمك كثيرا أن تعرف ؟

ــ ليس هناك شىء خاص بك .. لا يهمنى أمره ..

ــ حتى التفاهات ؟

ــ ليس بك تفاهات ..

ــ ما من إنسان إلا وله تفاهاته ..

ــ إلا أنت .. كل ما بك أحس به حيويا بالنسبة لى ..

ــ لا يمنع ذلك من أن يكون تافها .. إن تقديرنا الشخصى لا يدل على

حقيقة أمره ..

— لا تخرج عن الموضوع .. حدثنى عن الحقائق الثلاث .. ما هى الحقيقة الأولى ؟

وصمت إبراهيم برهة .. ثم رفع رأسه وأجاب ببساطة :

— مديحة ..

وأحست ليلى بمرارة مفاجئة .. وبدا الضيق على وجهها .. ولكنها استمرت تسأل فى إصرار :

— والثانية ؟

— مراد ..

— والثالثة ؟

وتمهل إبراهيم برهة وهو يرقب وجهها الذى بدا وقد غيمت عليه سحب الهم والاكتئاب ..

وعادت ليلى تكرر سؤالها :

— والثالثة ؟

وأجاب إبراهيم فى لهجة هى مزيج من اليأس والتشبث والإصرار :

— حبنا ..

وكانت المرة الأولى التى ينطق فيها التعبير الصريح .. لما بينهما ..

وأحست ليلى بنشوة من كلمة الحب .. وانقشعت غيوم الهم عن وجهها .. وانبسطت أساريره ..

كانت الكلمة حلوة الطعم فى نطقها .. حلوة الوقع فى مسمعها ..

وتمنت ليلى لو سمعتها ثانية ..

وتمتمت تقول متسائلة فى همس :

— ماذا قلت ؟

— حبنا ..

— قلها ثانية ..

وأخذ يردد الكلمة .. وهو يحس بنشوة من نطقها ..

وهمست ليلى وعيناها تضحكان :

— ليس هناك حقائق ثلاث .. إنما هى حقيقة واحدة ..

وضحك إبراهيم وتساءل :

— وما هى ؟

— الحقيقة الثالثة ..

— سميها باسمها ..

— حبنا ..

— قوليها ثانية ..

— حبنا ..

— قوليها ثانية ..

— حبنا ..

— وثالثة .. ورابعة .. لا تكفى عن قولها أبدا ..

وأخذت ليلى تهمس باللفظة المحرمة .. وكأنها تزيل بها كبتا طالت وطأته .. وثقل عبئه ..

وسمع إبراهيم صوت كلاكس العربة ..

ومرة أخرى .. شُدَّ من علياء أحلامه .. وتذكر أن وراءه عملا .. وأنه لا يستطيع أن يقضى يومه .. هائما .. يستمع إلى ألفاظ الحب ..

ومد يده فشد على يدها مودعا .. ولكنها لم تترك يده .. بل قالت فى شبه رجاء :

— ألا تشرب الشاى ؟

ـــ لا بد أن أذهب ..

ـــ لقد أعدت نهى فنجانين ..

وجلس إبراهيم على حافة الفراش وأخذ يصب الشاى .. وتساءل ضاحكا وهو يهم بوضع السكر :

ـــ كم قطعة ؟

ـــ كما تشاء .. إنى أحب كل ما تحب .. وأكره كل ما تكره .. كم أجد نفسى شبيهة بك .. فى كل ما تحس .. وكل ما تفعل ..

ـــ أنا شبيه بك أنت .. أنا رقيق مثلك .. هذا خير ما يمكن أن أسمع من مديح ..

وناولها الفنجان .. وأخذ كل منهما يحتسى الشاى وعيناه ترمقان عينى الآخر فى لهفة وشوق ..

وبعد برهة أقبلت نهى ترفع الصينية .. ونهض إبراهيم مودعا ليلى متجها إلى المعسكر ..

واستقر إبراهيم بين الضباط .. شارد الذهن .. وبنفسه إحساس المقبل على أمر جلل ..

لم يكن هناك شك فى خطورة الحقيقة الثالثة .. ولا سيما بعد أن بدت صريحة سافرة .. طاغية على غيرها من حقائق .. مقنعة بأنها وحدها الحق .. وغيرها زائف باطل ..

وحاول إبراهيم أن يهرب من أفكاره التى تدفعه إلى التشبث بالربح الجديد .. وإلى الانطلاق إلى البيت لكى يركع بجوار ليلى .. ولكى يهتف بها ويسمع منها .. كل ما يمكن أن يقال عن حبهما ..

وأخذ الوقت يمر به بطيئا متثاقلا .. وبدا له أن كل هذه الأعمال التافهة التى يقوم بها لا تحتاج إلى وجوده فى المعسكر .. وأنه يستطيع ببساطة أن ينهيها

وهو فى البيت بالتليفون ..

وعندما انتصف النهار نهض من مكتبه فى تبرم .. وعزم على العودة إلى البيت ..

وقبل أن يغادر المكتب .. أقبل عليه عامل التليفون يحمل دفتر الإشارات ..

وقرأ إبراهيم الإشارة .. وبدا عليه الضيق والامتعاض .. كانت الإشارة تطلب ذهاب قواد الوحدات إلى مكتب قائد الفرقة فى رفح ..

وألقى إبراهيم بالدفتر على المكتب فى ضيق .. ورفع سماعة التليفون قائلا :

ـــ أعطنى أركان حرب الفرقة ..

وبعد لحظة أجابه عامل التليفون :

ـــ موجود عند سعادة القائد ..

ـــ أعطنى أى ضابط فى الفرقة ..

ـــ اتفضل يافندم .. معاك ضابط الإشارة ..

وبعد لحظة سمع ضابط الإشارة يتساءل :

ـــ أفندم ..

ـــ أنا اليوزباشى إبراهيم شكرى ..

ـــ أهلا إبراهيم .. أنا الصاغ حسين زكى ..

ـــ وصلت إلينا الآن إشارة تطلب قواد الواحدات لمقابلة قائد الفرقة ..

ـــ أجل .. أنا الذى أرسلتها ..

ـــ ما هو المقصود بقواد الوحدات .. هل أنا منهم ؟

ـــ طبعا .. أتظن نفسك صغيرا يا أبا خليل ؟.. أنت قائد على سن ورمح ..

ولم يحس إبراهيم برغبة فى المزاح .. فتساءل فى ضيق :

ـــ وما هو المطلوب منا ؟

ـــ حضور مؤتمر ..

ـــ وهل ضرورى أن أكون موجودا به ؟

ـــ طبعا ضرورى .. نحن لا نستغنى عن المهندسين أبدا ..

ـــ ومتى تريدوننا ؟

ـــ الساعة الواحدة .. يعنى تركب عربتك وتأتى حالا ..

ـــ ومتى سننتهى ؟

ـــ علم هذا عند القائد ..

ـــ متشكر ..

ـــ مع السلامة ..

ووضع إبراهيم السماعة .. وهو يحس بقلق .. إلى متى سيطول المؤتمر .. وماذا يريد قائد الفرقة منه .. وكيف يترك ليلى وحدها ؟

على أية حال .. ليس هناك مفر من الذهاب .. والمؤتمر لا يمكن أن يطول أكثر من ساعة أو ساعتين على الأكثر ثم يعود بعدها إلى ليلى ..

وسارت العربة تنهب به الطريق إلى رفح .. وفى خيمة أركان حرب الفرقة التقى بمراد .. وكان قد سمع ضجيجه وهو فى طريقه إلى الخيمة .. ولم يكد يراه حتى أقبل عليه متسائلا :

ـــ ماذا أتى بك إلى هنا ؟

ـــ المؤتمر ..

ـــ مؤتمر ؟!.. وماذا تنوى أن تقول فى المؤتمر ؟!

ـــ لا أنوى أن أقول شيئا .. إنى سأستمع فقط وأجيب إذا ما سئلت عن أى شىء أستطيع الإجابة عنه ..

ـــ ألم تحضر مؤتمرات قبل هذا ؟

ـــ لا ..

— اسمع .. أنا حضرت مئات المؤتمرات قبل هذا .. وخرجت منها كما دخلت فيها .. لت وعجن .. وعجن ولت .. نحن نريد أسلحة .. دبابات ومدافع .. والمؤتمرات للأسف لا تلد لنا إلا كلاما وحكما ..

وبدأ المؤتمر .. وقيل فيه كلام كثير .. سرح إبراهيم فى معظمه .. ولم يحس بندم كثير .. فقد أحس بتفاهة الجزء الذى استطاع ذهنه أن يلتقطه .. فى الهنيهات التى كان ينصت فيها إلى المؤتمر ..

وطال المؤتمر .. وطالت المناقشات فيه .. وأحس إبراهيم بقلقه يتزايد كلما أوشك النهار على الانتهاء ..

كان يكره أن يترك ليلى وحدها .. إذا ما سقطت الظلمة ..

وكان يخشى أن يكون القدر قد نوى السخرية منه .. وأن رحيل مديحة .. ورحيل مراد .. عن البيت .. سيعقبه رحيله هو أيضا .. وأن بيت الأحلام قد خلا حتى منه ..

ولكن قلقه لم يطل .. وما لبث المؤتمر أن انتهى .. وأسرع إبراهيم يقفز إلى عربته ومراد يلوح له مودعا وهو يهتف به :

— مع السلامة .. سلم لى على ليلى .. وخذ بالك منها .. لا تتضايق منها لأنها دلوعة .. احتملها حتى أعود .. وسأحاول أن أخطف رجلى إليكم فى كل فرصة أستطيع فيها التزويغ ..

وانطلقت العربة عائدة بإبراهيم فى ظلمة الليل إلى العريش .. ونصيحة مراد ما زالت تطن بأذنه « احتملها حتى أعود » .. يا للسخرية .. إنه يتمنى لو احتملها طول العمر ..

الفصل الثانى والعشرون

بـــلا نهـــاية

كانت الأمطار قد أخذت تتساقط .. واشتد عصف الريح .. خيم الصمت إلا من طرق قطرات المطر على النوافذ والأسطح .. ولطم موجات الريح لأفرع الشجر وفحيحها بين أوراقها .. وطرقعة شرر يتطاير من راكية نار حولها المراسلة والجناينى يصطليان بدفئها فى كشك الحديقة ..

وداخل الدار رقدت ليلى على الفراش وقد بدا عليها شرود شديد وجلست أمامها نهى تحاول أن تقطع الصمت بكلمات متقطعة لا تلبث أن تذوب على شفتيها ..

كانت ليلى تحس بقلق شديد ..

كانت ترهف سمعها .. علها تسمع صوت وقوف عربة .. أو دق جرس .. وكان السمع يخدعها .. بأصوات سرابية مستمرة لعربة تقف وجرس يدق .. وكانت تشد يدها على الوسادة وترفع رأسها .. هاتفة بنهى :

ـــ أحد بالباب .. أسمعت دقا ؟

وتنصت الفتاة برهة ثم تهز رأسها قائلة :

ـــ لا أحد هناك ..

ويغرق كل منهما فى صمت .. وينطلق بهما الذهن فى جولته الهائمة .. وراء هذا « الأحد » الذى يجلسان فى انتظاره ..

لماذا طالت غيبته ؟

إنه لم يفعلها من قبل .. لم يغب قط عن البيت مثل هذه الغيبة .. إنه دقيق

المواعيد .. منتظم الروحات والغدوات ..

أتراه قد ذهب إلى الخطوط الأمامية .. إلى قلب المعركة ..

من يدرى .. يحتمل أن يكون هو الآخر قد أمر بألا يغادر مواقعه ..

وأحست ليلى بعبء يجثم على صدرها ويثقل أنفاسها .. ولعله أيضا .. فى طريقه إلى القتال .. أو هو يقاتل فعلا ..

ولكن أى دور يمكن أن يقوم به فى المعركة .. لقد سمعت من مراد .. أن المهندسين لا يحاربون .. وإنما هم يساعدون فقط فى المعركة .. يبثون ألغاما .. أو يرفعون ألغاما .. ينسفون طريقا .. أو يصلحون طريقا ..

وأحست بنوع من الطمأنينة .. ما لبث ذهنها حتى نفضها .. وعاد يمعن فى إقلاقها ..

إنه على أى حال فى أرض المعركة .. ومحتمل أن يصيبه لغم .. أو تصيبه طلقة طائشة ..

وبدأ ذهنها يضع التفاصيل .. ويصور الدقائق .. وأحست بالألم يعتصر جوفها .. وضغطت على شفتها حتى تمنع نفسها من البكاء ..

وحاولت أن تطرد عنها الوساوس .. ومقنعة نفسها بأن غيبته لا تحتم خوضه معارك أو اشتراكه فى قتال .. وإنه قد يأتى بين لحظة وأخرى ..

وعادت تتساءل مجيبة على محاولات التهدئة ..

ولكن لماذا لم يخبرها ..

ما ضره لو أنبأها فى التليفون أنه سيتأخر ؟

أترى لو أن مديحة موجودة .. هل كان يفعل هذا ..

هل يتركها بلا كلمة واحدة ..

ولكن مديحة زوجته .. وهذا حقها عليه ..

وملأت نفسها مرارة أليمة ..

أجل .. أى حق لها فى أن تطلب منه الاستئذان فى التأخير .. إنها لم تطلب هذا من زوجها .. إن مراد يغيب بالليالى دون أن ينبئها أو يستأذنها ولم تشعر مرة واحدة بالقلق عليه .. أو بالرغبة فى لومه ..

ومع ذلك فهى ترتجف الآن جزعا وقلقا ؟..

لماذا ؟!

لأنها تحبه ؟!

وما آخرة هذا الحب .. وما جدواه ؟!

حرمان أبدى .. أم علاقة أثيمة محرمة ؟

لو أن الأمر .. كان بيدها وحدها ..

لو أن المسألة .. كانت مسألة ارتباطها هى .. لما بدا بمثل هذه الاستحالة ..

إنها لم تحس يوما ما .. بارتباط روحى .. مع مراد .. ولا تعتقد .. أنها يمكن أن تحس به .. لأن مراد كائن بلا روح .. إنه مجرد جسد مندفع كالصاروخ .. لا يمكن أن يأتلف مع غيره .. أو يعبأ بمن حوله ..

وفى أيامها الخالية .. طالما تاقت .. إلى الإلف الحنون .. إلى النظرة الرقيقة .. والمسة المطمئنة .. والأذن المنصتة .. والبسمة العذبة ..

لقد افتقدت كل هذا طوال حياتها .. إنها لا تكاد تذكره إلا فى أمها الراحلة .. منذ أمد بعيد .. وهى بعد طفلة لا تذكر الأحداث إلا وقائع مهزوزة هائمة كأنها الأحلام ..

ومرت بها حياتها بعد ذلك .. وهى وحيدة فى داخلية المدارس .. ثم ضمها البيت كغريبة مع زوجة أبيها .. وبعد ذلك التقطها مراد .. ليضعها فى بيته .. مجرد آلة .. تشبع نهمه عندما يحتاج إلى أنثى فى فراش ..

لا حب .. ولا حنان .. ولا ألفة .. ولا وداد .. ولا مشاعر متبادلة .. ولا رغبات مشتركة .. ولا .. ولا .. ولا شىء أبدا .. مما يشعرها بأنها مخلوقة

سامية .. ذات روح وقلب .. ومشاعر .. وأمانى وأحلام ..

حتى لقيت أخيرا هذا المخلوق المحرم ..

ولو كان الأمر بيدها .. لسألت مراد أن يعفيها ببساطة من ارتباطها به ..

إنه قطعا فى غير حاجة ماسة .. إليها بالذات ..

أية مخلوقة أخرى .. لها جسد طرى .. وصدر وساقان وأرداف .. يمكن أن تقضى حاجته ..

ليس لها فى اعتباره .. من الملامح الخاصة ما يميزها عن سواها ..

وليس هناك من الارتباطات ما يعذر عملية الانفصال .. لا أولاد .. ولا مشاعر .. ولا أية تعقيدات أخرى ..

وهو لا يعبأ بشىء .. ولا يقيم وزنا لشىء .. ولا جدال فى أنه سيعفيها من ارتباطها به .. بمنتهى البساطة ..

ولكن إبراهيم ..

هل يستطيع أن يخلى نفسه بمثل هذه السهولة التى تفكر بها ؟

هل ارتباطه مع طرفه الآخر .. يمكن أن يحل .. بنفس السهولة التى تتوقعها من طرفها الآخر ؟

لا تظن ..

ليست الحال واحدة فى الناحيتين ..

إنه فى حياته أكثر استقرارا .. ولولا اعتراضها طريقه .. لما كان هناك ما يجعل حياته أمرا غير طبيعى .. ولما بدا له أنها كانت يمكن أن تكون شيئا غير هذا ..

وهو مخلوق له ضمير .. لا يستطيع أن يبنى سعادته .. على شقاء الغير .. أو يطلب مزيدا من الهناء .. على حساب هناء الآخرين ..

هو يكره أن يتسبب فى إيلام إنسان .. ولو أدى هذا إلى منحه مزيدا من

الربح من حياته .. مهما كان هذا الربح حيويا بالنسبة إليه ..

إنها تعرف جيدا .. تعرف مدى إحساسه .. بمشاعر الناس .. وتقديره لآلامهم ..

ومن المستحيل .. أن يقدم على أمر .. يعرف أنه يسبب ألما لكائن ما مهما كان شعوره لهذا الكائن ..

وهو لا يكره مديحة .. لأنه لا يكره أحدا .. وهى تجزم أنه يحترمها ويقدرها ..

ومن أجل هذا .. تحس ليلى أن فك الارتباط بينهما .. مسألة لا يمكن إقناع النفس بها ببساطة .. حتى ولو على سبيل .. التمنى ..

ثم إن هناك .. نادية ..

هناك الحلقة التى تحكم .. الوثاق بينهما .. والتى تجعل الانفصال شاقا أليما ..

هناك الكائن الحى .. الذى يمثل .. الصلة الدائمة بينهما .. والتى تفتقدها هى مع الطرف الآخر ..

هناك المخلوق الذى سيظل معلقا بقلبيهما .. بيد هنا .. ويد هناك .. مهما فصلت بينهما الظروف .. وفرقت الأقدار .

أجل .. مسألة حريتها .. قد تبدو سهلة ميسورة أمام حريته فإنها شاقة عسيرة .. بل إنها .. لإنسان .. فى مثل خلقه .. تكاد تكون مستحيلة ..

فماذا يمكن أن تأمل بعد هذا ؟.

علاقة .. مستترة ؟

كيف .. وإلى أى مدى ؟.. وما نتيجتها ؟.. هل يمكن أن تستمر مدى الحياة ؟

هل يمكن .. أن يشد أحدهما إلى الآخر .. خفية .. وبلا عواقب ..

ولا نتائج .. إلى ما لا نهاية ..

مستحيل !!..

وأحست برأسها يوشك أن يتحطم .. وهى تجد نفسها تصل .. إلى نفس النتيجة التى تصل إليها دائما .. كلما خاض ذهنها فى التفكير والاستنتاج ..

وكرهت تفكيرها .. ولم تجد لنفسها مخرجا .. سوى الهروب منه ..

يجب ألا تفكر فى النتائج .. لتتركها للقدر .. يفعل بها ما يشاء ..

ليس من شأنها أن تدبر المصائر .. إنه من شأن القدر وحده ..

إنها لا تريد شيئا .. يكفيها جدا .. اللحظات التى تعيش فيها ..

ماذا يمكن أن تجنى من عمرها .. خير من تلك اللحظات المشرقة التى .. تضمها وإياه .. فى حب واحد .. ومشاعر وأمانى واحدة ليفعل القدر بعمرها بعد ذلك ما يفعل ..

لن تعبأ بكل ما يأتى به إليها .. « وقد يهون العمر إلا ساعة » .. فقط .. ليبعث به إليها الآن ..

لماذا تأخر ؟.. إنها لم تحس بحاجتها .. إلى شىء فى حياتها .. كما تحس بحاجتها إليه فى تلك الساعة ..

ونظرت إلى نهى .. وبعينيها نظرة التساؤل الجزعة اليائسة ..

وأجابت نهى مطمئنة :

— لا بد أنه قادم فى الطريق .. ما دام لم يقل أنه سيبيت خارج البيت ..

— ولكن ماذا أخره ؟

— لا بد أن هناك مشاغل .. إن الحالة ليست على ما يرام وقد سمعت من محمود السائق .. أن هناك تحركات فى جميع الخطوط .. وأن أمرا ما يوشك أن يحدث ..

وأحست ليلى بخوف من ذلك « الأمر ما » ..

ولكن نهى .. أطلقت الكلمة بغير خوف .. ولا خشية .. كأنها تريد ، وتتوقع ذلك « الأمر ما » .. ولم يكن وقوعه .. يخيفها .. رغم أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من اللهفة على عودة إبراهيم ..

كانت نهى حائرة .. فى مشاعرها ..

لقد تمنت دائما أن يشق لها إبراهيم طريق العودة .. كانت تضعه فى موضع فارس الأحلام .. يدك بسلاحه .. حصون اليهود .. ويمزق أوصالهم .. ويقذف بجثثهم إلى البحر ..

كانت تركز فيه كل أحلامها .. وأمانيها .. وكان وسيلتها للثأر من خسة اليهود .. وضعتهم .. ووسيلتها للعودة إلى أهلها الغائبين وأرضها الطيبة .. وربوتها الخضراء ودارها الرحبة .. وشمسها المشرقة .. كانت تريده أن يخوض المعارك .. من أجل وطنها المسلوب .. وقومها المشردين ..

كانت تتوق إلى أن يخرج ليضرب ويثأر .. ولكنه لم يكد يغيب .. حتى أحست بلهفة عليه ..

ولكنها لهفة .. بلا جزع ..

كانت أحاسيسها أبسط كثيرا من أحاسيس ليلى ..

كانت مشاعرها لا يشوبها إحساس بغيرة أو يأس لأنها لم تحس أن هناك من يشاركها فيه ..

كانت مطالبها منه .. تختلف تماما عن مطالب غيرها .. ولم تكن تضع نفسها أبدا طرفا ثالثا .. مع الطرفين الآخرين .. ليلى .. ومديحة ..

لم تكن فى مشاعرها نحوه .. تتطلع إليه كبشر .. بل كان فى أحاسيسها .. مجرد صفات .. تحتاج إليها .. وتتلهف عليها ..

كان حنانا .. يعوضها .. عن أهلها الضائعين ..

وكان قوة .. تعيد إليها وطنها .. المسلوب ..

ولم تكن ترى هناك منافسا لها .. فيما تطلب .. ولا كانت تحس أن أحدا .. يستطيع أن يسلبها .. ما تأمل منه .. ولا يشاركها ما ترجو فيه ..

ولم تكن تخشى عليه من المعارك .. ولكنها فقط كانت ترجو أن تكون إلى جواره ..

كانت تحس أنها تستطيع أن تفعل له الشيء الكثير ..

وكانت فى أحلامها .. لا تتركه وحده قط .. كانت تسهر على راحته .. كانت تعد له الطعام .. كانت تضمد جرحه .. كانت تحذره من العدو .. كانت تفعل له شيئا كثيرا ..

وكانت فى انتظارها قلقة ..

لا لخوفها من أن يكون قد ذهب إلى المعركة .. بل لخوفها من أن تكون معركة الأحلام قد بدأت .. دون أن تكون هى فى أثره .. ملاصقة له ..

كان يجب أن تنبهه إلى ذلك ..

كان يجب أن تحذره من أن يذهب إلى المعركة وحده ..

فقط .. لو عاد الآن ..

وانتهت نهى إلى نفس الأمنية .. التى انتهت إليها ليلى لو أنه عاد ..

ودق الجرس ..

دقا حقيقيا هذه المرة ..

وقفزت نهى إلى الباب .. وشدت ليلى قبضتها على الوسادة ومدت رأسها لترى الداخل ..

وفتح الباب .. ودخل إبراهيم .. مبتل الثياب معفر الوجه ..

وسأل فى لهفة :

— كيف حال ليلى ..

واسترخت ليلى فى فراشها متنهدة فى راحة ..

وأجابت نهى :

ــ بخير .. كيف حالك أنت ؟.. لماذا تأخرت ؟..

ــ لقد كنت فى مؤتمر فى رفح ؟..

وسار إبراهيم إلى حجرة ليلى ونهى تتبعه قائلة :

ــ ظننا أنك ذهبت إلى القتال .. وقد نسيت أن أرجوك ..

والتفت إليها إبراهيم متسائلا :

ــ ترجونى فيم ؟..

ــ ألا تذهب إلى المعركة .. إلا إذا أخذتنى معك ..

وضحك إبراهيم وتساءل فى دهشة :

ــ آخذك إلى المعركة ؟

وكان قد وصل إلى حجرة ليلى .. ووقف أمامها .. ينظر إليها فى شوق .. وأحس بنفسه لهفة جارفة على ضمها إلى صدره ..

ولكنه لم يملك إلا أن يقف صامتا أمام الفراش .. يرقبها فى حنان شديد ..

وابتسمت ليلى .. وقد تبددت من نفسها كل مشاعر اليأس والجزع .. ولم تعد تحس إلا بشعور عميق من الرضاء والراحة .. وتمنت لو مدت إليه ذراعيها ليأخذها فى صدره ..

ولكنها لم تجرؤ على أكثر من مد يدها .. تشد بها على يده .. وهمست قائلة :

ــ لماذا تأخرت ؟

ــ استدعونا إلى مؤتمر ..

ــ ولماذا لم تنبئنى ؟

ــ ظننت أنى لن أتغيب كثيرا ..

ــ لقد كدت أجن .. إياك أن تفعلها بعد ذلك ..

ــ إلى هذا الحد قلقت علىّ !..

— وأكثر من هذا ..

وكانت نهى قد غادرت الحجرة .. وهى تحس أن شيئا ما يوشك أن يقال ..

وأردفت ليلى وهى ترتعد :

— إنى دائما أعجز عن الشرح لو كانت المشاعر تُرى .. لأراحتنى كثيرا ..

وضغط إبراهيم على يدها وهو يحس بها مرتجفة باردة وقال هامسا :

— لا حاجة بك إلى شرح مشاعرك .. لأنى أحسها فى مشاعرى .. ليس علىّ لكى أعرف ما بك .. إلا أن أراجع ما بى ..

وصمت برهة ثم قال :

— أنت بردانة .. لماذا لم توقدى المدفأة ؟..

— لقد كنت فى غيبتك لا أفكر إلا فى شىء واحد .. هو عودتك ..

— أما وقد عدت .. فأظننا نستطيع أن نفكر فى أشياء كثيرة نفعلها معا .. سأذهب لأخلع ملابسى وأوقد المدفأة ..

وترك إبراهيم يدها ثم ذهب إلى حجرته .. فأبدل ملابسه ثم حمل بعض الوقود فملأ به المدفأة .. وأشعلها ..

وساءل نهى :

— أين إبراهيم الطباخ ؟

— لقد ذهب إلى بيته .. هل أعد العشاء ؟

— أهناك شىء جاهز ..

— أجل .. لا يحتاج إلا للتسخين ..

اختفت نهى فى المطبخ .. وعاد إبراهيم إلى ليلى وكانت قد جلست فى فراشها ترقب نيران المدفأة التى بدت من خلال الباب ..

وأمسك إبراهيم بيدها وأخذ يفركها بين يديه .. قائلا :

— ما زلت بردانة ؟ لن تؤثر فيك المدفأة وأنت على هذا البعد ..

وصمت برهة ثم تساءل قائلا :

— ما رأيك لو انتقلت أمام المدفأة ؟

— كيف ؟

وضحك إبراهيم مجيبا وهو يمد يديه ليرفعها من الفراش ..

— هكذا .. هل ترينها مشكلة ؟..

وسار بها يحملها من ذراعيها ببساطة كأنها طفلة .. وتملكتها نشوة عجيبة وهى تحس بجسدها مضموما إليه .. ورائحة جسده وأنفاسه تنفذ إلى أنفها ..

وكانت عملية النقل مفاجأة بريئة .. ولم يقصد من ورائها إلا مجرد النقل .. ولكنها مع ذلك كانت أمتع من كل عمليات العناق والضم ..

ووضعها على أريكة أمام المدفأة قائلا وهو يضحك :

— لم أكن أظنك خفيفة بهذا القدر ..

وضحكت ليلى مجيبة :

— مع أن بى نصف قنطار جبس ..

ووضع إبراهيم وسادة وراء ظهرها وجر الغطاء على ساقيها قائلا :

— أظن هذا خيرا بكثير من رقدة الفراش .. تستطيعين الآن أن تستمتعى بالمدفأة ..

وأقبلت نهى من المطبخ فذهلت من وجود ليلى أمام المدفأة وصاحت :

— كيف أتيت إلى هنا ؟..

ومد إبراهيم ذراعيه قائلا :

— على كرسى السلطان ..

وضحكت نهى قائلة فى خبث :

ـــ وأين يريد السلطان أن يتناول عشاءه ؟

ـــ أمام المدفأة طبعا .. سنتناول العشاء كلنا معا ..

وبدأت نهى تعد الطعام على منضدة صغيرة أمام الأريكة التى تتمدد عليها ليلى .. وعندما انتهت من إعداده قال إبراهيم :

ـــ اجلسى يا نهى ..

ـــ لقد تعشيت ..

ـــ متى ؟

ـــ الآن فى المطبخ .. أتريدان شيئا .. أم أستطيع الذهاب إلى النوم ؟

ـــ لماذا لا تجلسين معنا ؟

ـــ إذا لم تكونا فى حاجة إلىّ .. فإنى أفضل أن أستريح ..

وكانت نهى تحس أنها ثالث غير مرغوب فيها .. ولم يضايقها الأمر .. ولم تحس بغيرة ..

على النقيض .. لقد تملكها إحساس بالراحة وهى تشعر أن إبراهيم قرير هانئ ..

إنها تطلب منه أشياء أخرى غير التى يمكن أن تحصل عليها ليلى .. فلا داعى للغيرة ..

وهى تحب راحته .. أكثر من أى شىء آخر .. فلا مجال للضيق ..

وهى تستطيع بعد كل ما تأخذه منه ليلى .. ومديحة .. والآلاف غيرهما .. أن تجد منه .. ما تريد هى منه .. فعلام الأسف ؟

وعادت فى هدوء فاستقرت فى فراشها ..

وبعد برهة بدا البيت فى صمته العميق وسكينته التامة .. وقد أطفئ الضوء .. إلا من الألسنة الحمراء تتراقص فى جوف المدفأة .. وقد استند رأس ليلى على الوسادة .. وتمدد جسدها على الأريكة .. وأمامها قد جلس إبراهيم

ممسكا بكفها بين يديه .. محدقا فى وجهها الذى يتراقص عليه الضوء الأحمر وخصلة ذهبية قد تهدلت على جبينه ..

وملأ كل منهما إحساس عجيب بالراحة والاستقرار .. ولم يعد لديهما من أمل .. إلا فى أن يجمد الزمن وتطول جلستهما حتى تصبح بلا نهاية ..

الفصل الثالث والعشرون

الخيط القاتم

تمطى مراد فى فراشه السفرى داخل الكشك الصاج .. مادا ساقيه حتى حافة الفراش .. وذراعيه حتى ارتطمت إحدى كفيه بجدار الكشك البارد .. والأخرى بحافة المنضدة السفرى .. وتقلصت عضلات وجهه فى تثاؤب شديد دفع فكه السفلى حتى كاد يلامس عنقه ..

وأعقب تمطيه .. وتثاؤبه .. استرخاء شديد تركه كالجثة الهامدة .

وتمطى .. وتثاءب .. واسترخى ..

ثم تمطى وتثاءب واسترخى ..

وظل يمارس حركاته الثلاث .. دون أن تبدو عليه بادرة يقظة ..

كان مراد قد شبع نوما .. ولكنه لم يجد هناك مبررا لليقظة ..

أى شىء حوله يستحق يقظته ؟

وفتح عينيه نصف فتحة .. فوقع بصره من خلال رموشه المبللة بدموع التثاؤب .. على السقف الأسود المعرج ..

أى جديد فوق السقف أو تحته .. يستحق أن يستيقظ من أجله ؟

أما فوق السقف .. فلا يظن هناك جديدا ..

فراغ عريض .. تكدست فيه السحب .. وعوت فيه الريح ..

دبابات ومدافع .. ووجوه غبراء تسعى بينها كالنمل الحائر ..

ورئاسات حمقاء جالسة فى الخيام .. ومعها خرائط ، بلا مواقع .. وأوراق بلا أوامر ..

ولا أحد يدرى شيئا عن أى شىء .. كأنهم كلهم مجاذيب حول أضرحة الأولياء ..

أما أسفل السقف ..

وألقى نظرة عابرة على محتويات الكشك .. ثم أغمض عينيه مرة أخرى .. كأنما قد استخسر فيه النظرة ..

لا جديد هناك .. اللهم إلا سأكن احتل أحد الفراشات الخالية ..

عود طرى .. كان نصيب كتيبته من آخر حزمة حشت من الكلية الحربية ..

لقد احتل محسن فراش عسران .. واستلم سريته ..

إنه شديد الحماس .. فرح بدباباته .. وعساكره .. فرح بالنجمة التى فوق كتفه .. والخوذة التى فوق رأسه .. فرح بثياب الميدان التى يأبى إلا أن يرتديها كاملة ... نظيفة مكوية ..

إنه فرح لكل شىء .. حسن الظن بكل شىء .. وبنفسه شوق إلى الحرب .. التى رآها فى الأفلام .. وقرأ عنها فى الروايات ..

وقد سأله ذات مرة عما إذا كان يستطيع أن يأخذ دباباته ويذهب .. ليدق اليهود ثم يعود ..

ولم يقل له مراد أنه قد لا يعود .. أو قد يعود سائرا على قدميه .. كما فعل هو ..

لم يكن هناك ما يدعو لخذلانه .. ولهز الصورة الرائعة التى تملأ ذهنه ..

ألم يكن هو نفسه يحس بهذا قبل المعركة الأولى ؟

ألم يكن يتوق إليها ؟

ألم يخضها باستهتار .. وبلا إحساس بأى خطر ..

هل أحس والشظايا تتطاير من حوله والرصاص يصفر ويئز .. أن حياته

معلقة بخط سير هذه الأشياء الصلبة المارقة حوله ؟

هل خطر له أن وجوده فى خط سير هذه الشظايا أو الرصاصات أمر محتمل جدا .. وأن حركته .. أو حركتها لا تملك قوة — سوى قوة القدر — أن تضبط إحداها مع الأخرى لكى تمنع .. أو تحدث .. الالتقاء القاتل ؟

هل خطر بباله .. وهو يتحرك فى حماس فى أرض المعركة أنه ليس هناك أشد بساطة ولا أكثر احتمالا من قتله ؟

أبدا .. لم يخطر بباله هذا .. إلا بعد انتهاء المعركة .. وبعد أن وجد نفسه ما زال يسير ويتحرك ويتنفس كأى كائن حى ..

ترى هل تكون تلك هى أحاسيسه فى المعركة الثانية ؟

لا يظن ..

إن خير معاركنا .. هى المعركة الأولى ..

دعك من التجربة .. فالمعركة تحتاج إلى شجاعة الجاهل أكثر منها إلى علم المجرب ..

فلماذا يفسد جهل الصبى بالمعركة .. بعلمه بها وتجربته فيها ؟

ولم يملك وقتذاك أكثر من أن يجيبه :

— اصبر عليهم .. قريبا سندقهم معا ..

ولم يكن هناك جديد تحت السقف أكثر من هذا ..

العود الأخضر .. الشديد الحماس .. الشديد الفرحة .. الذى ملأ أحد الفراشات الخالية .. بجسده النحيل ووجهه البض الذى لم يغضن بشرته نبت لحية ولا تجاعيد تجربة ..

وقام مراد نصف قومة ..

وتمطى وتثاءب .. ولكنه لم يسترخ .. بل صاح بصوته الصاخب :

— مراسلة ..

ولم يجبه أحد .. كان الكشك خاليا والضباط الثلاثة قد انطلقوا إلى سراياهم ..

وتذكر أن عبد الرحيم أنبأه بالأمس أن هناك مؤتمرا عند قائد الآلاى ..

ومد يده إلى المنضدة فتناول الساعة .. وحرك سبابته وإبهامه على المسمار الصغير ليملأها ..

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ..

والمؤتمر فى التاسعة ..

ودلى ساقيه من الفراش وهو يحس بمزيد من السخط ..

ألم يشبعوا مؤتمرات ؟

وعاد يصيح بصوت أعلى ولهجة أحد :

ـــ مراسلة ..

وعاد صوت العسكرى مجيبا من الخارج :

ـــ أفندم ..

ثم اندفع إلى داخل الكشك محييا ..

وصاح به مراد :

ـــ اعمل شاى ..

وخرج العسكرى .. ومد مراد يده فتحسس ذقنه .. وحدث نفسه ساخطا :

ـــ لا بد من الحلاقة .. لست أدرى ما لزوم كل هذا الشعر .. عشر دقائق فى اليوم ضائعة فى الحلاقة .. أى ساعة فى الأسبوع .. أى ٥٢ ساعة فى السنة .. وأنا أحلق ذقنى وأنا فى الخامسة عشرة .. قبل أن تنبت .. أى قضيت من عمرى ألف ساعة فى الحلاقة .. سخافة .. لن أحلقها اليوم .. وليفعل سى زفت ما يشاء ..

وكان يعنى بسى زفت قائد الآلاى .. الذى لم يشك فى أنه سيلومه على ذقنه الطويلة .. وسيدعى أنه مثل سيئ للضباط والجنود ..

ومد يده إلى علبة الحلاقة ففتحها .. ثم صب بعض ماء الزجاجة فى الكوب الصاج .. وأخذ فى وضع الموسى فى العدة وهو يزفر قائلا :

ـــ نحلق وأمرنا إلى الله .. ونوفر الخناقة لسبب أهم ..

وبدأ الحلاقة ..

وشرد به الذهن فى أشياء كثيرة .. متناقضة .. اليهود الكلاب .. والبت كوثر الراقصة فى الكوفنت جاردن .. وضابط الصيانة الذى يعطل نصف الدبابات فى ورشته ..

وقطع عليه شروده المراسلة .. ودون أن يرفع بصره من المرآة الصغيرة المشروخة الموضوعة على المنضدة .. تساءل :

ـــ عملت الشاى ؟

ولم يجب العسكرى وبدا عليه التردد .. ورفع مراد نظره عن المرآة وصاح به :

ـــ أين الشاى ؟

وبلع العسكرى ريقه وأجاب :

ـــ ليس هناك جاز ..

ونظر إليه مراد فى غيظ وقال :

ـــ جاز ؟.. ومن قال إننى أريد أن أشرب جازا ؟

وتلجلج المراسلة وبدت عليه الدهشة .. وقال موضحا :

ـــ لا يوجد جاز .. ولا مؤاخذة .. لعمل الشاى ..

وصرخ به مراد :

ـــ اعمله ببنزين .. اعمله بحطب .. اعمله بنار جهنم .. امش هات

شاى ..

وعاود حلاقته متمتما :

— أهذه حال .. لا يستطيع الإنسان حتى أن يشرب فنجانا من الشاى .. طبعا ما داموا هم يستريحون فى قياداتهم لماذا لا يفعلون بنا هذا .. لماذا لا يرموننا فى المواقع ويحرمون علينا مغادرتها .. وإلى متى سنبقى فى مواقعنا .. ولماذا ؟.. قسما بالله لأنزلن العريش اليوم .. بل سأنزل كل يوم .. وملعون أبو الأوامر .. أجل .. لن أمكث ثانية واحدة بعد المؤتمر .. ما الذى يكرهنى على تنفيذ مثل هذه الأوامر البلهاء التى تعطى بلا مبرر ولا سبب ..

وأحس بوقع أقدام تقترب .. وظنه المراسلة .. ودون أن يرفع عينيه تساءل :

— أأحضرت الشاى ؟

وأجابهم صوت اليوزباشى عبد المنعم أركان حرب الآلاى قائلا له فى انزعاج :

— شاى إيه يا حضرة .. أمازلت تحلق .. والدنيا قائمة ؟!..

ونظر إليه مراد وأجاب فى سخرية :

— دعها قائمة .. مسيرها تقعد ..

— ليس هذا وقت مزاح ..

— ما شاء الله .. هل حددتم أيضا وقتا للمزاح .. هل عملتم له نوبة .. لماذا لم ترسلوا لنا إشارة بهذا ؟

— اسمع يا مراد .. إن هناك أوامر بالتحرك ..

— تانى ؟!.. نتحرك أكثر من هذا ؟!

— أجل ..

— إلى أين ؟.. نرتمى فى حضن العدو .. أم نعود إلى القاهرة ؟

— بل تعود إلى العريش ..

— العريش ؟.. لا .. بسيطة .. عز الطلب .. بعد بضع دقائق سأكون فى العريش .. عمرك أطول من عمرى .. قبل أن تدخل كنت مصمما على أن أعود إلى العريش بعد المؤتمر . إنى فى حاجة إلى حمام ساخن .. لو رأيت البانيو هناك ..

وصاح به عبد المنعم مقاطعا :

— مراد .. ليس هذا وقت مزاح .. لا بد أن تتحرك الكتيبة إلى العريش ..

ونظر إليه مراد فى دهشة وتساءل :

— الكتيبة ؟

— طبعا ..

— الكتيبة .. الكتيبة .. بدباباتها وعساكرها ؟

— أجل .. الكتيبة كلها لا بد أن تتحرك الآن إلى العريش ..

— ومواقعنا ؟.. والجبهة ؟.. هل نتركها خالية .. أمام تهديد اليهود ؟

— إن اليهود يهددون العريش ..

ونهض مراد كالملسوع وصاح مستنكرا :

— غير معقول .. لا يمكن أن تبلغ بهم الجرأة هذا الحد ؟!

— إنهم يتجهون إليها عن طريق العوجة .. متقدمين من بير سبع ..

— وماذا سنفعل نحن ؟

— ستتحرك كتيبتك لتكون قبل سقوط الظلام فى العريش .. لتعاون القوة المدافعة ..

وبدا التفكير العميق على وجه مراد وقال متسائلا :

— كيف سنتحرك ؟.. إننا نحتاج إلى وقت طويل ..

— ستنقل الكتيبة بالسكة الحديد .. لقد أعدت العربات وستكون بعد

نصف ساعة جاهزة للتحرك بالدبابات .. يجب علينا الآن أن ننقل الدبابات إلى الرصيف ..

ـــ هذه ليست مشكلة ..

ـــ ما هي المشكلة إذن ؟

ـــ إن نصف الدبابات عاطلة ..

ـــ ولِمَ ؟

ـــ أعطال صيانة ..

ـــ يا أخي نصلحها .. إن الصيانة كلها ستكون تحت أمرك .. هيا البس ثيابك بسرعة ..

وبعد برهة كانت الكتيبة كخلية النحل .. وكان مراد يتنقل بين السرايا فى انفعال وقلق .. وبدا الوجوم على الجميع وهم يتحركون بين الدبابات الرابضة .. وقد مدت مدافعها فى صمت .. كما يمد الكلب الرابض أنفه إذا ما اشتم ريح الخطر ..

مخلوق واحد .. هو الذى كان يتحرك فى حماس وجذل .

كان يصيح بالعساكر أن يسرعوا فى عملهم .. وأن ينشطوا فى حركتهم .. كان يصعد ويهبط من الدبابات ..

وكان يتحسس خوذته ليتأكد من وجودها .. ويثبتها جيدا على رأسه .. كمظهر من مظاهر المعركة التى يوشك أن يخوضها ..

كان محسن .. يشعر بالكثير من السعادة التى يشوبها القليل من الارتباك .. كأنما يوشك أن يبدأ لعبة جديدة طالت لهفته عليها ..

وبدأ السائقون يحملون الدبابات على عربات السكة الحديد .. وعندما انتهى تحميل جميع الدبابات وشدها إلى العربات ..

أقبل محسن على مراد يؤدى له التحية بشدة .. بعد أن ضرب كعبيه

ببعضهما كما يفعل الطلبة .. وقال فى حماس وابتهاج :

— تمام يافندم ..

ونظر إليه مراد وقد بدا عليه الشرود .. ولم يجب ..

وعاد محسن يقول وكأنه يتعجله :

— تمام يافندم .. الدبابات حملت .. متى نبدأ النسير ؟

وهز مراد رأسه وأجاب فى لهجة بها كثير من حماس الصبى :

— سنتحرك الآن ..

وعاد محسن يتساءل :

— هل سنبدأ المعركة بمجرد وصولنا ؟

وضحك مراد وأجاب :

— مستعجل على إيه يا أخى .. بكره تشبع حرب .. وضرب .. اصبر على رزقك ..

وتحركت القاطرة .. وعلا صفيرها وهى تشد العربات التى حملت فوقها الدبابات ..

ونظر مراد إلى العود الأخضر .. وهو يضحك فى مرح كأنه ذاهب إلى رحلة ..

وتذكر المعركة الأولى ..

وتذكر عسران ..

وأحس أنه يحتاج لبعض الجهد لكى يوقف المرارة التى أفعمت فؤاده .. ولكى يكبح الدمع الذى أوشك أن يتصاعد إلى مقلتيه ..

وأحس أنه يحتاج لجهد أكبر .. لكى يمنع ذلك الخيط القاتم من الخوف الذى أخذ يتسرب إلى نفسه ..

الفصل الرابع والعشرون

كيـف ودعتـك

استقر مراد فى العريش بما تبقى من الكتيبة بعد أن فرقت سراياها للعمل مع الوحدات المدافعة .. واحدة مع الكتيبة التاسعة المشاة .. وأخرى من آلاى السيارات .. غير التى بقيت فى رفح مع رئاسة الفرقة .

وكان الليل قد ادلهم .. وظلمة قاتمة تلف الوجود .. بعد أن حجبت السحب السوداء المخيمة فى السماء كل منفذ لبارقة ضياء .. وريح جنوبية لاسعة ينفذ صقيعها إلى العظام ويصفر فحيحها فى الآذان .

وقبع مراد وسط عربتين شد بينهما مشمع يقيه لسع الصقيع وعصف الريح .

وبدا المكان أشبه بالجحر الضيق أو القبو الموحش .. ولم تفلح محاولات المراسلة فى سد منافذ الريح فأخذت تصفر من أسفل العربات وتفح من وصلات المشمع .

وجلس مراد على الأرض فوق صندوق ذخيرة فارغ . وقد ارتدى أفرأول كاكى مبطنا بالفرو كان قد حصل عليه من مخلفات الطيران البريطانى . ورفع ياقته حتى حجبت أذنيه وصدغيه ولف حول رأسه وعينيه كوفية كاكية . وتكور فى جلسته ضاما ركبتيه بذراعيه إلى صدره وقد أخذ يلوك آخر لقمة من ساندوتش البلوبيف الذى بلعه برشفات من علبة البيرة الملقاة بين قدميه ..

وعلى ضوء الفانوس الهاريكين المتراقص .. بدا محسن وقد اتخذ مجلسه

منكمشا فوق صفيحة بنزين فارغة .. وقد زالت عنه أبهة ثياب الميدان بعد أن حشر جسده فى معطف الكلية الحربية الأزرق .. واستبدل بالخوذة المهيبة طرطورا من الصوف كبسه على رأسه حتى وصل إلى عنقه وحاجبيه .. وكانت أمه قد دست المعطف والطرطور فى حقيبته رغم أنفه .

كان محسن هو الوحيد الذى بقى مع مراد بعد أن تفرق بقية الضباط بسراياهم .. وتملكه ضيق بحقارة الجلسة .. ونظر إلى قائده القاعد القرفصاء على صندوق الذخيرة يلوك اللقمة فى استرخاء بين شدقيه .. وقد ألقيت أمام قدميه علبة البيرة الفارغة ..

وتذكر قيادات المعارك .. وما كان يتصورها عليه .. الخرائط المنشورة .. وإشارات اللاسلكى .. والأوامر المتتالية والحركة الدائبة ..

وبدت له قيادته .. أشبه بمأوى لشحاذين منها بمقر القيادات .. ووصل إلى سمعه دوى بعيد فتمنى لو أنه انطلق بسريته وسط الدوى وبين النيران .. بدلا من الانكماش فى هذا الجحر الموحش .. بجوه المقبض وحقارته المذلة ..

وطال الصمت .. صمت بغيض موحش .. لا يقطعه .. سوى كركبة العساكر وهمهمتهم ..

ورفع محسن رأسه وفتح شفتيه ليقول شيئا .. ولكنه ما لبث حتى ابتلع كلماته ..

وزفر مراد زفرة ضيق من أنفه .. وقال فى سخط وكأنما يحدث نفسه :

— مسخرة ..

ثم استغرق فى صمته دون أن يعلن لأحد عما هى المسخرة .. ولا من الذى فعلها ..

ولم يطل صمته هذه المرة .. ونظر إلى محسن وأردف قائلا :

— بعثروا الكتيبة .. مغفلين .. ماذا ستفعل الدبابات مع كتيبة المشاة ..

وما لزوم بقاء السرية التى تقيم فى رفح مع رئاسة الفرقة .. عياقة ؟!

ولم يعرف محسن بماذا يعلق .. ولم يدع له مراد فرصة التعليق .. فقد أردف وهو يرفع كتفيه فى استخفاف ..

ــ أنا مالى .. يفعلون بها ما يريدون .. إن شاء الله يبعثونها تسير فى المحمل .. أريح لى .. ولم يعد علىّ إلا أن أرسل بك أنت أيضا حيث يشاءون .. وحيث تشاء عبقرية قيادتهم .. ثم أجلس .. تحت المشمع لآكل بقية علب البلوبيف وأشرب بقية زجاجات البيرة .. وأتفرج عليكم .. عندما تعودون .. أو عندما لا تعودون ..

ــ ولماذا لم تقل لهم هذا ؟

ــ لكى يقولوا إننا جبناء ؟ أى اعتراض على أوامرهم .. تهمته الجبن .. ليفعلوا ما يشاءون .. إنى لست محدث قتال .. سأنفذ أوامرهم بلا اعتراض ..

وساد الصمت مرة أخرى .. وعادت الريح تصفر .. حاملة معها صدى الدوى البعيد ..

وقطع محسن الصمت هذه المرة وقد ضاق ذرعا بالجلسة الموحشة البغيضة .. وتساءل فى قلق :

ــ متى سأتحرك ؟

ــ ولماذا العجلة ؟

ــ إنى أتوق لخوض المعركة ؟

ونظر إليه مراد نظرة فاحصة .. وكاد يقول له « اتلهى » ولكنه بلعها .. ولماذا يحطم معنويات الصبى .. ألا يكفى كل ما حوله من محطمات .. إنه « سيتلهى » بعد المعركة .. فلماذا يتعجل « اللهو » له ..

وأجاب مراد فى لهجة تطمين وتأكيد :

ــ حالا .. لن يطول بك الانتظار .. غير معقول أن يتركونا نتفرج على

المعركة .. إنهم فى حاجة إلى كل مدفع وكل طلقة .. لا بد لكل منا أن يأخذ يدا فى المعركة ..

ولم يكد ينتهى من قوله .. حتى سمع صوت عربة تقف فى الخارج أمام المأوى .. وسمع صوتا يسأل :

— أين القائد ؟..

وصوتا يجيب :

— هنا يافندم ..

واقتربت الأقدام من باب المأوى وانحنى اليوزباشى عباس ضابط إشارة الآلاى ودلف إلى المأوى وتحرك منحنيا تحت المشمع متلفتا حوله حتى أبصر مراد فى جلسته المتكورة فجلس أمامه على ركبتيه وأخذ يفرك يديه وينفخ بأنفه .. وقد تدثر بمعطف كاكى ثقيل وهتف فى عجلة وجزم :

— سرية تتحرك حالا .. إلى تقاطع الطريق القادم من أبو عجيلة ..

وأجابه مراد فى غير عجلة ولا جزع :

— حاضر ..

واستمر عباس فى أوامره العجلى الجزعة :

— ويقدم قائدها نفسه إلى قائد المدفعية ليعمل تحت إمرته ..

ورفع مراد حاجبيه .. وهو متكور فى جلسته وتساءل فى غيظ :

— تحت أمره ؟

— أجل ..

— أمر قائد المدفعية ؟ لماذا ؟

— هذه هى الأوامر ..

— أينوون أن يستخدموا الدبابات مدفعية ؟

— ليس هذا وقت مناقشة .. إن اليهود يقتربون بدباباتهم من الطريق

الجنوبى .. ولا بد من وقفهم .. وأنتم أقرب قوة إلى القطاع .. يمكن تعزز الدفاع فيه ..

وهز مراد كتفيه وقال فى استخفاف :

ــ أمركم .. ستتحرك السرية كما تريدون ..

ونهض عباس من مكانه وهو يؤكد فى لهجته العجلى الجزعة :

ــ تتحرك حالا .. لقد نزل اليهود من بير سبع إلى الخلصة والعسلوج وهاجموا آلاى السيارات والكتيبة الخامسة الموجودين أمام العوجة .. وهم مستمرون فى اتجاه العريش ..

وغادر عباس المأوى وسمع صوت عربة تدور ثم صوت احتكاك عجلاتها بالرمال يتحرك فى عنف ..

ورفع مراد بصره إلى محسن .. ورمقه فى شرود قائلا :

ــ لم تنتظر كثيرا ؟

وبدا له وجهه وقد كبس الطرطور الصوفى الأبيض فى رأسه بملامحه الدقيقة .. وبشرته الملساء كأنه وجه طفل .. وانطلق منه سؤال مفاجئ .. لا يمت بصلة إلى الأوامر التى يتوقعها محسن :

ــ من أين لك بهذا الطرطور ؟

وعلت حمرة خفيفة وجه محسن وابتسم قائلا :

ــ أعطته لى أمى ..

ــ أهى تحبك كثيرا ؟

ودهش محسن من أسئلة قائده فى هذه اللحظة الدقيقة الحرجة التى تلقى فيها نبأ اقتراب اليهود من العريش .. وساوره شك فى أن يكون قد ثمل ولكنه لم يملك إلا أن يجيب :

ــ أظن هذا ..

ـــ ماذا فعلت عندما أتيت إلى هنا .. قل الحق .. لا تحاول أن تصفها بشجاعة لا وجود لها فى صدر أمهاتنا ؟

وأطرق محسن وأجاب :

ـــ لقد بكت طول الليل !!

ـــ وكيف ودعتك ؟

وتذكر محسن أمه وهى تضمه إلى صدرها وعيونها هامية تبلل وجهها ووجهه .. وأجاب فى ضيق :

ـــ كما تودع الأمهات أبناءهن ..

ـــ هل قالت لك لا تقطع الرسائل .. ولا تطل غيبتك ؟

وأطرق محسن برأسه ولم يجب ..

ولم يدر مراد ماذا دفع بعسران إلى رأسه فى هذه اللحظة وتخيل الدبابة المشتعلة المتفجرة ..

وتصور الفراش الخالى سيخلو مرة أخرى .. والأم التى تنتظر رسائل الصبى .. وتتلهف على عودته .. لا يصلها سوى نبأ استشهاده .. ولا تلقى سوى .. بقاياه .. إن استطاعوا الحصول عليها ..

ونظر إلى الصبى ذى الطرطور الأبيض والمعطف الأزرق الذى وقف ينتظر أمر التحرك .. أو .. أمر الموت ..

وأحس مراد بمرارة فى حلقه .. لم يدر .. من البلوبيف والبيرة .. أم من هواجسه ..

وفجأة نهض من فوق صندوق الذخيرة .. واتجه إلى باب المأوى ومحسن فى أثره ..

وبين صفير الريح .. والدوى البعيد .. علا صوته الأجش .. مصدرا أوامره لمحسن :

ـــ اسمع .. ستبقى أنت مع الحملة .. وسأذهب أنا مع السرية .. مفهوم ؟
ودهش محسن وبدت على وجهه إمارات الخيبة ..
ـــ ولكن .. إنها سريتى أنا .. ولا بد أن أقودها ..
ـــ قلت لك إنى سأقودها وستبقى أنت ..
ـــ ولكنى لا أرغب فى البقاء ..
ـــ وأنا لا أرغب فى قتلك .. أنت ما زلت حديثا ولا يجب الزج بك فى معركة منفردا ..
ـــ ولكننى أستطيع ..
ـــ كفى غلبة .. إنك لن تستطيع شيئا .. بمجرد أن تنفرد وحدك بالسرية ستحس أنك ضائع .. تائه .. إنى أعرف هذا الإحساس جيدا .. والعملية ليست سهلة ..
وتحرك مراد بضع خطوات ونادى بصوته الصاخب ..
ومن الظلام أجابه صوت :
ـــ أفندم ..
ـــ نادى الباشويش بقرى والجاويش حنفى ..
واستمر مراد سائرا تجاه الموقع الذى وقفت فيه سرية محسن وبعد لحظة بدت أشباح تهرول ناحيته .. ووقف بقرى وحنفى يحييان فى الظلام ..
وبلهجة حاسمة قال مراد :
ـــ اسمع يا باشاويش .. سأتحرك الآن بسرية محسن أفندى .. وسيبقى محسن أفندى مع الحملة ورئاسة الكتيبة .. لا أريد بوظان .. مفهوم ؟
ـــ مفهوم يافندم ..
ـــ وأنت يا حنفى .. سنتحرك الآن .. حالا .. إلى مفترق الطرق للعمل مع المدفعية .. إن اليهود يقتربون من العريش .. هل الدبابات جاهزة ؟

ورد محسن بمرارة :

ـــ جاهزة تماما .. تمنيت أن تتحرك فى رئاسة .

ونظر إليه مراد ومد يسراه فأمسك بكفه الأيمن وسارا متجاورين فى الظلمة إلى الدبابات ..

وقال مراد فى لهجة اعتذار :

ـــ لا تضق بى يا محسن .. إن العملية أشق من أن تقوم بها وحدك .. والمعارك أمامك كثيرة .. عندما يشتد عودك ستشبع مرمطة .. إنك لم تعرف العساكر ولا الصف ضباط بعد .. أنت ما زلت غريبا على الكتيبة .. وعلى الدبابات .. ابق الآن .. اجلس واكتب إلى أمك لتطمئنها عليك .. وبلغها تحيات قائدك .. الذى ذهب ليقود السرية بدلك .. وقل لها أن تدعو له بالسلامة ..

الفصل الخامس والعشرون

حساب خاص

وصل مراد ومحسن إلى الدبابات .. وقبل أن يصل مراد إلى الدبابة .. سمع صوت عربة تقترب ووقفت العربة .. ثم علا صوت اليوزباشى عبد الرحمن أركان حرب الآلاى يصيح متسائلا :

ـــ أين حضرة اليوزباشى مراد ؟

وأجاب مراد صائحا :

ـــ هنا يا عبد المنعم .. عند الدبابات ماذا تريد ؟

وسار عبد المنعم تجاه مراد واقترب منه .. حتى كاد يلامسه .. ثم أسرَّ إليه هامسا ..

ـــ سعادة القائد أمر بأن تتحرك أنت مع السرية ..

وأحس مراد كأن الجملة قد لطمته .. وضغط على أضراسه حتى يكتم غضبه وقال متسائلا :

ـــ أنا أذهب مع السرية ؟

ـــ أجل أنت ..

ـــ ولماذا لا يذهب بها قائدها .. ما دام لها قائد ..

ـــ تلك هى أوامره ..

ـــ أنا قائد كتيبة .. ولست قائد سرية ..

ـــ ليس هذا وقت مناقشة .. إن اليهود يقتربون .. والعملية خطيرة .. وقد أمر القائد بأن تقود السرية .. وأنا هنا لإبلاغ الأمر .. ليس لشرح أسبابه .. أمر

يعنى أمر ؟

وتذكر مراد أمر المعركة الأولى .. الأمر الانتحارى .. ثم تذكر الرتبة الضائعة والنيشان المفقود ..

هذا إذن أمر انتحار جديد ..

إن سعادة القائد يأبى إلا أن يمنحه فرصة أخرى للموت ..

لقد ضاعت عليه الفرصة الأولى .. ومن حقه أن يمنحه فرصة جديدة ..

وملأت المرارة صدر مراد .. وأفعم الحقد نفسه ..

لقد نوى من تلقاء نفسه أن يقود السرية .. لأنه كره أن يصدر للصبى الصغير أمرا بالموت ..

أما وقائده .. يأبى إلا أن يصدره له .. فهو لن يذهب ..

وانفجر فى عبد المنعم قائلا :

— قل لقائدك .. إنى لن أذهب .. قل له إنه وأوامره على حذائى .. إنى قائد كتيبة .. ولن أقود سرية .. إذا كانت العملية خطيرة .. فليأت ليقودها هو .. أم تراه ينوى أن يأخذها باردة هذه المرة أيضا .. كما أخذها فى معركة التبة ٨٦ ..

ونظر إلى محسن الذى وقف ينظر إليه فى دهشة وقال له :

— محسن أفندى .. تفضل قد سريتك ..

والتفت ثانية إلى عبد المنعم قائلا فى حدة :

— تفضل .. قل لقائدك إنى رفضت أن أخرج بالسرية .. ودعه يحاكمنى ..

وهز عبد المنعم كتفيه وأجاب فى يأس :

— كما تشاء .. لقد نقلت إليك الأوامر وأنت حر فيما تفعله بها ..

وركب عبد المنعم عربته وانطلق فى الظلمات ..

ونظر إليه مراد حتى اختفى .. ثم حول بصره إلى محسن وقد اعتلى دبابته .. وبدأ يصدر أوامره إلى الشاويش حنفى ..

وأحس مراد أن رأسه يوشك أن ينفجر .. ما هذا الذى يفعله ؟

ألم يكن هو من تلقاء نفسه ينوى أن يتحرك بالسرية ..

ألم يسلم بخطورة المعركة .. وبعجز محسن عن خوضها وقيادة السرية فيها .. وبضرورة تسلمه هو لها ..

لماذا بعد كل ما رأى .. يغير رأيه ؟

أبمجرد العناد والغضب ؟

أيحكم على الصبى الصغير بالقتل .. لمجرد أنه توهم أن قائده يريد به شرا ..

وما ذنب محسن فى نوايا قائد الآلاى ..

ثم .. ما ذنب المعركة نفسها ؟.. أتضيع من أجل مجرد عناد وحقد وغضب ؟

أيضيع الجيش .. والبلد .. من أجل عناده مع قائده ..

غير معقول ؟!

غير معقول أن يقدم على مثل هذه النذالة ..

غير معقول أن يصم نفسه بهذه الوصمة ..

يجب أن يخوض المعركة .. من أجل أم الصبى ومن أجل الكتيبة والآلاى والفرسان والجيش والبلد .. ومن أجل المعركة ذاتها ..

ودارت الدبابات وهمت بالتحرك ..

ليؤجل حسابه الآن مع قائد الآلاى .. وبعد المعركة — إن عاش — فله معه حساب عسير .. لا بد أن يقتله .. ويشرب من دمه ..

وأحس بشىء من الراحة ..

وقبل أن تتحرك الدبابة الأولى انطلقت صيحته :

— محسن ..

وأجابه محسن من فوق الدبابة :

— أفندم ..

— انزل ..

— لماذا ..

— سأقود أنا السرية ..

— ولكن .. إنى ..

وصاح به فى حدة :

— قلت لك انزل يعنى انزل .. هذه أوامر .. أليس عندك ضبط وربط ..

ونسى كيف قال لعبد المنعم أن أوامر قائد الآلاى على حذائه ..

وقفز إلى الدبابة وشد ياقة الأوفراول حول عنقه .. وهبت الريح عابثة بشراشيب الكوفية ..

وبدأت الدبابات فى التحرك وقد علا ضجيجها حتى غلب صوت الريح وصوت الدوى البعيد ..

وبين الضجيج والصفير والدوى شرد ذهن مراد فى المعركة الجديدة التى يوشك أن يخوضها ..

ولم يجد الخيط القاتم من الخوف الذى أوشك على التسرب إلى نفسه مجالا ليستشرى ويستفحل .. لقد سدت عليه السبل .. أحاسيس الغضب والحنق .. وبددته طبيعة مراد المستهترة المندفعة القوية ..

وأحس مراد برغبة عنيفة فى القتال .. قتال الناس جميعا ..

كان يستبطئ سير الدبابة .. ويود لو اندفعت كالصاروخ لتضعه وجها لوجه أمام العدو ..

كان يحس بكره عميق وحقد شديد على اليهود .. هؤلاء الكلاب قد ملأوا

نفسه بالمرارة ..

إن بينهم وبينه مسألة شخصية ..

وبينه وبينهم قضية خاصة ..

دعه من القضية العامة .. قضية اعتدائهم الوحشى الصارخ على شعب آمن وادع .. سلبوه أعز ما يملك .. سلبوه موطنه .. أرضه .. ماءه .. سماءه .. هواءه ..

مزقوا شمله .. ونهبوا ماله .. يتموا أبناءه .. وبقروا بطون حبالاه ..

دعه من فظائعهم .. وظلمهم .. وتبجحهم .. وسفالتهم ونذالتهم .. دعه من مساوئهم الطبيعية .. واعتداءتهم العامة فسيسويها .. حساب عام بينهم وبين العرب .. وحساب أعم .. بينهم وبين الله ..

دعه من كل هذا ..

إن الذى يشغل ذهنه الآن .. حساب خاص .. بينه وبينهم ..

ذلك هو الذى يؤجج صدره .. ويشعل حقده ..

إن بينه وبينهم .. ثأرا شخصيا ..

بينه وبينهم .. دم عسران ..

الصعيدى .. الذى سفكوا دمه .. دون أن يأخذ بثأره أحد ..

ومن أحق بأخذ الثأر منه ؟

لا يكفيه عشرة من الأنجاس المناكيد .. سيجعلهم .. خمسة عشر .. أو عشرين إن أمكن .. وسيذهب بنفسه إلى أبى عسران الصعيدى .. ليطفئ غلته .. ويبرد ناره .. وينبئه أن ثأر ابنه لم يضع .. ويصف له كيف قتل العشرين نجسا .. وكيف أحرق جثثهم .. وروى الرمال بدمائهم ..

وبعد ؟!

هل هذا هو كل ما بينه وبين العدو .. لا .. لا .. هناك معركته

الخاسرة .. وكتيبته المشتتة .. ودباباته المحطمة .. هناك مذلة أخفضوا بها رأسه .. حين عاد بعد المعركة .. وهو ضابط الفرسان الراكب أبدا .. سائرا يجر ساقيه ذليلا .. مهينا ..

حقيقة أنهم هزموا وارتدوا ..

ولكنه لم يذق حلاوة النصر .. ذاق علقمه .. وشرب مرارته .. شخصيا .. لم يعتبر نفسه منتصرا .. إن المعركة كانت فى حسابه الشخصى هزيمة ..

أما الفائز .. المنتصر .. الذى كسب المعركة دون أن يخوضها ..

والذى ذاق حلاوتها .. وترك له المرارة فهو عبد الرحيم .. ومعه بسلامته .. قائد الآلاى ..

ودفع ذكر قائد الآلاى .. فى نفسه بشعلة جديدة من الحقد .. بعد أن كادت الأولى تخبو بأحلام الثأر وأمانى الاقتصاص ..

هذا هو خصمه الثانى .. بعد اليهود ..

ألا يريد هو الآخر موته ؟

لا فرق بين الاثنين سوى أن القائد يريد أن يقتله .. والعدو سيقتله دون أن يريد .. واحد يدفعه إلى المذبح .. والآخر .. يذبح ..

ألم يدفعه مرتين إلى الموت ؟

لقد نجا فى المرة السابقة ..

وفى هذه المرة .. سينجو أيضا ..

ولكنه لن يعود سائرا على قدميه .. بل معتليا برج دبابته .. سيعود منتصرا بعد أن يصد هجوم اليهود .. ويبيد قواتهم .. وسيسير بدباباته حتى خيمة القائد .. ولن يتوقف أمامها .. بل سيخترقها ويدوس على من فيها ..

ولكن لا .. لن يشفى هذا غليله .. لأنه لن يرى من فيها .. سينزل من

الدبابة .. ويدخل فى هدوء إلى الخيمة .. ويقبض على زمارة رقبة القائد .. ثم يجره إلى الخارج .. ويجمع الآلاى .. والفرقة إذا أمكن .. ثم يرنه علقة .. جامدة .. يضحضحه ويمرمط به الأرض .. ثم يجره من ساقيه إلى الخيمة .. ويصرف الآلاى .. أجل هذا خير حل .. علقة كفاية .. لا داعى للدهس .. أو الذبح أو شرب الدماء .. إن دمه ثقيل ولا يصلح للشرب ..

وأحس مراد بالكثير من الراحة .. وابتسم لنفسه فى الظلام وبدأ ينقل ذهنه إلى أشياء أجمل .. إلى ريتا .. وكوثر .. والمرأة التى أبصر ردفيها على محطة ترام شبرا .. و .. و ..

ولم يتم تفكيره .. فقد لاح لعينيه وسط الظلمات شبح عربة همبر مدرعة تقف على تقاطع الطرق .

وعندما اقترب منها صاح بالسائق :

— قف ..

وقبل أن يصيح مستفسرا .. عن أصحاب العربة .. سمع صوتا يصيح به متسائلا :

— مراد ؟

ولم يصعب على مراد أن يميز فى الصوت .. صوت قائد الآلاى .. الذى لم يفرغ من ضربه العلقة إلا منذ بضع ثوان ..

وأحس بمراجل الغضب تغلى فى جوفه .. لقد أتى ليتأكد بنفسه .. من أنه فى طريقه إلى الموت ..

ماذا يفعل به .. أيدخل عليه بالدبابة فيحطمه هو وعربته ؟

أيصوب عليه المدفع .. وبناقص طلقة .. وبناقص قائد آلاى ؟

ولكن ليس هذا وقته ..

إن أمامهم معركة .. ودم عسران لا بد أن يؤخذ بثأره .. ومذلة المعركة

الأولى لا بد أن ترفع ..

وأكثر من هذا .. العريش .. لا بد أن تنقذ ..

لا بد من الصبر ..

ليس أثقل على نفسه المندفعة الثائرة من الصبر .. ولكن ماذا يفعل ؟ لا بد من المعركة أولا ..

وعاد الصوت يتساءل مرة أخرى :

ــ مراد ؟

وأجاب مراد وهو يكظم غيظه :

ــ أفندم ..

ــ مساء الخير ..

ــ مساء النور ..

ــ كيف حالكم .. السرية جاهزة ؟

ــ جاهزة ..

ــ الذخيرة كفاية ؟

ــ كفاية ..

واقتربت العربة من دبابة مراد .. وهدأت نبرة الصوت وقال القائد في صوت أخفض ولهجة أرق :

ــ وأنت .. كيف حالك ؟

وحدق مراد فى وجه القائد فى دهشة من تلطفه .. وكان عبد المنعم يقف فى العربة بجواره ..

وأجاب مراد فى خشونة :

ــ أيهمكم حالى ؟

ــ طبعا .. مَن عندنا غير مراد يسد فى الزنقات ..

ــ ألهذا تدفعون بى إلى الموت ؟

ــ لا موت هناك .. ستعود سليما منتصرا إن شاء الله .. لا ينفع فى هذه المعارك غيرك يا مراد .. لهذا أمرت بأن تقود أنت السرية .. أتذكر العملية السابقة ؟

ــ العملية الانتحارية ؟ التى دبيتمونى فيها وحدى .. ولففتم حول المعركة مع عبد المنعم ؟

وأحس القائد بما فى قوله من سخرية ومرارة .. فأجاب ضاحكا :

ــ بالضبط ! هذه هى عملية انتحارية أخرى .. ولكن هذه المرة لن أدبك فيها وحدك .. ولن ألف حول المعركة .. كما قلت .. بل سأتقدم أمامك .. وأندب فى المعركة ..

وحملق مراد فى دهشة شديدة .. ولم يصدق أذنيه ..

وأردف القائد يأمر السائق بالتقدم وهو يقول لمراد ضاحكا :

ــ سأسبقك إلى الانتحار .. أيها العجل الطيب الجرىء ..

وقبل أن تتحرك العربة صاح مراد متسائلا فى دهشة :

ــ ولكن لم أكن أنوى أن أنفذ أوامرك .. لقد كنت مصمما على ألا أقود السرية ..

ثم التفت إلى عبد المنعم قائلا :

ــ ألم تقل له ؟

وأجاب عبد المنعم وهو يهز رأسه :

ــ لم أقل له شيئا ..

ــ لماذا ؟

ــ لأنى كنت واثقا أنك ستخرج مع السرية .. أنا أعرفك جيدا يا مراد وأعرف أنك كنت ستخالف الأوامر .. إذا قلنا لك ابق ..

وتحركت العربة المدرعة .. وتحركت الدبابات حتى وصلت إلى التبات المقاطعة للطريق والتى احتلتها المدفعية ..

وبدأت الدبابات تتخذ مواقع دفاعية مستترة وراء التبات لا يبدو منها سوى فوهات مدافعها .. المطلة على الفراغ المظلم العريض .. كأنها عيون ساهرة مترقبة ..

وجلس مراد يرقب الظلمات .. وبنفسه قلق واضطراب وهو يتوقع ظهور أشباح الظلام بين آونة وأخرى .. وأذناء مرهفتان .. منصتتان .. إلى الطلقة الأولى التى ستؤذن بالمعركة .. وإحساس مريح يملأ نفسه .. وهو يشعر .. إنه لم يعد له إلا خصم واحد .. هو ذلك المقبل عليه من الظلمات .. أما قائده .. فقد ظلمه كثيرا بسوء ظنه ..

لا بأس عليه ..

عندما تنتهى المعركة .. وينجو بجلده ..

سيذهب إليه .. ويقبله ويعانقه ثم يسأله .. أن يختشى على دمه .. ويطلب له رتبة .. أو نيشانا ..

الفصل السادس والعشرون

دوى الصــوت

دقت الساعة اثنتى عشرة دقة .. تشق السكون الذى خيم على البيت .. وانتهى إبراهيم من عدها وهو جالس أمام المدفأة .. وليلى قد تمددت على الأريكة تنقل بصرها بين ألسنة النيران المتراقصة .. ووجه إبراهيم قد بدا عليه الشرود والقلق ..

كان هناك شيء بالجو ..

كانت هناك رائحة خطر .. تتخلل النسائم العطرة الهادئة التى غمرت وكرهما خلال الأيام القلائل الماضية..لقد مرت بهما الليالى سريعة خاطفة.. لم يحسا خلالها بالزمن والكائنات .. لم تكن الحياة فى نظرهما .. كتلك التى تعودا أن يحيياها .. لم يكن هناك وقت .. ولا كانت هناك تفاصيل ولا حدود.لم تكن حياتهما إلا حسوا للأمانى .. أو حلما فى الدجى .. أو خلسة المختلس ..

ولم يفعلا خلالها ذنبا .. أو ارتكبا معصية ..

لا شيء يمكن أن يلوم أحد منهما عليه نفسه ..

ولا شيء يمكن أن يزيد عما كانا يفعلانه .. فى حضور الطرفين الآخرين .. ومع ذلك .. مرت بهما الأيام والليالى فى نشوة عجيبة ..

كانت نشوتهما مستمدة .. من الإحساس بوحدتهما معا وبالاستقرار فى هذه الوحدة .. بلا خوف ولا قلق .. وبأن كلامنهما .. فى خلالها يحيا للآخر .. ولا ينظر إلا إليه .. ولا يتحدث إلا معه .. بلا رقابة .. ولا حساب .. ولا خوف ولا إحساس بالخطأ ..

كانت نشوتهما .. مستمدة من الإحساس بطبيعة الوجود تحت سقف واحد .. لا شريك لكل منهما .. إلا صاحبه .. ولا سلطان لأحد عليه .. إلا هو .. ولا اعتبار لكائن فى الحياة سواه ..

تلك هى المتعة الكبرى ..

متعة كفتهما مؤونة الخطيئة .. ومشقة الزلل .. كانا يتحدثان ويضحكان .. ويأكلان .. ويشربان الشاى .. كانا يعيشان .. كأنهما فى فترة عادية .. من حياة زوجين .. لا عشيقين .. وكان لديهما الكثير مما يستمتع به .. بمجرد الحياة الطبيعية التى لا يحس بمتعتها أى زوجين ..

قصت عليه حياتها .. قطعة من هنا .. وقطعة من هناك .. طفولتها .. وحياتها .. وشبابها ..

وقص عليها من حياته الكثير .. كيف كان يلعب فى الحارة .. وكيف كان يعاكس المدرسين فى الحصص .. وكيف دخل المهندسخانة .. وكيف شق طريقه ..

وبين هذا كله .. بين هذه القطع من الحياة الطبيعية التى استمتعا بها ..

كانت تمر بهما .. فترات صمت طويلة .. من الإرهاف .. والحساسية .. والوله المنطوى فى الباطن .. ولم يكونا يفرجان عن اللهفة المكبوتة بأكثر من تشابك الأيدى أو إسناد رأسها على صدره .. أو تخلل شعرها بأصابعه .. كان ذلك أقصى ما جرؤا على فعله مما يمكن أن يلوما عليه نفسيهما .. ومما لا يستطيعان فعله .. والطرفان الآخران موجودان ..

وكانت فترات الصمت هذه .. هى أقسى .. ما يتعرضان له ..

كان كل منهما يحتاج إلى قوة .. للمقاومة ..

مقاومة ما يمكن أن يدخل بصفة أكيدة فى باب الخطايا .. مقاومة رغبة كل منهما فى الارتماء فى أحضان الآخر .. فى ضمه إلى صدره .. وفى مس شفتيه ..

وشم أنفاسه ..

مقاومة .. حاول كل منهما أن يخفى وجودها .. وينكر حاجته إليها .. حتى ظهرت جلية .. فى إحدى فترات الصمت .. الصاخب .. أو الصخب الصامت .. الذى يصطخب فى صدريهما .. ويضج فى قلبيهما .. عندما طال الصمت .. وزاد الحنين .. واشتدت اللهفة .. واستعصت المقاومة .. فاندفعت ليلى فى نوبة بكاء عنيفة .. تركتها كريشة فى مهب الريح .. واضعة رأسها فى صدره .. تاركة دموعها تنهمر كسيل العاصفة ..

وعندما انتهت من البكاء . رفعت إليه وجهها فى أسف وكأنها تعتذر عن بكائها ..

وابتسم إبراهيم .. فابتسمت .. وبدت الابتسامة بين دموع عينيها كأنها إشراقة الشمس المفاجئة بين قطرات المطر .. أو كأنها ضحكة الطفل الباكى ..

وهمست تقول معتذرة :

ـــ أنا متأسفة ..

ـــ علام ؟.. لقد فرج بكاؤك عنى .. كما فرج عنك .. وأراحك .. كما أراحنى .. عندما نفترق .. سأتذكر بكاءك .. كما أتذكر كل شىء منك ..

ـــ لماذا تكثر من ذكر الفراق .

ـــ لأنه نتيجة حتمية لما بيننا ..

ـــ تقصد نتيجة شكلية ..

ـــ لست أفهم ..

ـــ إنا سنفترق ككائنين .. آليين .. ولكننا لن نفترق كإحساسين أو روحين .. إنى لن أكف عن حبك أبدا ..

ـــ ليت هذا يصدق !

ــ ألا تثق بى ؟

ــ لا أثق بطبيعة الحياة .. إن الكائنين الآليين هما اللذان .. يحددان سير الحياة .. إن المشاعر والأحاسيس تخمدها .. مشاغل واحتياجات وارتباطات .. الكائنات الآلية .. والفرقة تعنى فرقة ..

ــ إنى أكره فلسفتك .. سأحبك مدى حياتى .. أيا كان وضعنا الشكلى .. لقاء .. أم فرقة .. رؤية .. أم ذكرى ..

هكذا مرت بهما أيامهما ولياليهما حالمة خاطفة ..

ممتعة .. بلا زلل .. منتشية .. بلا خطيئة ..

قطعة هانئة من حياة زوجين .. تقطعها فترات من الصمت الواله .. واللهفة المطوية .. والشوق المقاوم ..

وفى هذه الليلة .. عندما أذنت الساعة بانتصاف الليل كانت تمر بهما إحدى فترات الصمت .. ولكنها لم تكن كلها حنينا ولهفة .. بل كان يشوبها .. ذلك الإحساس بخطر مبهم .. تسرى رائحته الخانقة فى نسماتها الهادئة ..

وتحدثت ليلى لتقطع الصمت وتستدعى إبراهيم من شروده .. قالت متضاحكة :

ــ إلى أين وصلت ؟

وابتسم وهو مستمر فى صمته وشروده ..

وعادت تسأله :

ــ أذهبت بعيدا ؟

ــ إنى معك ..

ــ كلك !

ــ تقريبا ..

— والباق ؟

— فى القشلاق ..

— ماذا يفعل ..

— يجول فى قلق ..

— ألم يكل ؟..

— هبيه كَل .. ما الحيلة ؟

— استدعه ليهدأ ..

— لا أستطيع ..

— لمه ..

— كان يجب أن أكون كلى هناك ..

— ما الداعى ..

— هناك حال من القلق شديد ..

— أقد جد شيء ؟

— اليهود يتحركون ..

— ومتى كانوا لا يتحركون ..

— هذه المرة تبدو حركتهم جادة ..

— كيف ؟..

— يقال إنهم هبطوا من بير السبع .. متجهين إلى العريش ..

— غير معقول ..

— بل هو ما حدث فعلا ..

— هل ينوون دخول العريش ؟..

— الله أعلم بنياتهم ..

— أليس هناك من يوقفهم فى الطريق ؟..

— طبعا هناك قوات ستلقاهم ..

— أتظنها تستطيع أن توقفهم ..

— لا بد أن توقفهم ..

— أجل .. غير معقول أن يصلوا إلى العريش .. لا بد أن تكون مغامرة .. أو تهويشة ..

— لا أظن .. إن الهجوم جدى .. لقد نقلت قوات جديدة إلى العريش .. ومن بينها الدبابات ..

— هل أتى مراد معها ..

— لم ألقه .. ولكن أغلب ظنى أنه قد حضر معها .. فإن كتيبته أقرب كتيبة إلى العريش ..

— لو أنه أتى لكان قد مر علينا ..

— لا أظن لديه وقتا .. لقد تحركوا من السكة الحديد إلى المواقع رأسا .. إن الحالة تبدو خطيرة ..

وساد الصمت برهة ثم أردف إبراهيم وكأنما يحدث نفسه :

— كان يجب أن أكون هناك ..

— وماذا تستطيع أن تفعل ..

— أى شيء .. غير الجلوس أمام المدفأة ..

— هل كلفك أحد بعمل ما ؟..

— كلفونى بتعزيز حقول الألغام على جانبى الطريق .. وقد انتهيت من تعزيزها خلال النهار ..

— ماذا تريد إذن أن تفعل أكثر من ذلك ؟

— لست أدرى .. إنى فقط أحس بقلق ..

— لا تدع ضميرك يثقل عليك بلا مبرر .. عندما يحتاجون إليك

سيطلبونك ..

وفجأة .. سمع دوى ..

شيء آخر .. غير تلك الأصداء التى كانت تصل إلى مسامعهم خافتة متباعدة بين آونة وأخرى ..

دوى شديد .. أعقبه دوى شديد آخر ..

وأنصت إبراهيم مأخوذا ..

وبدا الجزع على وجه ليلى ..

وساد الصمت برهة .. وما لبث حتى قطعته ليلى قائلة :

ـــ أتظنهم قد اقتربوا ؟..

وهز كتفيه فى حيرة وقلق وضيق وأجاب :

ـــ من يدرى ..

ـــ اقتربوا إلى هذا الحد ..

ـــ لا أظن ..

ـــ إذن ما هذا الدوى ؟..

ـــ قد تكون مدافعنا ..

وتوالى الدوى .. شديدا قريبا ..

وعادت ليلى تتساءل :

ـــ ولماذا تستمر مدافعنا فى الضرب إذا لم يكونوا قد اقتربوا ..

ولم يجب إبراهيم وغادر مقعده متجها إلى التليفون .. ولكن قبل أن يصل إليه فوجئ بمخلوق يندفع بشدة إلى الصالة .. ويصيح فى جزع :

ـــ إنهم يهجمون .. لقد وصلوا إلى العريش ..

وأبصر إبراهيم نهى بجسدها النحيل .. وقد أغرق المطر شعرها وثيابها .. وهى تندفع من باب المطبخ الخلفى المؤدى إلى الحديقة ..

وتساءلت ليلى فى ذعر :

— من ؟

— اليهود ..

وتمالك إبراهيم نفسه وأقبل على نهى يربت ظهرها ويهدئ روعها قائلا :

— لا تخافى يا نهى ..

— لست خائفة .. إنى أريد أن أخرج لألقاهم .. كيف يجرؤون على الوصول إلى هنا ..

— هدئى نفسك .. ما الذى أخرجك فى هذه الساعة ..

— لقد كنت هناك .. فى أقصى الطريق .. لقد أنبأنى السائق أن هناك شيئا .. وجلست على الربوة لأرقب ..

— أنت مجنونة .. اذهبى وغيرى ملابسك .. وأوى إلى فراشك ..

وصرخت نهى فى حدة وهى تنتفض :

— كيف .. أنا آوى إلى فراشى واليهود على الأبواب .. سأذهب لقتالهم .. سنذهب كلنا .. سأمسك سكينا وأذبحهم ..

وجرها إبراهيم من يدها بشدة تجاه المدفأة ..

— اجلسى هنا .. إنك ستموتين .. من البرد أيتها الغبية .. أى سكين .. هذا الذى ستذبحينهم به .. اجلسى ..

ولم تجلس نهى وأجابت متوسلة والدموع تخنقها :

— لا أستطيع أن أجلس .. عندما جلسنا أول مرة .. دخلوا علينا وذبحونا .. لا يجب أن ننتظر حتى يصلوا إلينا .. لا يجب أن نجلس لنصطلى أمام المدفأة .. وهم يدقون أبوابنا ..

وأحس إبراهيم بلسعة من قول الفتاة .. ألم يجلس هو ليصطلى بنيران المدفأة واليهود على الأبواب ..

وأى جلسة ؟

جلسة غرام ..

ومع من ؟

مع زوجة .. صديقه .. المقاتل .. الذى لا شك قد اتخذ مجلسه الآن .. ليس على مقعد مريح .. ولا أمام مدفأة بين يدى امرأة .. بل فى برج دبابة أو وراء مدفع وفى عصف الريح ولفح الصقيع .. وطرق المطر .. وبين يدى العدو .. أو على الأصح بين شظاياه ونيرانه .. عجبا له ..

كيف أجاز .. لنفسه هذا ..

كيف أباحه .. وارتضاه .. ببساطة .. وبلا لوم ولا تأنيب ..

لقد كانت الصبية النحيلة خيرا منه .. إنه ينتظر حتى يكلفه أحد بواجبه .. وهى تريد أن تخرج لتذبح اليهود بالسكين ..

ودون أن ينبس بكلمة رفع السماعة وطلب العربة ثم اتجه إلى حجرته .. وبعد لحظة كان قد ارتدى ثيابه ..

ونظرت إليه ليلى ودموعها تنحدر فى صمت .. وقالت فى صوت مختنق ..

— أظن عبثا أن أوقفك ؟

وشد إبراهيم على يدها وهمس :

— أترضين لى هذه الوصمة ؟

وهزت رأسها فى يأس ثم قالت :

— إنى أعبدك ..

— وأنا أيضا ..

وعضت على شفتها وهى تحاول أن تكتم بكاءها وعادت تهمس :

— عدنى أن تعود ..

— طبعا سأعود ..

ـــ إنى أحبك ..

ـــ وأنا أيضا أحبك ..

وسمع صوت العربة تقف بالباب ..

وهم إبراهيم بالسير ..

ولكن ليلى لم تفلت يده وهمست تستعطفه وبكاؤها يغلب صوتها ..

ـــ ألا تقبلنى ؟

وساد الصمت برهة .. وعادت تهمس :

ـــ إنها الأولى .. والأخيرة أيضا .. والله سيغفرها .. ومد إبراهيم ذراعيه .. وضمها إليه .. ومس شفتيه بشفتيها .. وضغطها .. برفق ..

ثم ابتعد عنها .. واتجه بسرعة إلى الباب .. واندفعت نهى تعدو وراءه مادة ذراعها بالخوذة قائلة :

ـــ خذ هذه .. إنك ذاهب للقتال ..

وتناول إبراهيم الخوذة ثم شد على يدها قائلا :

ـــ أشكرك ..

وقالت نهى متوسلة :

ـــ لماذا لا تأخذنى معك .. إنى أستطيع أن أفعل لك شيئا .. أى شىء ..

ـــ إذن فابقى .. إلى جوار ليلى .. خذى بالك منها .. أنت تعرفين معزتها عندى ..

وأطرقت نهى برأسها وأجابت ودموعها تنحدر :

ـــ أجل أعرف .. أعرف جيدا ..

وهتفت ليلى وهى تراه يختفى وراء الباب :

ـــ ستعود بسرعة .. لا تتأخر ..

وانطلقت العربة بإبراهيم .. واشتد الدوى وتلاحق ..

الفصل السابع والعشرون

قبــل العــاصفـة

وصل إبراهيم إلى الثكنات .. وبنفسه إحساس غامض مبهم لا يدرى كنهه .. لم يكن خوفا .. ولم يكن حماسا .. ولا غضبا .. ولا ضيقا .. ولا جزعا .. لا شيء من هذا كله .. وإنما هو إحساس أشبه بإحساس المشدوه .. المأخوذ .. الذى دفع به إلى جو جديد عليه .. غريب على مشاعره ..

لم يكن يدرى ماذا يمكن أن يفعل .. لم يكن أمامه عمل محدد واضح .. كان فقط يعلم أن هناك قتالا دائرا .. ومعركة ناشبة .. وخطرا يقترب .. وأن اليهود يتقدمون .. لا يدرى إلى أى مدى وصلوا .. ولكن لا بد أنهم قد أضحوا على مرمى المدافع .. ما دام الدوى قد بدأ ..

والمصريون قد احتشدوا لضربهم .. وكل فرد من القوات المسلحة لا بد أن يكون الآن قائما بعمل فى المعركة ..

وهو من أجل هذا لا بد أن يعمل شيئا .. أى شيء .. عدا الجلوس فى استرخاء أمام مدفأة ..

ووجد الضابط النوبتجى قد وقف فى مكتبه يحملق من وراء زجاج النافذة تجاه أرض المعركة .. حيث بدت شعل المدافع تبرق بين آونة وأخرى ..

والتفت إليه الضابط محييا وتساءل إبراهيم :

ــ كيف الحال ؟

ــ يبدو أنهم قد اقتربوا جدا .. إنهم يهجمون بقول مدرع ضخم ..

ــ من أدراك ؟

ــ ضابط ملاحظة المدفعية ..

ــ لست أدرى ماذا يقصدون بهذا الهجوم .. أحقا يريدون الاستيلاء على العريش ؟

ــ ربما .. على أية حال .. لقد عزز الخط أمامهم .. وطيراننا سيدقهم بعنف ..

ــ إنها مغامرة منهم ..

ــ ستكلفهم غاليا ..

وازداد الدوى .. وتتابعت شعل تبرق فى الظلام .. وبدا القلق على وجه إبراهيم .. وتحرك إلى العربة فى عصبية .. وتساءل الضابط النوبتجى :

ــ إلى أين ؟

ــ سأذهب إلى خطوطنا ..

ــ ولِمَ ؟

ــ قد يكونون فى حاجة إلى شيء ..

ــ لا أظن لديهم الفرصة فى التفكير فى هذا الشيء الذى سيطلبونه ..

ــ قد نقدمه دون أن يطلبوه ..

ــ لا أظننا نستطيع أن نقدم إليهم شيئا الآن .. إن خير ما نفعل هو أن ننتظر أوامر القيادة ..

ــ انتظر أنت .. وإذا احتجت إلىّ فأرسل فى طلبى ..

ومرة أخرى انطلقت به العربة ..

ومرة أخرى عاوده الإحساس الغامض المبهم .. إحساس المشدوه المأخوذ ..

كان يقترب من أرض المعركة .. وصوت الدوى يزداد عنفا .. وتلاحقا ..

ولم يكن يدرى إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل ..

كانت المرة الأولى التى يقترب فيها من معركة .. ويوشك أن يلمسها بيديه .. ويجول بين أسلحتها الحية .. وقنابلها المتفجرة .. ورصاصها المتحرك ..

كان يكره القتال ..

وما زال يكرهه ..

ولكنه يكره أكثر منه .. جلسة المقعدين العاجزين أمام المدفأة ..

وهو لا يحس بخوف منه .. وإنما يحس فقط بدهشة .. وحيرة ..

وبدأ السائق يتمهل به وهو يجد العربة قد وصلت إلى قلب المواقع ..

وبدت لعينيه من بعيد أشباح المدافع والدبابات وهمهمة العساكر بينها ..

وتساءل السائق أخيرا وهو يقف بالعربة :

— إلى أين يافندم ؟

وبدت الحيرة على وجه إبراهيم ..

لم يكن يعرف هو نفسه إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل .. كل ما كان يريد هو أن يوجد فى المعركة .. ويحس بالمشاركة فيها .. وهو يحس بشىء من الراحة النفسية بعد أن وجد نفسه فيها فعلا ..

ولكن لم يكن معقولا أن يقف هكذا حائرا بين المواقع .. كان لا بد أن يرى أحدا أو يكلم أحدا ..

وقال للسائق وهو يشير إلى أقرب المواقع إلى الطريق :

— اتجه إلى هذا الموقع ..

ووقفت العربة أسفل التبة التى احتلها الموقع ..

كان موقعا لمدفع مضاد للدبابات .. وقد استقر على التبة بماسورته الطويلة السوداء المطلة على الفراغ المظلم وقد وجه فتحته تجاه الطريق ..

وكان يقع وراءه طاقمه وقد رصت بجوارهم الذخيرة .. وكانت العاصفة قد استرخت والريح قد هدأت .. ولكن الصقيع جعل الجنود ينكمشون كأنهم كتلة واحدة مستقرة وراء المدفع .. وبجوارهم استقر الملازم أول عمر جلال منكمشا فى معطفه .. مسددا بصره إلى الظلمات المحيطة بالطريق أمام المدفع ..

وسمع عمر صوت العربة تقف وراء المدفع .. فالتفت وراءه .. وأبصر إبراهيم يهبط منها فنهض لملاقاته .. وهو يظنه أحد ضباط الرئاسة .. جاء ليطمئن على الموقع أو ليلقى بأوامر جديدة ..

وعندما اقترب الاثنان عرف كل منهما الآخر .. وصاح عمر فى دهشة :

— إبراهيم .. ماذا تفعل هنا ؟

وأحس إبراهيم بشىء من الراحة وهو يجد الضابط يعرفه .. وزال عنه الكثير من إحساس الغريب المأخوذ .. وأجاب ضاحكا :

— أتمشى ..

وتساءل عمر ضاحكا :

— على كوبرى بنها ؟

وأجاب إبراهيم مقهقها وقد زاد إحساسه بألفة المكان واعتياده على جو المعركة :

— ورصاص الحلو طَرَف عينى !

وضحك عمر ثم عاد يتساءل :

— قل حقيقة ماذا تفعل هنا ؟

ورفع إبراهيم كتفيه فى حيرة وقال :

— لا شىء بالذات .. أردت فقط أن أكون بينكم ..

ونظر إليه عمر فى دهشة :

ـــ تكون بيننا .. هنا .. أمجنون أنت .. ماذا ظننتها .. وليمة ؟.. اذهب يا جدع وأوى إلى بيتك .. واسترح فى فراشك ..

ـــ ولماذا لم تفعل ذلك أنت ؟

ـــ ابتلانى الله بهذه الرمية السوداء .. فماذا يكرهك أنت عليها .. ماذا يكرهك على الصقيع .. والسهر .. والتجول بين القذائف .. ألم تؤد واجبك فى رص الألغام ؟..

ـــ أجل ..

ـــ إذن فعد إلى بيتك واسترح .. استرح أربعة وعشرين قيراطا .. لو كنت مكانك لما فعلت أكثر من هذا ..

ـــ أنت واهم .. لو كنت مكانى لما فعلت سوى ما فعلت أنا .. هل تتصور أنى لم أحاول الاسترخاء فى البيت ؟..

ـــ وماذا حدث ؟

ـــ كنت أكثر ضيقا وقلقا .. منى هنا .. هل تظن من السهل على المرء أن يغمض عينيه .. ويسترخى .. وهو يعرف أن على مقربة منه قتالا يدور .. ومعارك تنشب .. وقذائف تتبادل .. وأنه بين لحظة وأخرى قد يصل كل هذا إليه .. هل تظنه يستطيع بسهولة أن يسترخى ويغمض عينيه ؟.. إن المثل يقول : وقوع البلاء ولا انتظاره .. وأنا أقول بعد تجربة الليلة : دخول المعركة ولا الاسترخاء فيها ..

ـــ أنت وشأنك .. ما دمت تأبى أن تجلس فى الدفء .. فهيا بنا ..

وسار الاثنان صاعدين التبة متخذين مكانهما وراء المدفع .. وتساءل عمر :

ـــ هل معك سيجارة ؟

ـــ متأسف .. أنا لا أدخن ..

ـــ نسيت أنك لا تدخن .. هل تصدق أنى لا أحتاج لشيء كاحتياجى إلى سيجارة ..

لو علمت عذا لأحضرت لك معى علبة بأكملها ..

ومضت فترة صمت حملق كلاهما فى الظلمات المكدسة أمامه .. وتوالى الدوى فتساءل إبراهيم :

ـــ من الذى يطلق هذه النيران ؟

ـــ مدفعية الميدان .. إنها تضرب تجمعات العدو .. أعتقد أنها آذته كثيرا .. وأخرت هجومه .. والطيران أيضا دقه جيدا بعد أن جاوز العوجة .. لقد دمر الكثير من مدرعاته ..

ـــ ومع ذلك فهو مستمر فى تقدمه ؟..

ـــ دعه يتقدم .. إن شاء الله سنقضى على البقية الباقية منه .. حتى لا يعود إلى فعلها مرة أخرى ..

ـــ هل تظن أننا سنصده بسهولة ؟

ـــ طبعا .. إن « سمبو » وحده كفيل بهذا ..

ـــ « سمبو » من ؟

ـــ ألم أعرفك به بعد ؟

وهز إبراهيم رأسه .. فأشار عمر إلى المدفع الرابض أمامه قائلا :

ـــ هذا الأسد المتحفز للانقضاض .. هو « سمبو » .. ألم تسمع عنه .. لقد ضرب رقما قياسيا فى تدمير دبابات العدو .. إنه مدفعى الخاص ..

ومد يده فربت ماسورة المدفع برفق كما تربت عنق كلب مطيع .. وأردف قائلا :

ـــ لم يخيب ظنى قط .. بينى وبينه صداقة قديمة منذ أن تخرجت فى الكلية وعملت بالبطارية .. إنه أفضل مدافع الآلاى كلها ..

ونظر عمر إلى طاقم المدفع وأردف ضاحكا :

ـــ والا إيه يا ولاد ؟

وأجاب الأومباشى مؤكدا :

ـــ مضبوط يافندم .. حضرة الضابط متعود على ضربه من زمان ..

ونظر إبراهيم إلى المدفع متأملا .. ثم تساءل :

ـــ كم مدفعا مثل هذا فى الخط ؟

ـــ التروب كله موجود .. ولدينا أيضا سرية دبابات .. لقد اتخذت دباباتها مواقع بجوارنا على الخط .. إن مواقعها جيدة .. لقد أحضرها مراد .. أتعرفه ؟

ـــ طبعا أعرفه ..

ـــ إنه يحتل الموقع المجاور ..

ـــ أهو قريب من هنا ؟

ـــ دبابته يمين الطريق مباشرة .. أتحب أن نذهب إليه ؟

ـــ هيا بنا ..

وسار الاثنان على أقدامهما وراء المواقع .. وعبرا الطريق .. فبدت أمامهما دبابة مراد وقد اتشحت بالظلام واستترت وراء إحدى التبات .. وقد اعتلى مراد برجها وأخذ يحملق أمامه ..

ولم يكد يحس بوقع الأقدام حوله حتى تلفت مستطلعا .. وبادأه إبراهيم بالتحية قائلا :

ـــ مساء الخير يا مراد ..

ـــ من ؟

ـــ أنا إبراهيم ..

ـــ أهلا إبراهيم .. ماذا أتى بك إلى هنا فى هذه الليلة السوداء ؟

ـــ أشارككم فى سوادها ..

ـــ وكيف حالهم فى البيت ؟

ـــ بخير .. يسألون عليك .. كيف حالك ؟

ـــ الحمد لله .. الذى لا يحمد على مكروه سواه ..

ونظر إلى الساعة فى قلق وأردف قائلا :

ـــ ماذا أخر هؤلاء الكلاب ؟.. لماذا لا يهجمون ويريحونا .. لقد أوشكت أن أغفل بضع مرات .. إن العساكر ..

ولم يتم كلمته .. فقد قطع عليه الحديث صوت دوى مجاور أصم آذانهم .. وتلاه دوى متلاحق من الخط كله .. وقال مراد فى عصبية وحدة :

ـــ الظاهر أنهم بدءوا الهجوم ..

وتطلع أمامه فى قلق .. محاولا أن يخترق الظلمات ليرى القوات المتقدمة .. ولكنه لم يبصر شيئا ..

وتساءل فى دهشة :

ـــ لماذا إذن كل هذا الضرب ؟

وأجابه المدفعجى من داخل الدبابة :

ـــ الظاهر أن طلقة خرجت خطأ من أجد المواقع .. فتبعه الخط كله ..

وصاح مراد فى حنق :

ـــ هؤلاء الحيوانات .. سيضيعون الذخيرة على الفاضى .. ويكشفون عن مواقعنا بحماقتهم ..

وهبط من الدبابة وقفز إلى عربة جيب وقفت على مقربة من الدبابة .. وقال :

ـــ عن إذنكم يا جماعة .. سأرى هؤلاء الحمقى .. حتى لا يعودوا إلى بعزقة الذخيرة بلا سبب .

ثم التفت إلى عمر قائلا :

— وأنت يا عمر .. نبه على عساكرك ألا يضربوا بمثل هذا الطيش .

وأجاب عمر :

— لا تخف علينا .. نحن لا نضرب إلا فى المليان .. عندما يصبح العدو على مرمى حجر منا .. أو فى قبضة يدنا ..

ورد عليه مراد :

— وحياة والدك بلاش قنزحة .. اذهب ونبه على عساكرك كلنا فى الهوى سوا ..

وانطلق مراد بعربته .. وعاد عمر إلى موقعه مصطحبا إبراهيم ..

وعندما اقتربا من المدفع تساءل عمر :

— ألديك شيء تفعله ؟

— أبدا .. لقد خرجت — كما قلت لك — بلا قصد إلا الوجود فى المعركة ..

— إذن ابق معى .. نتسلى .. حتى يبدأ الكلاب هجومهم .. سأدعك تشاهد خير ما فى المعركة .. ستشاهد سمبو وهو يدمر دباباتهم واحدة بعد واحدة ..

واتخذ الاثنان مكانهما بجوار الطاقم وراء المدفع .. وربت عمر على مدفعه فى إعجاب وهو يقول :

— يا سلام عليك .. يا سمبو يا عترة ..

ثم التفت إلى إبراهيم قائلا :

— أتعرف كيف تستعمله ؟

وهز إبراهيم رأسه مجيبا :

— طبعا لأ ..

ــ إن استعماله من أسهل ما يمكن .. هل ضربت بندقية ؟ .

ــ أجل ..

ــ إنه شبيه جدا بالبندقية العادية .. نضع الطلقة فى مؤخرته .. هنا فى هذه الفتحة ..

واستمر عمر يشرح كيفية استعمال المدفع .. وإبراهيم يقلب البصر بينه وبين الأفق المعتم .. لعل هناك طلائع عدو ..

وعندما انتهى عمر من شرحه قال :

ــ ما رأيك .. أظن المسألة سهلة جدا ..

ووافق إبراهيم .. دون أن يتأكد أن المسألة سهلة جدا كما قال عمر .. فقد كان كل ما التقطه كلمات متقطعة عن التنشين .. والضرب ..

و لم يشعر بأنه قد خرج لتلقى دروس فى المدفعية .. وكانت حالة التوتر والقلق التى تسود الخط كله لا تسمح له بتركيز ذهنه فى شرح عمر ..

واستمر عمر فى حديثه قائلا :

ــ المسألة لا تحتاج إلا إلى أعصاب .. لا أكثر ولا أقل .. صوب المدفع إلى الدبابة .. واصمت ودعها تقترب منك .. وتقترب وتقترب .. لا تقلق ولا تجزع .. اتركها حتى آخر لحظة .. عندما تحس أن مدفعها كاد يلامس رأسك .. ثم اطلق .. ستصرعها فى الحال كما تصرع الثور عندما تضربه فى جبهته بين عينيه .. أرأيت .. أن المسألة فى غاية السهولة ..

وأبتسم إبراهيم وتساءل فى دهشة :

ــ فى غاية السهولة .. أن تنتظر حتى يلامس مدفعها رأسك ؟ ..

ــ المسألة ــ كما قلت ــ مسألة أعصاب ..

ــ ومسألة ثقة فى النفس .. وفى المدفع .. وفى كل شىء .. هب أن الطلقة كذبت أو أن المدفع عطل .. ماذا تفعلون ؟ .

ـــ يرحمنا الله ! .

ونظر عمر إلى المدفع الأسود الطويل العنق .. وربت عنقه وهو يقول محذرا :

ـــ خذ بالك يا سمبو .. إياك أن تفعلها ؟ .

وخيم الصمت .. وكفت مدافع الميدان عن دويها .. وساد الخطوط سكون خانق .. أشبه بسكون ما قبل العاصفة ..

الفصل الثامن والعشرون :

الوجه الضاحك

طال الصمت فى الخطوط .. ومر الوقت دون أن يبدو للعدو المنتظر أثر .. أو يسمع له صوت ..

وأصاب الجنود والضباط خمول واسترخاء ..

وجلس إبراهيم وراء المدفع .. منكمشا فى معطفه وبجواره عمر .. ومراد الذى ترك موقعه .. وأقبل يقطع الوقت معهما .. وأحس إبراهيم أن الصقيع قد جمد أطرافه .. وأن النوم قد بدأ يثقل أجفانه .. والصداع يدق رأسه ..

وانتهى كل ما يمكن أن يقال بين ثلاثتهما .. وأفرغ مراد كل ما فى جعبته من التهريج .. ولم يعد لدى عمر ما يقوله عن سمبو ودروس المدفعية ..

وبدأ إبراهيم يلوم نفسه على هذا الحمق الذى انتهى به إلى جلسة فى صقيع الليل وسط الرمال .. بلا معارك ولا حرب ولا ضرب ..

لعن الله ضميره الحى .. إنه سبب كل هذا ..

ولعن الله الفتاة المجنونة .. إنها هى التى أثارت ضميره بخبلها وهذيانها .. ولولاها لكان الآن مضطجعا فى فراشه أو مسترخيا أمام المدفأة .. يتطلع إلى ليلى .

وتذكر دموعها الصامتة المنحدرة على خديها .. ونظراتها الجزعة التى ودعته بها .

وأحس بلهفة إلى أن يضمها إلى صدره ..

و .. فجأة ..

أيقظه من أحلامه .. صوت دوى شديد رج جسده .. ثم صياح جندى بأعلى صوته :

ـــ ها هم .. لقد ظهروا ..

ونفض الدوى ما حط على جسده من استرخاء التعب .. وأطارت صرخة الاقتراب ما أثقل جفنيه من تخدير النوم .. وأحس بأعصابه تتوثر ومشاعره ترهف .. وامحى من ذهنه شبح ليلى والمدفأة والدموع والوداع .. وشعر بكل حواسه تتركز فى عينيه تتطلعان إلى الفراغ الذى أخذت الظلمات تنقشع عنه وتسرب منه ضوء باهت رمادى خليط من الظلمة والضياء .. وبدت فى أفقه هياكل سوداء برزت حدودها العليا فى خط الأفق ولاحت كأنها كوديات حشيش .. تناثرت فى الأفق الرمادى ..

وقفز مراد فى عنف واندفع يعدو إلى دبابته .. وهو يصيح :

ـــ ظهروا أخيرا .. الكلاب أولاد الكلاب ..

ورفع عمر المنظار إلى عينيه وأخذ يرقب النقط السوداء فى الأفق الشاحب وبدأ هادئا إلا من صدر يعلو ويهبط بطريقة واضحة ..

وظهرت بين طقم المدفع حركة عصبية .. قفز أحدهم هناك وتحرك الآخر هنا .. وأمسك الثالث بالذخيرة ..

وألقى عمر عليهم نظرة السوداء تقترب .. ويجد السكون من حوله مخيما .. قاسية رادعة وقال من بين أسنانه :

ـــ وبعدين ؟ .. حانهبل ؟ جرى لك إيه .. منك له ؟ .. اثبت .. لسه بدرى ..

وهذا الطقم .. هدوءا سطحيا .. وأخذت الأعين كلها تتركز فى النقط السوداء الشبيهة بكوديات الحشيش وهى تتضخم رويدا رويدا ..

وبدأ القلق يتسرب إلى نفس إبراهيم .. وهو يرى النقط والصمت

مطبقا .. إلا من أصوات أنفاس تتلاحق .. وطقطقة أو خربشة نتيجة لحركات الجند العصبية .. وتملكته دهشة من طريقة بدء المعركة .. هذا التسلل العجيب والسكينة التامة لا ينم أبدا عن معركة . أو قتال .. أنه مجرد لقاء أو مصافحة .. لا أكثر ولا أقل .

وضاق إبراهيم بالسكون وبالحملقة فى النقط السوداء المتضخمة ..

لماذا لا يضرب أحد الطرفين .. لماذا لا يثيرون ضجيجا وصراخا ..

ولماذا كف هذا الدوى الذى أذن ببدء المعركة .. ونظر إلى عمر فوجده قابعا فى موضعه .. رافعا المنظار إلى عينيه ولا أثر به لانفعال أو تأثر إلا هذا الصدر الصاعد الهابط ..

وتساءل إبراهيم :

— ماذا وجدت ؟

ومد يده بالمنظار إلى إبراهيم .. ورفع إبراهيم المنظار إلى عينيه و لم يبد له فى أول الأمر شىء .. ثم ضبط المنظار على عينيه فبدت له النقط السوداء شيئا أضخم واضح التفاصيل محدد المعالم ..

وهتف إبراهيم :

— دبابات ..

وأتم عمر حديثه محددا النوع :

— شيرمان ..

— كيف عرفت ؟

— برجها العالى .. وجسدها الضيق الملفوف .. إنى أستطيع أن أميزها جيدا من بين عشرات غيرها .. إنها أضخم كثيرا من اللوكس .. وأعلى من الدبابة تشرشل .. ولكنها أكنز .. وبرجها يبدو ملفوفا كالزلطة .. هل ميزتها ؟

— لا أميز شيئا .. أنها دبابة .. وخلاص .

ثم بدأ محركا النظارة على طول الأفق قائلا :

— واحدة .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .

و لم يعد أكثر من ذلك فقد قطع عليه حديثه .. دوى شديد أصم الآذان .

وتلفت حوله فإذا بعمود من الغبار والدخان يتصاعد .. وإذا بفجوة من الرمال قد بدت على مدى البصر من موقعهم ..

وقال عمر وهو يحاول أن يبدو أكثر هدوءا :

— بدأ الجد ..

وحدثت الحركة العصبية بين الطقم .. أمسك واحد بالمدفع .. وأمسك آخر الذخيرة .. وقام ثالث ثم قعد ..

وصاح عمر صيحته التقليدية :

— اثبت ..

وتوالى الضرب .. وسمع صوت ضجيج الدبابات واضحا للأسماع وعمر يرقب فى صمت .. وتزايد القلق بإبراهيم وهمس بعمر :

— أستظل صامتين هكذا ؟

— أجل ..

— هذا شىء مزعج ..

— ألم أقل لك أن المسألة تحتاج إلى أعصاب وهدوء .. ومع ذلك فقد أحس عمر أن شيئا لابد أن يعمل .. و لم يكد يسأله الأمباشى :

— هل نحضر مزيدا من الذخيرة ؟

حتى هز رأسه موافقا ..

كانت الذخيرة بجوار المدفع .. ولكن أحضار المزيد منها لا يضر .. بل قد ينفع وقت الحاجة .. وهو يشغل الطقم عن السكون والترقب .

وهبط الجنود من التبة يتبادلون نقل الذخيرة من عربة المدفع .. ونقلت دفعة .. ثم ثانية .. وثالثة ..

وفى الدفعة الرابعة سمع دوى شديد .. أشد من كل ما سمع من قبل .. وتلاه انفجارات تخللها صراخ .. وملأ الجو دخان وغبار ..

وأحس إبراهيم بأمعائه تتلوى فى باطنه ..

شيء ما قد حدث ..

ومخلوق ما قد أصيب .. على مقربة منه ..

وقفز عمر يهبط من التبة ووراءه إبراهيم ..

وانقشع الدخان .. وهبط الغبار .. وعلى الضوء الرمادى .. بدت عربة الذخيرة سوداء ممزقة كأنها قطعة ورق محترقة .. وعلى مقربة منها بدت كتل سوداء مزقتها الشظايا .. وبدا جلدها المحترق .. رماديا كطفية السيجارة ..

وصعق إبراهيم ..

لم يصدق أبدا أن الأمر يمكن أن يحدث بمثل هذه السرعة والسهولة .

لم يكن حتى هذه اللحظة قد داخله إحساس جدى بحقيقة المعركة .. وحقيقة ما يمكن أن يحدث حوله .. وله .

وأحس بغثيان .. ولم يدر ماذا يفعل ولا ماذا يقول ..

وكان عمر أسبق منه إلى النطق ..

تأوه فى ألم .. كما يتأوه الحيوان الجريح .. ورفع يده يطبق بها على رأسه فى شدة ويصيح :

— خسارة .. خسارة ..

ثم يحدث نفسه :

— كانت الذخيرة عندنا كافية .. كان يجب ألا أتركهم يذهبون إلى العربة ..

ثم يجيب نفسه :

ـــ نصيبهم .. قدرهم .. لو لم يذهبوا لسقطت القذيفة عليهم فى المدفع ..

وألقى على الحطام الملقى أمامه نظرة يأس وردد :

ـــ لا فائدة .. ربنا يرحمهم ..

ثم تحرك تجاه المدفع قائلا وهو ينظر إلى كوم الذخيرة التى نقلها الجنود ..

ـــ لم يذهبوا سدى .. لقد أنقذوا لنا معظم الذخيرة ..

وكان ضجيج العدو قد علا .. ودباباته قد وضحت .. وقذائفه على المواقع قد توالت ..

وكان الجندى الباقى من الطقم قد جلس وراء المدفع كالصنم .

وفى حقد ومرارة وأصرار أقترب عمر من المدفع .. ونحى العسكرى جانبا وهو يقول :

ـــ دعه لى ..

ثم تحسس المدفع وهو يجلس وراءه وأردف قائلا :

ـــ سأضرب أنا .. وناولنى أنت الذخيرة ..

ثم همهم كأنما يحدث نفسه .. سأريكم .. كل رأس بدبابة .. يا أولاد الكلاب .. وكان إبراهيم ما زال فى ذهوله .. وغثيانه ..

كانت المرة الأولى التى يرى فيها منظر قتلى .. وحرقى ..

لقد اقشعر بدنه ذات مرة وهو يرى صورة الممثلة المحروقة التى سقطت بها الطائرة فى أحدى الصحف .. اقشعر من مجرد صورة الجسد الممزق المحترق ..

فما باله .. وهو يراه رأى العين وبشكل أفظع وأبشع ..

وتمنى .. لو يغمض عينيه عن كل ما حوله ..

تمنى .. لو كان ما حوله كله كابوسا مزعجا .. وأنه سيفتح عينيه ليجد

نفسه .. فى الدار الآمنة بجوار المدفأة .. أمام ليلى ..

ولكن الدوى المتلاحق .. والضجيج المقترب .. أكدا له يقظته .. و لم يتركا له فرصة الاسترسال فى أحلامه ..

وأحس أنه يجب أن يفعل شيئا .

على الأقل يعاون فى نقل الذخيرة .. بعد أن صفصف الطقم على الاثنين .. عمر والعسكرى ..

ووقف بجوار العسكرى .. على استعداد لمناولة الذخيرة وهو ما زال يحس بالغثيان ..

وازداد اقتراب الدبابات ..

وتوالى الضرب من الخط كله .. والدبابات مستمرة .. البعض على الطريق .. والبعض يدور حول المواقع فى لفة واسعة .. والبعض الآخر تناثر فى حقول الألغام ...

واستمر سيل الدبابات فى التدفق .. عطلت دبابة هنا .. ودبابة هناك نتيجة لبعض الطلقات الطائشة البعيدة المدى .. ولكن الأغلبية العظمى كانت مستمرة فى السير ..

وعمر ما زال رابضا فى مكانه .. يرقب فى حدة وعناد .. وقد أضحى كله .. أعصابا مشدودة ..

وبرزت إحدى الدبابات فى الطليعة متقدمة على الطريق ..

وأتم عمر تعمير المدفع .. وبدأ التصويب ..

وأحس إبراهيم وهو يرقب عمر أن الغثيان قد ذهب .. وامحى من ذهنه كل شىء ..

لا ليلى .. ولا مدفأة .. ولا قتلى .. ولا حرقى .. ولا شىء أبدا .. غير هذا المخلوق الرابض أمامه .. كأنه وحش يوشك أن ينقض واستمرت الدبابة فى

الاقتراب ..

ويدا عمر على المدفع .. ونظره إلى الدبابة ..

وأحس إبراهيم بالخوف وهو يرى الدبابة توشك كما قال عمر .. أن يصدم مدفعها رأسه .

وضغط عمر ضروسه .. وبدا شدقه يتلاعب ..

وبهدوء أطلق المدفع ..

واستقرت الطلقة عند فتحة السائق فى مقدمة الدبابة .. فانحرفت فى الطريق فجأة .. ثم توقفت .. وأخذت فى الأشتعال ..

وضحك عمر .. وصاح كطفل أصاب النيشان ..

— وحشة دى ؟

وقبل أن يجيبه أحد .. حدث من الدبابة المصابة أمر مفاجئ ..

لقد استدار برجها بسرعة .. وتحرك مدفعها مصوبا فى لمح البصر تجاه عمر .. وفى ثانية برق الضوء فى فوهته .. وانطلقت قذيفته ..

و لم يحس إبراهيم بشىء أكثر من ريح تمر به .. وسمع صرخة حادة . ثم أبصر .. مكان وجه عمر الضاحك وراء المدفع .. كتلة من الدماء .. وأبصر العسكرى الآخر يجلس القرفصاء وقد أخذت الدماء تنزف من ذراعه ..

و لم يفكر ..

لم يصبه غثيان .. ولا ضيق ولا خوف .. لقد أحس بشىء واحد .. هو أنه يريد أن يقتل إنسانا ما ..

يريد أن يمزقه بيديه وأسنانه ..

وقفز إلى المدفع .. ودفع الجسد الدامى من ورائه ..

وحاول العسكرى أن يتحامل ليجلس وراء المدفع ودماؤه تنزف ولكن إبراهيم دفعه قائلا :

— استرح أنت .. وحاول أن تضمد جرحك ..

وبلا وعي .. وجد نفسه بسهولة يفعل الحركات التى التقطها من عمر والتى لم يخطر بباله أنه سيعيها قط ..

وفى ثانية أطلق المدفع ..

وفى هذه المرة صمتت الدبابة نهائيا .. لم يدر فيها برج .. ولا تحرك مدفع .. فقد أضحت عمودا من الدخان ..

الفصل التاسع والعشرون

عملية إنقاذ

أخذت دبابات العدو تتدفق على الطريق .. وحاول العسكرى مرة أخرى أن يتناول المدفع .. ولكن إبراهيم رده فى أصرار وهو يقول كأنما يحدث نفسه :

ــ إنها مسألة بسيطة .. ليست مشكلة كما كنت أتصور ..

وقال العسكرى :

ــ دعنى لهم ..

ــ ولكن سيادتك لم تستعمل المدفع من قبل ..

ــ سأستعمله الآن .. وعندما أعطل سأستعين بك ..

وبدأ يرقب الدبابات .. وتذكر آخر ما نطق به عمر .. « سأريكم .. كل رأس بدبابة » ..

وهمس فى حقد وهو يصر على أسنانه :

ــ بل بعشر دبابات .

واقتربت الدبابة الأولى .. وأحس أعصابه تتوتر .. وحواسه ترهف .. وبدا له كأنما يسمع قول عمر « أن المسألة تحتاج إلى أعصاب .. وهدوء » ..

وزاد اقتراب الدبابة .. حتى صاح به العسكرى الجريح :

ــ اضرب يا فندم ..

وضرب إبراهيم .. وأصابت الضربة جنزير الدبابة فأطارته ..
ووقفت الدبابة ..
وصاح العسكرى :
ـــ ارفع التنشين وأضرب بسرعة .. قبل أن يصوب المدفع ..
وبسرعة ضرب إبراهيم .. فأطار البرج بمدفعه .. واشتعلت الدبابة ..
وأحس إبراهيم بفرحة غامرة ..
وانكمشت فى نفسه معظم الأحاسيس .. وبرز إحساس الصياد .. أصاب الفريسة الأولى .. وجلس يرقب الثانية ..
وتقدمت الثانية ..
وصاح العسكرى :
ـــ اخفض التنشين يا فندم .. أضرب بسرعة .. قبل أن يضرب هو ..
وضرب إبراهيم .. وأصابت الطلقة خزان البنزين فانفجر .. واشتعلت الدبابة محدثة دويا شديدا ..
وسد الطريق .. وبدأت الدبابات تتحول خارجة وسط حقول الألغام ..
وبدأ البعض الآخر يستدير متراجعا .. وانهال الضرب عليها من بقية المدافع على طول الخط .. وتوالت الانفجارات .. وتوالت الحرائق .. وتعالت أعمدة الدخان ..
وأصبحت المعركة فى الناحيتين كأنها قطعة من الجحيم ..
وزاد عدد دبابات العدو المصابة فى أرض المعركة .. وبدأت الدبابات المتبقية تستدير للتراجع ..
وتلفت إبراهيم حوله فى دهشة .. وهو يحس أن كفة المعركة قد رجحت فى جانبهم .. وأن وطأة نيران العدو قد خفت .. وأنه يوشك على الانسحاب ..

وأبصر إبراهيم الدبابات المدافعة قد برزت فى الخط وبدأت فى التقدم .. لمطاردة العدو المنسحب ..

واستطاع أن يميز مراد وهو يتقدم بدباباته من وراء موقعه عن يمين الطريق ..

وملأ نفسه شعور بالراحة والسكينة .. وهو يرقب دبابة مراد تتقدم وحولها بقية الدبابات ..

واندفع مراد فى أرض المعركة ..

ولكن اندفاعه لم يطل .. حتى فوجئ بإحدى دبابات العدو المصابة تصوب مدفعها نحوه .. ثم تضرب دبابته ..

وأحس مراد بدبابته ترتج فى عنف ثم تتوقف .. وأطل برأسه على السائق فإذا به يغوص فى بحر من الدماء .. وإذا بالمدفعجى والسائق قد أصبحا خليطا من اللحم والدماء والعظام .. وإذا بالنار تلتهم الدبابة وتوشك على السريان إلى خزان البنزين ..

وأحس مراد بالمرارة ..

وبدا له أن القدر يأبى إلا السخرية منه .. وأنه يصر .. رغم هذا الانتصار على أن يحرق دبابته .. ويعيده إلى مواقعهم على قدميه مرة أخرى .

و لم يجد بدا من التسليم لمشيئة القدر .. فإن لم يعد على قدمية .. خير من ألا يعود مطلقا ..

ورفع رأسه للخروج من برج الدبابة .. ولكنه أحس بسيل من الرصاص يكتسح أعلى البرج .. ويفرش عليه غلالة تقطع عليه الطريق إلى الهروب من البرج ..

و لم يجد أمامه سوى فتحة النجاة فى قاع الدبابة ..

فهبط إليها بسرعة قبل أن تسرى النار إلى خزان البنزين ..

وخشى أن يتعذر فتحها .. فهو لم يحاول استعمالها قط .. ولكن الغطاء لم

يستعص على قوة ذراعيه وفرط لهفته ..

وحمد الله .. ولكنه لم يكد يهبط بساقيه حتى روع .. فقد وجد الدبابة قد غاصت فى الرمل .. حتى اقترب قاعها من الأرض .. وضاقت المسافة بينهما حتى أضحى مستحيلا على مراد التسلل من أسفلها .

وأبصر إبراهيم وقفة دبابة مراد فى ذهول .. ورأى النيران تقترب من الخزان وسيل الرصاص يكتسح فوهة البرج ..

فصوب المدفع تجاه دبابة العدو ..

وبدأ يطلق ..

و لم يضرب المدفع ..

وكرر المحاولة فلم يضرب ..

والتفت إلى العسكرى يستعين به ليصلح عطل المدفع .. فإذا به قد رقد فى حالة اغماء من فرط ما نزف منه ..

وكاد إبراهيم يجن .. وهو يرقب مراد تحيط به النيران .. وهو يجلس عاجزا ..

وتسلل إلى ذهنه خاطر شيطانى .

ماذا يحدث لو قضى على مراد ..

هل ..؟

ولكنه قفز واقفا .. كأنما لسعته عقرب ..

لعن الله هذا الشىء الخبيث الذى يتسرب إلى أذهاننا .. فيكرهنا على التفكير فيما يثير فى نفوسنا الأشمئزاز ..

لابد أن ينقذ مراد بأية طريقة .

لابد أن يذهب إليه .. فقد يستطيع أن يفعل شيئا ..

وبدون وعى .. ترك المدفع وهبط التبة .. وقفز إلى العربة الجيب ..

واندفع كالمجنون تجاه الدبابة ..

وفى غمضة عين وصل إليها .. ووقف مستترا وراءها من سيل النيران الذى يكتسح أعلى برجها .. وصرخ بصوت حاد :

— مراد ..

— نعم .

— لماذا لا تخرج .. إن الدبابة توشك أن تنفجر ..

وذهل مراد من الصوت الذى يهتف به خارج الدبابة .. وصاح مجيبا :

— لا أستطيع .. لقد حاولت الخروج من فتحة القاع .. ولكن الدبابة كما ترى مغروزة فى الرمال .. والقاع يكاد ينطبق على الأرض ..

— لماذا لا تحاول الخروج من البرج ؟

— سأقتل . ألا ترى النيران المصوبة إليه ؟ .. اسمع .. هل لديك كوريك ؟

— أجل ..

— حاول أن تحفر لى من ناحيتك حفرة بين الجنزيرين .. حتى تفسح المسافة بين القاع والأرض .. فلعلى أستطيع النفاذ منها ..

وقفز إبراهيم إلى الكريك المعلق فى جانب العربة ..

وبجنون أخذ يزيح الرمال أسفل مؤخرة الدبابة بين الجنزيرين ..

وصاح مراد :

— بسرعة .. أنى أكاد أختنق ..

وزاد إبراهيم من جهده .. حتى أحس أن أصابعه قد دميت وأن ذراعيه قد تصلبتا ..

وعاد مراد يصيح .. وقد اختنق صوته :

— بسرعة يا إبراهيم .. لقد وصل اللهب إلى ..

ـــ حالا يا مراد ..

وبدأت الحفرة تتسع أسفل مراد شيئا فشيئا ..

ودفع فيها قدميه .. ثم ثنى جسده وأخذ يجره بعنف وقد حشر بين الرمال والقاع .. حتى استطاع أن يخرج من وراء الدبابة ..

ونظر إليه إبراهيم فزعا .. وهو يجد أمامه شيئا أشبه بالفحمة السوداء منه بالكائنات الحية ..

لقد كان منظر مراد مروعا .. وقد أضاع الحريق شعره وألهب وجهه .. وحرق ثيابه وأطرافه ..

وجلس إبراهيم على مقعد القيادة .. وارتمى مراد بجواره فى إعياء شديد .. وانطلقت العربة ..

وأحست دبابة العدو .. بالصيد الهارب .. فحولت نيرانها من فوهة البرج إلى العربة .

ولم تسر العربة برهة .. حتى اهتزت عجلة القيادة وتأرجحت العربة وكادت تنقلب ..

وندت صرخة من شفتى إبراهيم .. وهو يحس بطرقة فى جانبه .. وشعر بسخونه السائل اللزج الأحمر يسيل على ضلوعه ..

ودار الكون به .. وغيمت سحابة على عينيه .. ولم يعد يبصر شيئا .. أو يحس بشىء ..

وقفز مراد من موضعه ممسكا بعجلة القيادة .. وصاح بإبراهيم :

ـــ ما بك ؟

وتأوه إبراهيم :

ـــ لا شىء .. إنى متعب فقط ..

وجره مراد إلى المقعد الخلفى .. وتسلم قيادة العربة .. وعاود الانطلاق بجنون وسط الرصاص المتطاير .. حتى خف سيل الرصاص .. ثم توقف .. وساد من حوله السكون إلا من صوت احتكاك العجلات بـالأرض .. وصدى الدوى البعيد ..

الفصل الثلاثون

ومعى حمل

مرت ساعات الليل الباقية بليلى ونهى .. فى وحشة مخيفة مروعة .. ودوى المعركة القريبة يرج البيت .. ويخلع قلوب سكانه ..

وجلست ليلى مغمضة العينين شاردة الذهن .. تصارع أفكارها القاتمة .. وهواجسها السوداء .. لا ينجيها من الصراع إلا دقات الساعة .. بين آونة وأخرى ..

وقبعت نهى أمامها .. محملقة العينين مرهفة السمع .. ترتجف من كل دقة .. وتنتفض مع كل دوى ..

وكلما هزت الريح الباب أو رج الدوى النوافذ .. همت بالوقوف فى جزع ..

حتى بدأ الخيط الأبيض يتسلل من النافذة الزجاجية .. وبدت المرئيات باهتة من خلالها ..

وتسللت نهى لتجلس فى مقرها المختار .. وراء النافذة .. ومضى الوقت وهى تحملق فى الهياكل المبهمة المترائية وراء زجاج النافذة .. والتى أخذ الضوء المتسلل فى الظلمات يحدد تفاصيلها رويدا رويدا ..

وأخذت تحملق شاردة .. فى صفى النخيل الذى يحدد طريق العودة .. وتتطلع إلى الربوة التى تكدست فى أفقها سحب قاتمة تحجب السماء وتقطع الطريق على كل شعاع يحاول التسرب مؤذنا بالشروق ..

و لم تكن نهى ترقب شروقا ..

ولا كانت تطمع من طريق العودة .. فى أكثر من أن يعيد الغائب إليها ..

ومر الوقت .. وليلى فى رقدتها اليائسة مغمضة العينين .. مرهفة الحواس .. مشدودة الأعصاب .. ونهى ترقب من وراء النافذة .. مشدوهة .. مأخوذة ..

وسمعت من بعيد صوت عربة .. و لم تمض برهة حتى لاحت العربة الجيب مندفعة من وراء الربوة ..

ومدت نهى عنقها ملصقة وجهها بالزجاج ترقب العربة القادمة .. وهى تحس كأن دق المدافع قد انتقل إلى صدرها ..

ووقفت العربة أمام البيت .. وزاد التصاق نهى بالنافذة ..

وانفرجت كتل السحب القاتمة فى الأفق عن شعاع رفيع يتسلل ليصبغ حواف السحب بحمرة قانية .. مؤذنا بشروق جديد ..

وأبصرت نهى على الشعاع المتسلل شبحا يهبط من العربة .. ثم ينحنى داخلها ليرفع جسدا آخر بين يديه ..

ويتقدم الشبحان ومن ورائهما الأفق الأحمر .. لا يبدو منهما غير الخطوط الخارجية المحددة لجسديهما .

وقفزت نهى صارخة كالملسوعة .. واندفعت إلى الباب ..

وفتحت ليلى عينيها فى فزع .. ونهضت مندفعة وراءها بساقها المجبسه وهى تصرخ متسائلة :

ـــ ماذا حدث ؟

وفى صوت مرير أجاب مراد وهو يتجه بحمله نحو الأريكة :

ـــ انتصرنا .. أبدنا اليهود ..

وانحنى ليضع حمله على الأريكة وهو يقول فى صوت مختنق :

ـــ و لم أعد هذه المرة على قدمى فقط .. ولكن عدت .. ومعى حمل ..

وارتمى على المقعد فى إعياء ويأس .. وقال فى لهجته التى تشبه الأنين .

ـــ لقد أنقذ حياتى ثم مات .. إنى لا أستحق .. لقد كان خيرا منى .

ووضع مراد كفيه على وجهه ثم اندفع فى بكاء مرير كالأطفال ..

ووقفت ليلى تنقل البصر بين الاثنين .. وقد بدا على وجهها الذهول .. لم تنطق .. و لم تبك ..

لقد تحركت بطريقة آليه .. تجاه الجسد المسجى على الأريكة .. ومدت يدها تتحسسه .. وانتابتها قشعريرة .. عندما أحست بلزوجة الدماء الساخنة ..

كانت فى كابوس مزعج .. لا شك فى هذا ..

أجل .. هذا مجرد حلم .. لابد أن تفيق منه .. فهى لا تستطيع احتماله .. أجل يجب أن تستيقظ ..

ومدت يدها مرة أخرى تتحسس وجهه .. ومست طاقتى أنفه ..

وسمعت أنين نهى وقد ركعت بجوار الجسد تمسح رأسها فى صدره ..

ووصل إلى أذنيها نشيج مراد كالأطفال ..

إنها حقيقة .. أجل .. حقيقة ..

لقد مات إبراهيم .. مات ..

و لم تستطع أن تحتمل .. وأحست أن الأرض تميد بها والدنيا تلف وتدور .. وخرت مغشيا عليها ..

الخاتمة

بعد بضعة أيام .. فى إحدى حجرات مستشفى الجمعية الخيرية بالعجوزة .. كان مراد يرقد فى إحدى الحجرات وقد أغلقت النوافذ وساد السكون .. وبدا راقدا على فراشه وقد أحاطت الأربطة وجهه وعنقه وأطرافه ..

ووقفت ليلى ترقبه فى صمت .. وقد جلست أمه على مقعد بجواره ..

وأمسك الطبيب كفه ثم ربتها قائلا :

ـــ أنت الآن بخير .. سنرفع عنك الضمادات بعد بضعة أيام وتعود كما أنت .. لقد غيرت جلدك كالثعابين ..

وتضاحك مراد :

ـــ لعل جلدى الجديد يكون أفضل ..

ـــ طبعا .. لقد أجرينا لك عملية تجميل .. الحمد لله أن النار لم تصل إلى جسدك ..

وتنهدت أمه رافعة كفيها إلى السماء قائلة :

ـــ الحمد لله ..

ورددت ليلى :

ـــ الحمد لله ..

وعندما خرج الطبيب قالت ليلى :

ـــ سأتركك قليلا يا مراد .. حتى أذهب إلى البيت .. خذى بالك منه يا نينة حتى أعود ..

ورد مراد :

— لقد تعبت يا ليلى .. لماذا لا تستريحين الليلة فى البيت ..

وأجابت ليلى مؤكدة :

— لن أغيب أكثر من ساعة ..

وخرجت ليلى ..

وكان الليل قد أقبل بعد نهار صحو دافئ .. ما زال دفؤه يسرى فى أطراف الليل ..

وأوقفت ليلى .. أول تاكسى مر بباب المستشفى .. وبعد لحظة كانت العربة تقطع بها شوارع القاهرة وهى تجلس فى ركن منها منكمشة شاردة ..

ووقفت العربة أخيرا ..

ليس أمام البيت ..

ولكن أمام مقابر الشهداء فى الغفير ..

ودلفت ليلى فى صمت من البوابة الضخمة .. ولاحت المقابر فسيحة تتخللها الأشجار المغروسة حديثا .. ومن ورائها بدت مآذن مقابر الخلفاء وقبابهم .

وقادها الحارس إلى مقبرة أنيقة وسط المقابر الرخامية الجديدة المنتشرة فى أنحاء الفناء لتذرف عليها دموعها خفية فى ظلمات الليل ..

* * *

وفى مكان آخر .. بعيدا عن هذا المكان جلست مخلوقة أخرى .. نحيلة عجفاء .. على قبر آخر .. لنفس الشهيد أقل فخامة وأكثر تواضعا على شاطئ البحر فى العريش بين صفى النخيل .. جلست نهى على الربوة .. التى تشرق من خلفها الشمس .. والتى يمتد وراءها طريق العودة .. وعلى الربوة .. وضعت نهى حجرا .. وعليه خوذة نفس الخوذة .. التى سلمتها له عندما خرج إلى المعركة قائلة له .. خذها .. إنك ذاهب لقتال ..

و لم تجلس نهى إلى القبر الذى صنعته خفية .. ولا ذرفت عليه دمعة .. ولا صعدت آهة ..

وإنما كانت تجلس إليه .. فى أمل .. وثقة وأصرار .. لتحدد به طريق العودة .. إلى الوطن .. الضائع .. والأرض المسلوبة .. ولتؤكد به .. أن دماء العرب لا تراق سدى .. وأن الحق لا يضيع .. وأن الأوطان لا تسرق .. وأن يوما ما .. مهما طال به الزمن .ستعود الأرض المسلوبة إلى أهلها .. ويسود طريق العودة .. سلام .. وأمن ومحبة ..

محتويات الكتاب

رقم الإيداع ٧٧٤٩ / ٨٦ ــ الترقيم الدولى ٥ ــ ٠٢٧٤ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه